# نِـدَاءً خَفِيًّا

# نِـدَاءً خَفِيًّا

## -يَا أُختَ هَارُون-

مريَم منتصر

منشورات الفنار

إلى الـمَبْتُـورِيـن

صباح الخير بابا..

لا أعرفُ كيف يجرؤ النّاسُ أن يتمنَّوا خيراً في صباحاتهم بعد فقد أحبَّتهم؟

صباح الخير، لك أنت فقط، لأنك في مستقرك المريح. أما نحن، أهلُك، لم تزرنا الصباحاتُ ولا خيرها كما كنت بيننا.

لا أعرف يابابا، هل أعتذر عن تقصيري في الحديث معك، أم أنّ أوان الاعتذارات ولّى؟ لا أستطيع أن أصف لك حجم الندم الذي يتملكني. يعتلي صدريَ الضّيق، كأن صمامات قلبي تجاهد كي تسمح للدم بالتدفق.. كأنني أريد أن أمسك قلبي وأضغطه لأتخلص من هذا الشعور المؤلم.

أنتَ تعرفُ أن هذه المرّة الأولى التي أندم فيها على شيء لم أفعله. تعرفُ جيدًا أنني أؤمن بأن الندم على ما فات مضيعةٌ للوقت وأسرٌ موهوم.

الآن نادمةٌ جدًا، كل ثانية، وكل يوم وكلّ ساعة، لأنني لم أمكث فيها جوار ك، أقبِّلُ يديك، ثمّ أمسحُ على رأسك، وأقرأُ لك.

أوحشتَ قلبي كثيراً يا أبي،

رغم كل شيء،

أوحشت قلبي.

بابا، لِم لَم تضمني في الرؤى التي تزورني فيها؟

هل تضنُّ عليّ بعناق؟

هل لأنني لا أتذكر عدد المرات التي احتضنتك فيها؟ أم لأنها مرّات قلائل ؟

أتدري؟ يوم خروجك من المشفى، قلتُ لنفسي اهنئي بهذا العناق، من يدري متى سيتكرر؟ متى ستُلقين بقناع الزيف الذي ترتدينه طيلة الوقت، وتعيشين طفلة مجددًا، ولو لدقائق؟

أتعرف يابابا؟

للأسف كنت محقة. من المرات النادرة التي كنتُ فيها على حق؛ لأنني لم أعانقك ثانيةً؛ لا المرضُ سمحَ لي، ولا الدنيا، ولا أنت سمحت لنفسك أن تكون بخير لأجلي.

أعتبُ عليك أنك لم تعافر قليلًا بعد، وأعرف أنه ليس بيدك، لكنني لا أجد إلا أن ألقي العبأ لك.. لذا فأنا عاتبة عليك.

لم ذهبت باكرًا؟ مِللتَ منّي؟هل حدث وأحزنتك ذات مرة لدرجة أن تذهب وتتركني؟ هل أزعجك وجودك بيننا لتهرب منا لمرقدك، حيث لا نراك مجددًا؟

لن أقول أنك كنت هانئًا بيننا، لن أقول أنك كنت مرتاحًا بشكلٍ

مُـرضٍ لنـا أكـثر منـك، لكنـك تـرضى منـا بأقـل القليـل، ونحـن يـا أبـتِ لم نضنـن عليـك.

أتفهـمُ أنـك في حياتك-أعني،حـين كنـت بيننا-كنـت مريضًـا، وأنهـكك المـرض. لم أنـسَ أن السـنوات الأربـع الأخـيرة لـك لم تـعِ فيهـا تقـدُّم الدّنيـا، لم تشـهَد شـيئًا سـوى تقدُّمنـا نحـن، ولم تـرَ العـالم خارجًـا إلا بأعيننـا. أعـرف أن في هـذه السـنوات كنـت لنـا ابنًـا أكـثر مـن أب، وأن لا شيء في هـذه الأيـام مـضى بطريقـة عاديـة، وأننـا كنـا نسـقم لسـقمك ضعفـه، وأن لا شيء كان طبيعيًـا، سـوى قـولِي «بابـا». ورغـم أنـك لا تذكـر في أيّ صـف دراسيّ أنـا إلا حـين أخـبرك، رغـم نسـيانك بسـبب ثقـل الـدواء عليـك، رغـمًا عـن كلّ شيء في هـذه الدنيـا اللعينـة، كنـت أسـتطيع أن أقـول أبي.

كنـت أسـتطيع مجـاراة صديقـاتي في الحديـث حـين تقـول إحداهـن أبي فعـل،أبي قـال، ذهبنـا وأبي اليوم..كنـت أحـكي عنـك كثـيرًا بينهـم، وأصِفُـك صَحيحًـا ومريضًـا، وأخبرُهـم أنـك زينـة الآبـاء وخـير الرجـال، وأن عُقـدَتي في هـذه الحيـاة أننـي لـن أجـد رجـلًا مثلـك، أخبرتـك ذات مـرّة أننـي سـأعاني، لأجـد رجـلًا يحمِـلُ قلبَـك، ولَـو شـيئًا صغـيرًا منـه.

كنـت أحـكي كثـيرًا لأن فاقـد الـشيء لا يـرى إلّاه، ولأنـك لسـت شـيئًا أفقـده، ولأننـي بعضُـك وأنقُـصُ ببعـدك عـن قلبـي، كنـت أزيـدُ في حديثي. أفتقـد أبي الـذي يقـف عـلى قدميـه، وينـادي اسـمي وهـو يصعـد الـدرج، ويقبـل مـا بـين جفنـيّ حـين يـراني، ويضمنـي إليـه ضمـةً رؤوم.

بابـا، لم حرمتنـي مـن أن أُناديـك أبي؟ هـل أنـا وجـع قلب لهـذه الدرجة؟ ألسـتُ راحـة بقـدر مـا أنـا وجـع؟ ألا يسـتويانِ لديك لـذا رحلـت باكرًا؟ ألا ترى أن رحيلك كان باكرًا جدًا؟ جدًا؟

أنا لا أستطيع أن أشي بهذه التساؤلات لأمي؛ قد انهرت بين يديها لأيام وبكيتُ بين ذراعيها كثيرًا، كأنني أبكيك أول مرّة، كأنني فقدتك هذا اليوم فقط، كأنك متّ هذا اليوم فقط.

مِتّ؟

ألا تستصعب الكلمة أن تُلفَظَ لطفلة تستند على ظهرك؟ ألم تكن انحناءة ظهرك لأنك تحملني عليها لا لسهرك على الكتب لأجل المرضى؟ ألم تقل لي هذا؟

لزمتُ سريرك شهرًا كاملًا بعدما رحلت، أضع رأسي حيث كان رأسك الكريم آخر مرّة، على طرف السرير كنت أنام، أتكور على نفسي محتضنة بقايا رائحتك الموجودة هنا، أمسّدُ موضعك بحنان وحنين جارف، أنا التي منعَتها علّتُك البائِسَة من أن تنعم بحضنك، من أن أكون ابنتك كما يجب، أن أركض إليكَ كلما عدت من الخارج. أنا التي ضنّت عليّ الدنيا بأن تبقى معي سليمًا معافى، حرمَتني منك لتتلذذ بكوي قلبي كل يوم بشعور الندم ذاك.

أنت تعرف.. أتذوقه لأول مرّة، ولو أن هناك ما هو أمرّ من المرّ، لكان هو. هذا الندم، حارق، كأنني أضع النيران في فمي.

مضت الآن ثلاثة أشهر

في كل يوم يمرّ، والله..لا يقدر عقلي المسكين أن يستوعب أنك ميّت. لا أجرؤ أن أتخيَل! حين يترحّم عليك الناس، أؤمّنُ على دعائهم، وأقول لعقلي أن: «تجرّع شوكَ كلماتهم بصمت، وتقبَّله مؤقتًا، ليمضي كل هذا». ثم تلهيني الحياة إلى أن أختلي بنفسي، ويمضي زِيف النهار، وأصبح وليمةً لغياهب الليل، وأذكر الكابوس..

الكابوس الوحيد،الذي لم تستطع إنقاذي منه.

في هـذا الكابـوس رأيـتُ أُمّـي، توقظُنـي بهلـع، صوتهـا قلِـق، ورأيتـك هنـاك ممـددًا. تناديـني أمـي بعجـز لم أعهـده فيهـا، تناديـني بوهـن، كعجـوز تريـد الاسـتناد، كأنهـا في وسـط البحـر، لا تـرى قشّـة نجـاة، ولا يبتلعهـا البحـر فتغـرق.

- أبوكِ..لا يفتح عينيه، انظري.. تعالي.. ما حاله؟

مـا لَـك يـا أبي؟ مـاذا كان حالـك؟ مـاذا بـك حتـى لم تسـتطع أن تفتـح عينيـك لنـا وتقـول أنـا هنـا. إغـماءة ومضـت؟

أقـترب بحـذر، أضـع يـدي عـلى جبهتـك، حرارتـك مرتفعـة، كانـت منخفضـة جـدًا في الفجـر. أضـع مقيـاس الحـرارة تحـت إبطـك، أنتظـر صـوت الصفـير. في هاتـين الدقيقتـين، كنـت أسـتجمع في عقـلي كل مـا أعرف عـن الطـب، كل مـا رأيـت وقـرأت، كل مـا عشـته معـك ومـا مـن المفـترض أن نفعلـه في حـال إذا مـا واتتـك نوبـة. أنتظـر بصـبر، بصـبر طويـل، بصـبر ينهـشُ في جـدار فـؤادي. لَـم تُخـبِرني أنّ الصـبر قاتـل يـا أبي.

لا أسـتطيع أن أحـصي لـك كـم مـرّة متنا ونحـن ننتظـر هاتـين الدقيقتين، بينـما أنـت تمـوت مـرّة واحـدة! خَرجَـت روحـك في دقيقتَـي انتظـار، بينـما أرواحنـا بلغـت الحلقـوم مئـات المـرات في ذات الدقيقتـين، ثـم ارتطمـت بصدورنـا ولم تخـرج..

أخيرًا، يطلق الجهاز صافرته، أربعون! أهزّ جسدك الهزيل برفق.

- بابا.. هل تسمعني؟

لم ترد.

أولِّي وجهـك قبلتـي، لم تُبـدِ رد فعـل. أضـع رأسي موضـع قلبـك، أسـمع

نبضك ضعيفًا. قلتُ إنها نوبة. قلتُ إن الأمر أقصاه أن طبيعة نبضك ضعيف. أضغط بأصبعيّ على معصمك، يتباطيء النبض أكثر. لا أتوقع أنك ميّت أبدًا، جسدك دافيء. قلتُ أن أشد ما في الأمر غيبوبة، ونسيت الطب، الذي درسته وعملت به، وما تعلمت منه لأجلك، وأنني معتادة التصرف وقت ما تباغتك نوبة، وأنني يجب أن.. يجب ماذا؟

لقد نسيت كل شيء..

خانتني نفسي، وعدتُّ الطفلة التي تمسك يديها في السادسة ذاهبًا للمسجد، لا الطبيبة ذات النيف وعشرين. أفيقُ على صراخ أمي:

- مات..

أهاتفُ عمي، أقول له بكلمات مبعثرة، برجاءٍ خفي من الطفلة داخلي:

- إسعاف ياعمو، بابا لا يستجيب لصوتي، لا يفتح عينيه، لا يتحرك.

لم أتوقع نفسي، كنت أحادثه برزانة، أو هكذا وصله صوتي المسكين. بآلية طبيب مات على يده كثيرون، وأنا لم يمُت على يدي، وفي حضني، إلّاك. بعقلٍ هادئ لا يتناسب مع هول الموقف تحركت، لو كانت أخرى مكاني، لا، لو كنت أنا مكاني وقتها لوضعت رأسك في حضني ومكثت أقبّلُها وأُبكيك كي تعود، أرجوك بعددِ أنفاسي التي منحتَ لي منذ أن ولدت ألا تموت، أن تبقى معي، أرجوك بعدد خطواتي التي خطوتها جوار قدميك، أن تبقى معي؛ لا زال هناك كثير مما لم تَشهدني عليه، هناك كثيرٌ خططت له حين تتعافى سنفعله

سـويًا. لم أكـن لأسـمح لنفسي أن أضيّـع منحـة اللـه لي هبـاءً!

يـأتي عمـي راكضًـا، الوحيـد الـذي أحبَّـك مـن قريتـك الظالمـة، الوحيـد الـذي رآك، وأدّى حـقّ أخوّتـه، بينـما أخرجـك البقيـة منهـم، لأنـك وزَوجَـك وأبنـاءك، قـوم يتطهـرون.

فعـل عمـي مثلـما فعلـتُ أنـا، وضـع رأسـه حيـث قلبـك، يرجـو أذنـه أن تلتقـط صوتًـا لنبضـك، يتوسـل إليـك صمتُـه ألا تذهـب وتتركـه، لأجلنـا، لأجـل أمـي المسـكينة التـي سـتواجه القريـة الظالمـة وحدهـا، ولأجلـه هـو.. كي لا يختلـط الصالـح فيـه بالفاسـد فيفسـد. صرخ في أمـي أن تهـدأ، قـال أنـك حـيّ وقـال لهـا أن تكُـفَّ عـن الهذيـان، وكان يعلـمُ قبـلي يـا بابـا..

كان يعلـمُ أنّـك ذهبـت، وكان حزينًـا لأنّـك ذهَبـت.. كأنّ جبـلًا وضـع فـوق قلبـه. كنـت الخـير الوحيـد في قريتكـم هـذه، كنـت علامـة النـور الوحيـدة لـه. مـن غـيرك كان يشـعره أن الدنيـا بهـا مـن الملائكـة بـشرًا؟!

تركنـا وقـال سـيذهب لينـادي طبيبًـا يعرفـه، ولم يجـده، فاسـتدعى الإسـعاف. لاحقًـا، أخبرتنـا زوج عمـي أنـه كان يسـير في الشـوارع بـلا وجهـة. قالـت أنـه كان كالطفـل الضائـع، لا يعـرف أيـن يذهـب. كان يعتني بـك معنـا، دائمًـا كان يعتنـي بـك معنـا، لم يـتركك أبـدًا، ولحسـن حظـك يـا أبي، لم يذهـب خـيرُك هبـاءً. لقـد تغـيّر كثـيرًا، تغـيُّرًا أخالُـك فرِحًـا بـه، هـل لأنـه الوحيـد الـذي تآلـف قلبـه بقلبـك يـا أبي، فكافأتـه بـأن أعلمتـه برحيلـك أولًا؟ كيـف علـم قبـل أمـي، وهـي زوجـك، ورفيـق حياتـك؟ كيـف علـم قبـلي وأنـا ابنتـك، جـزء منـك.. ألسـت أولى أن أدرك هـذا قبلـه؟ أنـا بعضُـك، هـل يـترك البعـضُ بعضَـه ويرحـل؟ هـل هنـاك مـا يربـط بـين قلبيكـما يشـعره بمـا يلـمُّ بـك، فيـدُقّ ناقـوس الخطـر في عقلـه قبلنـا؟

أتى المسعف المتقاعس، أتت سيارة الإسعاف، سيارة التقاعس. كنت ألوم كل شخص وكل شيء في عقلي، ووجهي ثابت رزين، لا يتكلم إلا مجيبًا. لم تفلت أمي يدك، تحتضنها بين كفيها الشقيين من تعب الدنيا، تدمع جوارك.. تتوسل كل التوسل ألا تتركها في الغاب الذي تعرفانه. هذا اليوم، لم تكن تناديك «بابا» كما تناديك، نادتك باسمك، ورجتك باسمك، متجردةً من كل قوة زائفة وثبات كاذب، تناشدك بأسماء الله كلها ألا ترحل، تناشدك باسم الرباط الغليظ الذي جمع بينكما ألا تتركنا، تذكرك بحق العِشرة، والأيام الشداد والمترفة. لكنك خذلتها، وخذلتني!

قال عمي أن نقف خارجًا، التقطتُّ يدها بين يديّ كي لاتهوى منّي، كانت تغمض عينيها كي لا تسمع لما لا تريد. نظر إلينا المُسعِف، ولما وجدنا إناثًا متهالكة، لا حول لنا ولا قوة، ننتظر منه بِشارةً كاذبة، قال:

- لا تقلقوا.

ورافقه عمي للأسفل. لم أتمالك نفسي، عادت أمي لوطنها، حيث جسدك، ولحقت أنا بهم راكضة. إن كان هناك ما سيخبرنا به، فليقله أمامي. لأنني أنا ابنتك، وأنا الأولى بمعرفة ما يحلّ بك، أنا أولى بأن أستقبل أخبارك السيئة قبل الجيدة، لأنني أنتظر اليوم الذي تشفى فيه، انتظار الغيث بعد سنين يُوسُفَ العجاف. في منتصف الطريق من الدرج إلى الباب سمعت ذلك البغيض يقول بصوت روتيني، خالٍ من أي تأثّر:

- أولًا، البقاء لله..

ولم أُكمل باقي الحديث، جلستُ حيث أنا. ماذا هناك لتقول ثانيًا؟ أي ثانيًا أفجع من أولًا ياحضرة المُسعِف؟ أيّ ثانيًا يجبُ أن نسمع منك؟ هل ثانيًا تتضمن معجزة النبي عيسى لتعيد روحه إلينا؟ هل ثانيًا تقول أنه احتمال بين غيبوبة ووفاة ويجب أن ندركه؟ هل ثانيًا تسلي عن أمي شقاء الأيام التي ستراها؟ هل ثانيًا تعيدُ لي أبي ليقضي جواري دقيقة تغنيني عن الشق الذي انفتق فجأة في قلبي بكلمتك؟ هل تغنيني عن هذا الصدع الذي هدّ جزءًا مني في ثانية بكلمتك الروتينية السخيفة؟ هل ثانيًا.. تسليني عن هذه الأيام، هل تخفِّف من وطأة البكاء الذي يصيبني الآن بينما أكتب لوالدي رسالة؟ أيّ ثانيًا ياحضرة الطبيب؟!

عدت لأعلى بخطًى طبيعية كأنه لم يحدث شيء، كأني لم أسمع ما سمعت. أمسكت هاتفي، كتبتُ كلمتين:

- بابا.. مات.

وأغلقته. ليس لشيء سوى انتظارٍ بائسٍ ليكذبني أحد، ليس لشيء سوى ليقال لي تمزحين وأجيبهم أجل، إنها مزحة.. بابا يحب أن يمزح معي. أردت أن يصفعني أحدهم وأن يقول لي أنت مريضة، تتخيلين أشياء واهمة كعادتك، تتخيلين كثيرًا لأنك أساسًا لا تعيشين في واقعنا، لا تؤمنين به. ثم سقط مني الهاتف، وسقط فوق رأسي حجر الفاجعة، حين التقطت أذني بكاءَ الجبل، بكاء أمي.

هل رأيت من قبل جبلًا يبكي؟ لن يبكي حجرًا، إنما يحدث زلزالًا. وكان بكاء أمي، ما هزّ الأرض الثابتة فينا. وقتها يا أبي، في هذه اللحظة الفاصلة، انقشع غبائي، أزيح عن عقلي الستار لأتدارك ما

حـدث منـذ سـاعات.

أنـت لمَ كنـت تبتسـمُ لي فجـرًا حـين كنـت أطعمـك حبـات العنـب، أنـا.. لم أكـن.. «وحدي»معـك في الغرفـة! زارنـا ضيـوفٌ كِـرام لم أسـتطع أن أتبينهـم، ورأيتَهـم وحـدك، معهـم أكـثر ضيـفٌ أرتعـبُ منـه في حيـاتي. رأيتـه أنـت ولم تخـشَ شـيئًا. رغـم أن المـوت كان يفزعـك، وذِكـره يُرجِـف قلبـك رهبـةً. رغـم أنـك كنـت تسـتيقظ فزِعًـا كثـيرًا في الليـل، ناطقًـا الشـهادة خشـية ألَا تمـوت دونهـا. رغـم كل هـذا، زارك ضيفُـك، ولم تجـزع، ولم تخـف، كنـت هادئًـا، تبتسـم لي براحـة، كأن ليلتنـا لم تمـضِ أسـوأ مـا يكـون، كأن ابنتـك لم تركُـض في منتصـف الليـل كـما الرجـال بحثًـا عـن ممرضـة تسـاعدها، كأن أمـي لم تمـت مـرات ومـرّات قبلـك، كأنـك لم تفجـع قلوبنـا عليـك. كانـت ابتسـامتك مريحـة، وجميلـة، كآخـرِ جميـلٍ يمكـن أن تـراه عينـيّ، حتـى أننـي مـن بـين ضيقـي ضحكـت وقلـت لـك:

- ألن تكف عن استفزازي بضحكتك هذه؟

ونـاديتُ أمي:

- انظـري كيـف يبتسـم زوجـك المدلـل، ينـام مطمئنًـا كفايـة كأننـا ملائكـة الرحمـة جـواره.

وكأن بسـمتك هـذه كانـت مكافـأة نهايـة الرّحلـة، وآثرتَنـي بهـا، ومـن ليلتهـا تـأرق مضجعـي، ازدادت الأفـكار السـوداء في رأسي سـوادًا،من ليلتهـا وأنـا، أخـشى صيـاح الديكـة. وبـدلًا مـن أن أذكـر الدعـاء الـذي علمتنيـه حـين نسـمع صياحـه، بـات صوتهـم -رغـم انتقـالي عـدة مـرات مـن منزلنـا- ناقـوس خطـر يطـرق مسـمارًا في رأسي. هـل مـارآه هـذا الديـك كان ملـكًا عاديًـا، أم أنـه هـو.. الضيـف الـذي زارك؟ هـل كان صيـاح الديـك حينهـا

فرحًا لرؤيته ملائكة تزورك، أم تحذيرًا لي بأن الله سيسترد أمانته في أبيك، لا تخلدي للنوم، اسهري جواره، هذه اللحظة لن تعود، وأنتِ لن تعودي أنتِ.

ومكثتُ جوارك قليلًا، قليلًا أقتاتُ به لأعيش، وقليلٌ منك كلّ الكثير. صليتُ الفجر، ورأيتُك تحاول إغماض عينيك:

- بابا، ستنام؟

ابتسمت وهززت رأسك. هل قلت ذلك لتريحني فقط؟

وداعب النوم عيني، مدّعيًا كذبًا أنه أتاني ليعينني على الصباحِ التالي، فاستسلمت لادعائه. مسحتُ على شعرك المختلط سواده الفاحم بالشيب؛ الشيب الذي يحكي لي عنك دومًا حكاياتٍ نحن -أهلُك-غايتها، وذهبت لأنام أنا سويعات، لأتركك تنامُ أنت للأبد. نمتُ أسوأ نومَة يمكن أن يحظى بها الإنسان، رغم أنها كانت خالية من القلق، رغم أن جسدي نال قسطًا من راحةٍ كاذبة، لكنني بقيتُ أتعذب بهذه الساعاتِ لأسابيع تليها.

يستيقظُ الناسُ من الكابوس يا أبي، وأنا استيقظتُ على كابوس عظيم، مهول، لا أستطيعُ أن أتحمّله. تذكُر تلك المرّة؟ حين كنتُ في الثامنة، وصرختُ ليلًا.. لمَ كان صراخي يا بابا؟ لأنني رأيتُ كابوسًا، فأيقظتني، وضممتني لصدرك، ومضيت تتلُو آيات الله حتى أهدأ، ثم سألتني:

- ماذا رأيتِ؟

قلت لك -إن لم تخنني ذاكرتي- أنها كانت شجرةً كبيرة، يتدلى من فروعها أشياء مرعبة، كانت تتحدث إليّ، وصوتها مخيف.

أفهمتني، وقلت لي:

- إن الأحلام السيئة يجب ألا تنغص علينا مرور الأيام، وما علينا فعله حين يراودنا كابوس، أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن نقرأ آية الكرسيّ، ثم نضطجع على شقّنا الأيمن، ونعود للنوم بكُل راحة. لأننا حين نقرأ آية الكُرسيّ فإن الله سيحمينا، ولن يصيبنا بإذنه أيّ أذى.

وفعلت. بينما عينُك الحنون تراقبني، ولا أستطيع أن أصف لكَ كيف حميتني ليلتها، وكل الليالي التي تليها من هذه الأحلام. الآن يا سيّدي، قُل لي: «ماذا أفعل في الكابوس الذي استيقظت لأجده؟»، ولم أجدك لتضمني وتمسح دمعاتي، ولم أجدك لتقول لي أن أستعيذ بالله، وأن الحلم السيء يجبُ أن ننساه لندع الأيام تمرّ.

***

مرّت الأيامُ من فوق قلبي يا بابا، كأنها كانت تستلذّ بتذكيري أن الشمس تأتي كلّ صباح، وأن القمر يطلعُ كل ليلة.. وأنت لست هنا. تدُوسُ الدنيا على قلبي لأنَّك رحلت. تُذكّرني بالسويعات التي نمتها بدلًا من البقاء جانبك، تُحيي فيَّ الندم الذي تذوقته لأول مرّة على يديك، وطوّقني هذا الأخير. مكثتُ ليلتين كاملتين بعدها لا أنام، لا يغمضُ ليّ جفن، لقد تعلمت عيناي الدرس، بثمن قاس،لا، بل بما لا يقدّر بثمن.

هل تظنني مكثت هذه الليالي أبكي؟ للأسفِ لا، أنا لم أبكِ في أيام رحيلك الأولى. حين أخذوك إلى غرفة الغُسل، لم أبكِ، قلت قضاء الله وقدره، استرجعت الله فيك كثيرًا ولم أشعر أنني أريد البكاء حتى.

غرفتُك أنا التي رتبتُها بعد أن أخذوك للغسل، أنا التي غيرت ملاءة السرير، نظمت وسائده، وأعدّتُ كتيباتك الصغيرة والسواك وزجاجة العطر مكانهم، تحت الوسادة لا في الدرج، كما كنت تفعل أنت. أنا التي رششت فيها العطر، وفتحت النافذة، ثم أطفأت النور وخرجت، مغلقة الباب، ومُخلّفةً قلبي خلفَه.

أردتُكَ أن تراني، أقسم يا بابا، كنت ستتعجبُّ وتسألُ من هذه. كنت أصافح الناس بقوة، أرد على الهاتف بنبرة هادئة، أحضر لهم ما يريدون، أدلهم على مواضع المعدات في المنزل، أجلس جوار أمي، أربت على كتفها تارةً وأقف جوار إحدى أقاربنا تارة، غمست نفسي في تلبية نداء كل من ينادي كي لا أسمح لنفسي بتصديق هذه المسرحية حولي. قالت لي إحداهن: «ابكِ ولا تتظاهري بالقوة». فاجأت نفسي بأنني بدلًا من أن أبكي، ابتسمت في وجهها وقلت: إنني لا أشعر بأنني على وشك البكاء، ولا أريده، لأنني أعرف كم أنك مطمئن وآمِن. أنا لم أكن أتظاهر بالقوة التي ظنّتها، لكنني في صدمة لا أستطيع تصديق أنها حقيقة، ولن أبدي ردة فعلٍ إلا حين أتبين حقيقتها.

وقد كان..

حينما نادوني لأقبل رأسك، قائلين:

- ليودع الميت ناسُه.

من هذا الميت؟ ما هذا الهراء؟ هل نسيتم اسمه يا حمقى! أبهذه السرعة يُنسَى ويُنبَذُ الأموات؟ يا أغبياء، هذا الذي نبذتم اسمه في أولِ ساعة من وفاته.. أتعرفون من يكون؟ أتعرفون ماذا قدم طيلة النيف وخمسين عامًا الذي عاشهم؟ أتدركون البطولات التي قدمها في

حيـاة أولاده؟ أتـدرون حجـم الابتـلاءات التـي عاشـها؟ و..

أهكذا..

بهذه البساطة..

يُنسَى؟!

تركـت تسـاؤلاتي، هرولـت إليـك، كـدت أنزلـق مـن عـلى الـدّرج، أنـازع أجسـاد الرجـال عـلى البـاب لأدخـل بقـولي الفخـور رغـم أي شيء لا أحـس به :

- أنا ابنته، أنا ابنته..

هـوى فـؤادي منـي، حـين رأيتُـك في زيّـك الأبيـض، لم يكُـن زي الجمعـة الـذي تحـرصُ عليـه، معطـرًا باللابيـدوس الـذي تفضـل، كان ذلـك الآخـر.. المعطّـر بالكافـور. اقتربـتُ منـك بخطًـى متغايـرة، أتمايـل مـن الـدوار، كلـما خطـوت خطـوة إليـك تصاغـرَ سـنّي، حتـى إذا مـا صـار بينـي وبينـك قيـد خطوتـين، عـدت رضيعـة لا أعـرفُ المـشي. كيـف آتيـك بقدمـي لأودعـك رغـمًا عنـي.. بـإرادتي؟ حثتنـي أمّـي لأقـترب، ترتجـف يـدي. أدنـو مـن رأسـك، ترتعـش شـفتاي، تتنافـران بعيـدًا عنـك، غـير مصدقتـين أنهـما سـتقبّلان رأسـك لآخـر مـرّة، بينـما مـن المفـترض أن تمكُـثَ بقيـة مـا بقـي لهـما مـن عمـر يقبـلان كفـك وبـين عينيـك.

أهـوي عـلى رأسـك، ألصقهـا بـرأسي، أقبـل جبينـك قبلـة طويلـة أمطـرت لهـا عينـي، أريـح رأسي فـوق جبينـك لثـوان، وأبـكي.. كـما لم أبـك في حيـاتي. أبـكي بغـزارة لم أعهدهـا في عينـي، تحيطهـما غمامـة مـن البـكاء، تنتابنـي رغبـة هائلـة، مليئـة بالقهـر والحـزن والشـوق الـذي اسـتعرّت نـاره فجـأة، لأقبـل يـدك و أمـ ...أيـن يـدك يـا أبي؟ لمـاذا أخفوهـا الآن؟ أريـد يديـك يـا

أبي.. أريد يديك!

يسحبونني خارجًا. أرتمي برأسي لأقرب جسد أمامي. أبكي ويخرج صوتي الكسير. تصدر مني آهة صغيرة، يناولونني لبعضهم البعض كي أعود لغرفتي. ترتفع آهة قلبي حتى ندت مني واحدة طويلة، لم أستطع بعدها الحراك. خار جسدي كلّه.

- قلبي..قلبي يؤلمني، لا أتحمل..أنجدوني!

كان يؤلمني حقيقةً بلا مجاز. شعرت به يتقطّع، شعرت به يخرج الدم منه قسرًا، يريد أن يختلي بحزنه، ولا يسمحون له، كما لم يسمحوا لي! أحضروا لي كوب ماء. تذوقته ولم أبتلع منه رشفة. ظل في فمي بلا طعم، لا أبتلعه بإرادتي، لا أقوى على تقبُّل أي فعلٍ بلا أبي، حتى لو كان رشفةَ ماء. لا أتقبل أن أشرب هذه الرشفة، لأدرك بعدها أنه ليس هنا. لا أتقبل أن أتنفس لأدرك أن هذا النفس دخل وخرج وأبي لم يكن حارسًا عليه!

- لا أتحمّل..

يمددوني على الفراش. نفسي يخرج بصعوبة، ليست إحدى نوبات الربو، لا أحتاج علاج الربو، أنا أحتاج أبي. من بين همهمات السيدات وبكائهن، ميزت قول واحدة:

- سلامة قلبك يابنتي، سلامة قلبك.

سلامته؟ أبي هو سلامته، سلامُه، سِلمه، كل شيء. أبي هو كلّ شيء. أعيدي أبي، وسأقول آمين لدعائك بهذه السلامة لقلبي! من يعيدك إليّ يا وحيدي؟ من يدنيك منّي، ولو ثانية.. أضمك فيها ضمة اعتذار، احتياج، وضعف هو أشدّ ما يكون. من لي بالذي يدنيك منيّ لثانية..

نوقـف عندهـا الزمـن يـا أبي، وأشـكوك نوائبًـا مـدّ لي الدّهـر بهـا يـده بسـخاء. مـن لي بالـذي يخـبرك عنّـي أننـي.. أضعـف كلّ يـومٍ عـن سـابقه، لأنـك لسـت موجـودًا. ولأنـك مـذ رحلـت، وظهـري متقـوّس، وكتفـي منحـنٍ، ورأسي تقاتلنـي لتتهـدّل -أنـا الشـامخة الـرأس أبـدًا-.

ولأننـي ابنتـك، مـا كنـت أن أسـمح لهـا إلا بالسـموّ، ولـو كانـت تتقطّـع أشلاءً..

# (١)

أسمعت يومًا عن سخرية الدنيا، والأيام.. عن استهزاء كل ما حولِك بك؟ مثلًا: أن ينشقَ ثوبُ الليلِ فتتلقاكَ الشمسُ بابتسامةٍ متحمسة لأنها فقط ستراكَ تركُض؟ وأنت لا تدري لم تركُض، ولأجل من؟ تُنفّذ دون أن تسأل.. تنصاعُ لما اعتدتَ عليه ولو لم تحببه. وكأنّ الشمسَ مخلوقٌ لا يُحبُّ الهدوء، أو الراحة.

إنها تكره انتظام أنفاسِك ليلًا فتصارعُ بقيةَ النجومَ التي تؤنِسُ سهرك إن سهرت، وتمسحُ على جفُونك لترتاح إن أصابَك حزنٌ أو أرق، لتتوسطَ كبد السماءِ متفرّدة، ترسلُ أطفالها المزعجين ليداعبُوا عَينيك باستمتاع، فتصحُو متذمّرًا شاكيًا لهوَهم الصّارخ. ولا يحقُّ لك عقدُ هُدنة.. ستصحو لتخوض معركتك الآن! نفّذ أولًا، ثم تذمّر كما شئت.. المهم أن تحظى أشعةُ الشمس بالمتعة! تتكبّر كونها نجمًا كبيرًا يهبنا الضوءُ!

كان ذلك حالُ أغلب الناس إن لم يُرافِقهم السُهادُ ويأنس بهم، ويستعذب جلستهم. شخصٌ مثلي مثلًا، خاصمَ النوم ليلتين فخاصمه النوم دَهرًا طويلًا؛ رحلَ مُبعدًا وتركَ لي أثرًا يُذكّرني به. أهداني أرقًا مُتواصِلًا، وفِكرًا لا ينفكُ مُغادرًا حتى يأتيني لَفيفُه مُسارعًا مُحاصِرًا. دماغي تتثاقل كلما تقدمت، وبتُّ أحملُ معي كيلوات من الأفكارِ المتزاحمةِ التي وددتُ لو أُنشِأ منها سُوقًا لتكُف عن التناطُح وتترُك رأسي المشوّش.. من يدري، لو فعلت، كنت ربحتُ المليون!

أكل ذلك كان ضريبة سهر ليلتين؟!

عـلى أننـي لسـتُ مـن مُحبّـي النهـار أبـدًا، ولا آلَفُـه إلا أنـه فُـرضَ عـليّ تحمُّـلُ النهاريـين. الصخـبُ والحركـةُ في كلّ مـكان؛ ضجيـجُ أبـواق السـيارات، شـجارُ السـائقين، أحاديـثُ النسـاءِ التـي يلُكـن بهـا كل مؤنـث يعرفنـه كالعلكـة، ركـضُ الفقـراء سـعيًا لسـدِ جـوعِ أيـام، صيحـاتُ الرجـال في المقاهـي حـين الفـوز بالـنرد أو تشـجيع فريـقٍ مُفضّـل، بـكاءُ الأطفـال وصراخُ في المواصـلات وعـلى الأرصفـة وفي المـدارس والمستشـفيات وحتـى أمـام المنـازل. أمـا كان العـالمُ ليصيرَ ألطـفَ لـو نـامَ الأطفـالُ مـن السادسـة مـع غيـابِ آشـعة الشـمس؟ وهكـذا.. بـات واجبًـا عـليّ دفـعُ ضريبـةٍ نهاريـة، فقـط لأننـي ألـزمُ زيـارةً يوميـةً للمشـفى.

أسـماني أبي هَتُـون؛ بفتـح الهـاء وضـم التـاء. لا تتعـب عقلـك بالتفكـير في الاسـم إن لم تسـتلذ غرابتـه واختلافـه، وأنـا بصفتـي صاحبتُـه المزاجيـة، لـن أتعـب نفـسي بشرحـه والاسـتماع؛ لـديّ خمـس وعـشرون سـنةً مـن التيـه، واللاشيء، خمسـة عـشرَ حملـوا مـن السـذاجة والبلاهـة مـا حملـوا. ثـم كنـت سريعـة الإدراك؛ أسـخر مـن أفعـال المراهقـات. بـين رفيقـاتي كنت غريبـة، لا أميـل لعنفوانهـم، لا يثـير فضـولي مـا يثـير فضولهـم وقتهـا. كنـت صامتـة، وكان ذلـك ينـافي سـجيتي، أو لـلأدق.. كنـت وحيـدة تمامًـا. ولـلأدق أكـثر، لم أجـد مـن يشـبهني. آثـرت الهـدوء، وعُـدِدتُّ مـن المنبـوذات. الفـترة الكاذبـة التـي أدعـو أنهـا تسـبق النضـج، وأسـموها مراهقـة، لم تمـرّ بي. ولا أعتـبر تقديـس هـذه المرحلـة أو وضعهـا في الهـرم الزمنـي لنمـو الإنسـان شـيئًا صحيحًـا، وإن كانـت مرحلـة حقيقيـة ومتفـق عليهـا. ببسـاطة لأنهـا مرحلـة دخيلـة. ألا يجـوز أن ينضـج الإنسـان دون أن يمـر

بهـا؟ هـل ذكـر في أحاديـث السـابقين عنهـا؟

لا أعتقـد أن قضيـة المراهقـة شـغلت عصـورًا وأزمنـة ماضيَـة؛ قيـل لي أنّ ظهـور سُـلَّم المراهقـة بـدأ مـع فسـاد المجتمعـات. واكتفيـت بهـذه الجملـة لأؤكـد لنفـسي أننـي لسـت مخطئـة. بطريقـة أبسـط؛ المراهـق إنسـان بالـغ، ألا يحاسـب إن مـات عـلى ذنبـه؟ ويثـاب عـلى حسـناته؟ ألا يُسـأل عـن صلاتـه؟ الجـواب الوحيـد سـيكون بـلى! إذن، هنـا ترفـع الأقـلام، وتجـف الصحـف. ثـم إنهـم قالـوا لي-أعنـي والـدي وأهـل بيتـي- أن عـدم مراهقتـي تعـد اسـتثناءً. لم أكـترث، ولا أكـترث؛ كنـت أرى تصرفـاتٍ أقـل مـا يقـال عنهـا أنهـا غبيـة وبـلا تفكـير.

كان بعـد هـذه السـنين ثـلاثٌ أخريـات مـن الإدراك بـأن العـالم لا يتمثـل في أمـي وأبي وإخـوتي؛ والسـنون الأخـيرة الباقيـات كانـوا شـتاتًا.. فقـط دورانٌ حـول نفـسي، كـدوران الدراويـش غـير أني لا أعـرفُ وجهتـي. لا أعـرف لمَ أدور؟ يغلـق الدرويـش عينيـه عنـد الـدوران؛ ذراع يرتفـع لأعـلى بغيـة أن تلمـس أطـراف أصابعـه بـاب السـماء، وذراع تتـدلى لأسـفل بغيـة لمـس أناملـه الأرض. ويبـدأ الـدوران ببـطء، ثـم بسرعـة، ولـه هـدف وبغيـة محـددة.. الوصـول للكـمال، أو السـموّ الروحـيّ، أمـا أنـا؛ فكأننـي اسـتيقظت فجـأة ووجدتنـي أدور بسرعـة، بـلا تمهيـد، وبـلا هـدف، بعينـين مفتوحتـين مشـدوهتين بمـا يحـدث لا تعـرف أيـن تنظـر، وذراعـين تحتضنان جسـدي بقـوّةٍ خوفًـا مـن هـولِ الدنيـا التـي تراهـا وهـي تـدور.

أفاقنـي مـن شرودي رسـالةٌ تؤكـدُ عـليَّ اصطحـاب الأشـعّة وأوراق التحاليـل برفقتـي لأن الطبيـبَ يريـدُ التأكُّـدَ مـن الفحوصـاتِ الأخـيرةِ ومقارنتهـا بالقديمـة؛ تبعتهـا أخـرى تؤكـد أن ميعـادي العـاشرة صباحًـا وألا

أتاخر. شدّدت على «ألا أتأخر» فابتسمتُ من قولها ضاحكة؛ حفظتني جيّدًا، واستطعتُ إقناعها أخيرًا أني لن أتغيّر.

بعض الطباعِ لا تتغيّر ..

على غير المعتاد نهضتُ باكرًا، جهزت كل ما أرادت، وخرجتُ لألحقَ ازدحام المرور من البداية. لا يجبُ أن أتأخرَ حتى لا يعتصرني الركاب بينهم، لا يجبُ أن أنتظرَ بعيدًا مثلًا ثم أحاول مع الحافلة التالية؛ عليك أن تدهسَ قدميك بين أقدام الركاب وتفوز بأحد المقاعدِ كفوزك لكأسٍ ذهبية ليرضى عنك الناس، وإلا يتهمُك النهاريون بالتقصير والكسل وعدم إدراكك للمسئولية. كان ينقصني تصويرٌ مقطعيٌّ واحد، وهو الأخير قبل فحص اليوم. مررت على المركز لأجلبها. وهناك يُلقي عليَّ موظف الاستقبال الصغير أسئلة لا نهائية عن جامعته، ومتى سألتقي به لنكمل الدراسة؛ لا أكادُ أسكتُ فاه بما يريد، حتى أمارس عادتي الإجبارية؛ الركض. لأنني قد تأخرت. وبات هذا هو المعتاد، وأصبحت هذه هي أنا.. متأخرة دائمًا، أركض دائمًا. مؤسف أن يتغير شخصُك، أن ترافِقَ الأيامَ ببسمةٍ غرّة، ثم تخاصمُكَ على حينِ ألم.

دلفتُ فلم أجِد سوى فردًا واحدًا هادئًا، حمدتُ الله في سرّي وتنفستُ الصعداء، ألقيتُ عليه تحيةً سريعة وسألتُ عن السيد سليم أو هارون، أشارَ أنهما في الداخل. طرقتُ الباب بتناغم محبَّبٍ إليَّ، فعرفاني وأذنا لي بالدخول، ألقيت تحية مرحة وجلست. كان هارون مشغولًا بمكالمةٍ، فلم يرد. لوّح يده يحييني في اضطرابٍ لم أفهمه. رد السيد سليم التحية، ولم ينسَ أن يهدي قلبي مجاملته.

- أيّ صباح لطيف هذا الذي يبدأُ بك يا ابنتي؟

ابتسمتُ وقُلت بتلاعب لم يدرك باطِنَه:

- الصباحُ الذي أنت شمسه يا سيدي.

ضحكٌ ملأ قلبه، وحسب التورية في قولي مدحًا. كانت كذلك بطريقةٍ ما، إنني أمدح نشاطه واجتهاده، وأتبرم منه حين يزعجني بأوامره عن ضرورة الحضور باكرًا متى ما كنت أعمل هنا. كما تزعجني أشعة الشمس صباحًا، تزعجني دقته. سألني:

- كيف أنت؟ أخبريني عن حالك.

- بخير حال.

أتاني صوتُ ثالثنا الساخر:

- تحبين نفسك وأنت بحيرة راكدة؟ أنت بخير حقًا.

قلت:

- أخبرتني شوق أن اليوم ميعاد تجديد الفحص، وطلبت مني التقارير والصور السابقة؛ أذكر أنني تركتها هنا.

ربّتَ على يدي مطمئنًا وهو يخبرني:

- ليكن خيرًا. أعرفُ صالح، قلبه راسخٌ، لن يستسلمُ بسهُولة، إنه يعرف أن عليه النهوض لأجلكم.

- قضاءُ الله كله خير.

تدخّل هارون للمرة الثانية. جلس مقابلًا لي، وقال برجاءٍ مشفق عليّ :

- طالما أن الرضا يشع كالندى على الورق الأخضر من كلماتك، لِم لم تفكري في منحِ نفسِك فرصة؟ أنت حنونة على ورق الشجر، حتى أنك لو لم تجدي ماءً يسقي

ورداتـك لأهديتهـا دمعـك هتونًـا لـتُرَوَى. فليـت شـعري أراكِ تقسـين عـلى نفسـكِ قسـوة الجلمـود؟

- من قال أن عليّ أن أسامح؟
- ونفسك؟
- تحتاج أن تتعلم الدرس.
- بهذه القسوة؟
- بهذه القوّة.
- إن كل ما فيك لم يعد أنت، أنا أعرفك من جديد.
- سأتأخر على أبي، نتحدث لاحقًا.

لم أقـوَ عـلى المزيـد. تحاملـتُ عـلى دمعـاتي المتحجـرة، ونهضـتُ بثقـل رأسي الـذي أضـافَ لـه هارون-بـكل أريحيـة- أطنانًـا مـن الهـم بنبشِـه لآلامٍ أحـاولُ لأشـهُرٍ أن أتواكـبَ معهـا. أنقـذني صـوت المسـاعد مُناديًـا أنـه قـد وجـد التقاريـر، ولم يكـفّ هـارون عـن الترديـد بأننـي تغيرت وأن عـلي أن أتسـامح مـع نفـسي وغـيري. إنـه يخـاف عـليّ، أنـا أعلـم. لكـن العفـو هبـة عظيمـة، لا أسـتطيعُ أن أُهديهـا لـكل مـن هـبّ ودبّ في قلبـي. أأقـول أنني سـامحت نفـسي بهـذه السـهولة؟ وداخـلي الـذي لازال ينبـش المـاضي؟ أنـا أريـد أن أهـدأ.. حـين أهـدأ، سـأتعلم أن أعفـو وأسـامح.

طالعـتُ الأوراق أمامـي لأراجعهـا وكان يطـنُّ حديثـه في أذني طنـين الحـشرة في أذن النمـرود. تشـاغلت بـالأوراق.. ولم أفلـح. صرخـت فيـه لأنهـي هـذا الصـداع:

- مـن عيّنـك مسـئولًا عـما يجـب أن أفعـل ومـا لا يجـب؟ مـن أخـبرك أن عـليَّ أن أفعـل مـا تريـد لمجـرد أنـك تـراه الصـواب؟

ما أدراك أنني بهذه الهيئة لأنه عليّ أن أسامح؟ ألا يمكن أنني أترقب من أحد أن يسامحني هو أيضًا لأرتاح؟ ومن أخبرك أن تغيير هيئتي وطريقة حياتي هو شيءٌ سيء؟ ألا يمكن أن يكون هذا التغيير أكبر مؤشر جيّد أنني على الطريق الصحيح؟ هل لأن حالي لا يعجبك تهذي كلما رأيتني بكلامك هذا؟ لا تتصرف كأنّك وصيٌّ عليّ.

- أنت تعلمين.. أنا فقط أخاف عليك.

- أنا لا يُخشَى عليّ.

- إلا منك!

ران عليَّ صمتٌ لثوانٍ وألقيت عليه التحذير الأخير:

- هارون، أحذرك أن تحاول التغيير من حياتي عنوة،لا أنت ولا رهف ولا أي أحد، حينها أنسى حق الأيام بيننا وأتخطاك. ثم، بدلًا من أن تخاف عليّ، يمكنك أن تخاف على من هم منك، وقد قضوا ليلتهم وحيدين حزانى.

استدرت للذي سمع الجزء الأخير من الحديث مشدوهًا، وقلت له بحدة:

- لم تنظرُ إليّ هكذا؟

ازدرد ريقه بصعوبة وهو يقول:

- كدت أجزم أن الشرر سيتطايرُ من عينيك ليصيبني وأنا لم أفعل شيئًا.. أنت إعصار، «تورنيدو، تورنيدو»..

جاهدت لكي لا أضحك وفشلت؛ هذا هو المكان الوحيد الذي لا أخرج منه إلا باسمة الثغر. سألني هارون بريبة:

- ما أدراك بما حدث بيني ورهف؟
- والله يا بيه، في مصر نقول «إللي مايشوف بعنيه يبقى أعمى».. وأنا أدرى بها منك، أعرفُ من نظرتها وما تشعر به.

قال بسخرية:

- لقد تأثرت.
- إن لم تحادث رهف اليوم وتسترضيها، أصبُّ عليك قيح الجُرحَ الذي تفتحه كلما رأيتني، وتعرف الباقي..
- لم أنت مليئةٌ بالتهديدات اليوم؟
- أنا لا أهدد، أنا أنفذ.
- تحرقينني بنارِكِ إذًا؟

لا يفوّت هارون الفرصة ليذكرني بأن هذه لست أنا. وقفت صامتةً لبرهة شعرتُ فيها بأن رد فعلي قد لاقى استحسانه، لكنني سرعان ما تمالكت نفسي وقلت:

- إذا لزم الأمر، أفعل.

رفع حاجبه باستهانة، قلت بنبرة غاضبة، وصادقة جدًا، ربما تثبت الأيام صدقها:

- صدقني، أزرع في من يؤذي قلبي ندبة لا تبرأ.

## (٢)

عـلى بـاب المشـفى وقفـت أتنفـس هـواءً نقيًـا، أُشـبعُ منـه رئتـيّ اللتـين تمقتـان رائحـة المستشـفيات؛ مؤخـرًا بـات كل شيء فيّ يكـره الطـب والأطباء وأماكنهـم وكل مـا يمـت لهـم بصلـة. أفكـر بـأن الطـب مـا أودى بوالـدي لهـذه الحالـة، وأعـود لأسـتغفر اللـه وأسـترجع رسـالة المهنـة، وأمـضي بوهـن. الطـب كان لعنـة أبي، ولسـوء حظـي، وحـظ هـارون، لم ينـجُ أحدنـا مـن أن يصـاب بهـا. عـلى أنـه كان الأكـثر حظًـا، متـى مـا اسـتطاع الفـرار، فعـل وركـض لحلمـه. وبقيـت أنـا في هـذه المقـبرة؛ أهنئـه عـلى ثباتـه، وإرادتـه. لم يلتفـت، أو تُغـرِه بضعـة أرقـام زائـدة، رغـم أننـي لـلآن أشـكك كثـيرًا في كـون مسـتنقع المـوت هـذا قـد بـات حلـما لأحـد.

أمـا أنـا، تركـت هـارون، صديقـي المقـرب، وقريبـي الوحيـد، ورفيـق عمـري الـذي فرقـت بينـي وبينـه الأرض والعائـلات، ولحقـت بكليـة الطـب، ليـس لأننـي أحـب الطـب، ليـس لأنـه كان حلـمًا، ليـس لأي شيء سـوى أن أكـون مـع أبي، ليكـون أبي فخورًا.كلـما أتيـت هنـا قدّمـت قدمًـا وأخـرت قرينتهـا، في النهايـة نظـرت للسـاعة ومارسـتُ فعلتـي المسـتمرة؛ الركـض.. خمنـتُ لم؟

أنا متأخرة!

ابتلعـت أقدامـي درجـات السـلم حتـى لمحـتُ شـوق مـن بعيـد فناديتهـا وأتـت تقـول:

- يالسـوء ظنـي، أنـا التـي ظننـت أنـك لـن تـأتي قبـل سـاعة

أخـرى.

قلت من بين أنفاسي المتقطعة:

- معذرة، إنه هارون..قد خرجت باكرًا اليوم.. لكن..

- حسنًا، استريحي.

أعطتنـي قـارورة مـاءٍ تناولـت نصفهـا. اعتـاد النـاس هنـا، الطاقـم الطبـي والعاملـون والـزوار، غرابـة تصرفـاتي. لم يعـد هنـاك مـن يتعجـب قفـزاتي وأنـا أصعـد السـلم، لم يعـد هنـاك مـن يسـألني لم لا أسـتخدم المصعـد، أخـاف ركوبـه وحـدي.

- ما الأخبار ؟ هل أتم الطبيب الفحص؟

- في الحقيقة، أنا صديقتك، وأعرفُ عاداتِك.. لذا..

- لذا..؟!

ابتعدت مسافة صغيرة وهي تقُول:

- سـنبدأ بعـد عشريـن دقيقـة أو ربـع سـاعة.. لم تتأخـري؛ أهنئـك.

أخرجـتُ زفـيرًا طويـلًا وأنـا أجاهـدُ كي لا أكـسر الزجاجـة فـوق رأسـها، قالـت وهـي تطالـع الأوراق في يدهـا:

- لـن يعطـوكِ جائـزة لأنـكِ وصلـتِ باكـرًا، كـما لـن تسـتفيدي شـيئًا بتحطيـم الزجاجـة فـوق رأسي.

اسـتغفرت اللـه كثـيرًا، وفوضـت أمـري للـه في هـارون حتـى يريني فيـه عجائـب قدرتـه. سـألتها:

- ما الجديد عند أبي؟

- النتائـج مبـشرة، فيـما يخـص قدمـه فـإن عَظْمـة الفخـذ تلتحـم

بشكل سليم؛ موضعها يلتئم بشكل صحيّ تمامًا، ببطء ولكنه يلتئم.

- وكدمات وجهه؟ وهذه الحُفر؟ إنه الشهر الخامس هنا ولم تزُل.
- لا تقلقي. لم يخبرني الطبيب أحمد بشيء جديد، لو أن هناك خطب سأطلعك عليه.. لكن..

أصدرت همهمة وأنا أرمقها بنفاذ صبر.

- لا شيء جديد، إنه في غرفته مع رهف والأطباء.
- أطباء؟!

لاحظت في صوتي القلق. قالت تطمئنني:

- أوه، أقصد أن هناك طبيبًا جديدًا سيرد علينا، قال الطبيب أحمد أنه أفضل الأطباء هنا، أشاد به أبي أيضًا، ولم أعرف أكان هارون يعرف بقدومه أم لا.. قالوا أنه..
- ألا تتعبين من الثرثرة؟
- لزوم المهنة.
- ولكن بعيدًا عني، ابحثي عن أحد العجائز لتقصي عليه كل هذا.. رأسي مشوش من أخويك أساسًا.

تركتُ شوق، وحثثتُ الخُطَى لغرفة أبي. وهناك، سألت الطبيب أحمد عن الجديد، فبشّرني واستأنفَ يشرح لنا ولأبي الوضع. أبي الذي لم يهتم لأي شيء سوى أن ينهض على قدميه سالمًا فيضمنا إليه حتى يشبع هو منا. أما نحن، فلا نشبعُ من حضن الأب؛ إننا نتركُه عطشى للمزيد من رائحته، رائحة الأمان التي يحملها، رائحة الحب التي

تخبرنا أن كلَّ شيءٍ على ما يرام، ومهما عظُمَ الكربُ فإنه سيزول.. لأنه معنا، ولأننا في حضنه.

أطمئن نفسي بأن كل شيء سيكون على ما يرام لأنه أبي، لأنه لا يستطيع أن يتركني، لا تملك أنانيتي فيه سببًا آخر ليشفى. كانت رهف تضم كفّه بين كفّيها وهي تسألُ عن الجيد والسيء وترجوه ألا يخفي شيئًا. لم يقُل سوى أن الطبيب الجديدَ قد أتى خصيصًا لأجل أبي، وأنه سيستمر معه حتى يتماثل للشفاء.. ولم يزد. شكرناه واستأذن ليخرج. لاحظت حديثًا مبهمًا بالعينين بينه وبين أبي وتجاهلته -مؤقتًا فقط-، لانشغال بالي بالريشة المجاورة لي، رهف، كان عليها الذهاب للجامعة فقلت أن أوصلها، قالت بهم جليّ أنها ستذهبُ وحدها، ولا ترغبُ بأحد. أصررتُ بحزم فصمتت بحزن، تكتم داخلها الحديث وتمضي؛ من قال أننا توأمتين؟ إننا لا نتشابه أبدًا.. متضادتين تمامًا، وذلك كان أفضل، نتم نواقص بعضنا بدلًا من أن نتنافر إن تشابهنا.

أعرف أنها حزينة، لم تخبرني أمس عن خلافها مع هارون، إن لها نظراتٍ متباينةٍ عدة، وأعرف مكنونها من نظرتها. في الحقيقة، نحن نعرف من نحبّ من عينيه. أرسلتُ رسالة لهارون كي يأتي إليها. قرأ الرسالة وهو بالمشفى فعلًا، الحمد لله أنه موجود لأجلها دائمًا. لا يكلفني عناء اجترار الكلام من فمها، إنها مُتعِبة في البوح والحديث، وهو -كأي مُحبٍّ وَلِه- يستهويه كثيرًا أن يكون صاحبَ القوة الخارقة الذي يستخرجُ منها الكلمات، وأنها تبوح له دون عناء كبير؛ كان يشعر أنه يستخرجُ لؤلؤًا لا جُملًا صغيرة؛ وكنتُ أسخرُ من تعبيره هذا وأضحك ملئ قلبي.

ابتسم في وجهها فأطرقت أرضًا لتخفي بسمتها المتمردة على حزنها، فرجاها:

- رهف، أرجوك.. لنخرج من أمام أختك مُتحابّين، ونتخاصم فيما بيننا وبعدها أُزيل عنك الهم وأنفذُ ما تشائين.

أومأت بخفوت، مد له يدها فبسطت كفها المتردد في كفّه المشتاق، ثم ذهبا، يحلق فوق رأسيهما طير الحبّ الهاديء. هارون رجل غريب، متنافر، نتشابه في ظروف الحياة قليلًا، بيننا ألفة غريبة، ألفة إخوة. تذكرني هيئته برجل عرفته، رجلٌ لم أنسَه، لا أستطيع أن أنساه. لكنه يختلف عنه في شيء واحد، أن هارون يحب رهف كثيرًا، أكثر من أيّ شيءٍ مهما عظُم، وهذا هو الفارق الوحيد. وهذا يكفي تمامًا لأطمئن عليها. لو كان يعرف أنها باتت حزينة، لشقّ عليه النوم دون أن يسترضيها. لا يهمه إن أمضى اليوم كله صامتًا جوارها، لا يهم إن تهدمت الدنيا خلفه، المهم أنه يعرف أن جواره يُسعدها، وكان لا يتوانى في ذلك.

فلسطينيّ نبيل، عاد لعمي سليم قبل سنوات ليست كثيرة، بعدما هرب إلى فلسطين طفلًا في الرابعة عشر. ولما كنت أنا متيّمة بأرض فلسطين سلفًا وبأناسها؛ كانت هذه الأرضُ تلاحقني في أحلام طفولتي. القصف وتشريد الأسر، جرأة النساء ورؤوسهن الشامخة، ثوب الجَلد الذي يلبسونه إذا ما فقدت إحداهُن صغيرًا، تماسُكِهم رُغم الاغتراب في الوطن، جسارة الأطفال قبل الكبار في حروب الشوارع. كنت كلما تحدث إليه سألته:

- وكيف أرض فلسطين؟

- أحيانًا تبدو جميلة مهمومة مثلُك.

وينظر لرهف ويقول:

- وأحيانًا ترينها بريئة، هادئة مثل..

وينظر لرهف. يبتسم بحياء، أومئ له أنني فهمت ونصمت.كان يحب قراءة الشعر العربي، وكان يكتب أبياتًا من حين لآخر ويقرؤها عليّ. في البداية، غالبًا ما حملت أبياته معاني الشوق، والهجر، وكثيراً ما حملت كلمة مرام لفظًا صريحًا، أو معاني الاسم حتى ظننتها حبيبة سابقة، حين قلت له ذلك ضحك بحب حزين، كان سيؤكد ظني لولا أن قال:

- إنها تعني المقصد، لا أستخدم مراد، لأن مرام تأتي من الفعل رام.. وأعني بها أن أذكر رام الله.

لاحقًا عرفت أنه أحبَّ هناك، وقد استشهدت حبيبته، ودفنها في تراب قلبه قبل تراب الوطن. كان من رام الله، كنت أعرف أن زوجة السيد سليم من فلسطين، لكن لم أدرك أنها من رام الله، أو أن له ابنًا غير ابنه الأكبرِ، جهاد. لهجة هارون جميلة، كنت أستحثه أن يعلمنيها؛ لكنه كان يصمت. علمتُ أنه عليلٌ بأرضه، وأنه تعذب حين تمرّد وسُجِن هناك، أضربَ عن الطعام فهزل بدنه؛ كانوا يستجوبونه فيتعذب وهو لا يعرف شيئًا مما يقال. كان يقول من بين تنهيداته:

- ذنبي الوحيد، أنني فلسطيني.

وكانت تخرج رهف من سكوتها، وتقول له دومًا:

- ليت كل الذنوب بهذا الشرف!

ومن يومها، قررنا أن نساعده ليتقبل الواقع؛ بأي طريقة، إلى جانب

عـلاج أبي وجهـاد لاضطراباتـه، رهـف.. كانـت تهيـأُ الحطـبَ لتُوقِـدَ -دون قصـدٍ منهـا- نـارَ الحُـبّ في قلبـه. في اليـوم التـالي لحديثنـا هـذا، اشـتريتُ أسـاوِرَ تحمـل شـارة فلسـطين؛ وتعبـتُ حتـى وجـدت ميداليـة دائريـة تنسـدل منهـا خريطـة تلـك البلـد؛ فابتعـتُ لـه منهـا. ذاك المسـاء كانـت أمـي تعـد الغـداء ورهـف تسـاعدها. حـين أتيـت مـن الجامعـة، سـألت عنـه -وكان يسـكن في الطابـق الـذي فوقنـا-؛ قالتـا أنـه لم يمـر عليهـما، وسـمعت رهـف تقـول أنهـا سـتلحق بي. رأيتـه جالسًـا في الحديقـة المقابلـة للبيـت فجلسـت جـواره؛ وكعادتـه كان صامتًـا؛ ثـم خرقـت ثـوب السـكون الـذي غطّـاه ومـددت يـدي مغلقـة إليـه فرفـع رأسـه بتعجـب، وقلـت:

- افتح يدك.

ووضعتُها في راحـة كفـه فأخـذ يتأملهـا بتخبُّـط، ترتعـشُ شـفتاه ببسـمة وترتجـفُ عينـاه بحُـزن؛ كأننـي قلـت لـه افتـح جـراح قلبـك لا يـدك!

سمعني أقول بعد صمت:

- هارون..اسـمعني، نحـن متشـابهان، باختـلاف الظروف وقسـوة مـا مـررتَ بـه، لكننـي أشـعر بـك، وأعـرف كيـف يهيـجُ المـوجُ داخلـك وكـم تعصـفُ رياحُـك. لا مفَـر مـما نعيشُـه؛ المـاضي يبقـى ماضيًـا كي نتـلافى أخطـاءَه، ونتجنـبّ مسـاوءَه، ونسـلُو بحُسـنِ سـيرته لا أن نتعبّـدَ في محرابِـه، ونسـتحيلَ دراويشًـا تـدورُ حـول أطلالـه.

كففت عن الكلام لأرى وجهه، كانت ملامحه أقرب للحنين. تابعت:

- الآن انظـر لهـذه الميداليـة، دقـق النظـر في الخريطـة المحفـورة هنـا وأجبني..مـا اسـم هـذه البلـد؟

شعر أني أسخر منه ولكنه لما رأى الجدّ يملأُ قسماتي أجابني:

- فلسطين.

- جيّد، أترى هنا رمزًا لأي شيءٍ آخر؟

هز رأسه نفيًا.. لن أقول احتلال، لأن قواده لا يستحقون أن يذكر اسمهم. سألته باهتمام، متعللة بأنني أريد أن أعرف عنها:

- أين القدس؟

أشار لبقعة.. حين رأيتها اختلج قلبي، رغم أنها خريطة محفورة، مجسّم الأقصى كان يبين منها كبقعة مضيئة؛ سرت داخلي رعشة خفيفة، كأن هيبة الأقصى تغشى خلاياي أجمع لا قلبي فقط. وضعت إصبعي حيث أشار ومسّدتُ فوقَه بمنتهى الرفق؛ والرهبة، حينها قال بهمّ:

- ترتجفين؟!

أومأت أن نعم.

- هذا حالُ من تعيشُ القُدسُ داخله؛ ولا يزالُ الحنين يأكلك حتى تُقبّلي ترابها وتقبضيه بيدك.. إذا كان هذا حزنُ من لم ترَ؛ فكيف بمن رأى وعاشَ وحُرِم؟

واسترسلَ يحكي حتى أبكاني اشتياقه، فبكى لبكائي. مسحت دمعي وسألته:

- وأين رام الله؟

أشار لموضعها، ثم لقلبه وقال:

- هنا.. هنا رام الله!

وكدت أعود لبكائي فتمالكت نفسي. تذكرت فجأة أنني قد قرأت

كتابًا لمُريد البرغوثي بعنوان «رأيت رام الله». كان يحكي فيها عن زيارته لها بعد ثلاثين عامًا، وقد كنت أتذكر بأنه وصف ملامح الأرض هناك، فأنشأت أسأله عن كل شيء أتذكره، وأحيانًا أخطأُ في مسمّيات فيصححها ويجيب؛ حتى انقضى بيننا الوقت بنداء أبي.

قالت رهف حين جلسنا منفردتين لاحقًا، بأنها شعرت بقسماته تلين بعد هذه الجلسة بيننا. قالت بعفوية أنها كانت تلمحه من حين لآخر يخرج الميدالية ويبتسم بدل أن يحزن.

- ومن أين لاحظتِ كل هذا يا حُلوَة؟

قالت دون أن تفهم النبرة الماكرة في سؤالي:

- رأيته في الحديقة أمس، وحين أوصلني للجامعة منذ أيام.. وأحيانًا في الشرفة ليلًا عندما..

- عندما يطالع النجوم أملًا أن تنظر إليه نجمةٌ شغلت ليله.

انكمشت واحمر وجهها وغادرت جواري.

لم ينته حواري مع هارون إلا حين وعدني أنه سيصبح أفضل، وسيفعل ما بوسعه ليستطيع أن يعيش.

أشرت بسبابتي حيث قلبه، وقُلت له مختتمة الجلسة:

- إنها هُنا، لا تُغادِرُك ولا تُغادرُها.

شعرتُ حينها بأنه أخٌ لي، أو جزء صغير مني عليّ أن أهتم به كما أهتم لرهف، جمعني به أخوة أبوين، وظروف نشأة متشابهة، أقرب للتطابق، وحُب وطنٍ واحد. نظر بعيدًا، وابتسم. لم يبتسم لي، ولا لحديثي، لأربعة عيونٍ كان يقف صاحبيهما على مسافةٍ منا، لا تعلمُ نواياها، لكن غلبها التأثُر. في زوج من هذه الأعين -التي لم أنس

صاحبهـما- رأيـت مزيـج لهفـة، ووَجـدٍ، تجاهلتهـما بكبريـاء أنثـى ترفـض أن تقـر أنهـا تهتـم لرجـل.

دلفنـا يومهـا لغرفـة الطعـام بقلـوب متغـيرة. مـا الـذي تغـير فيهـا، مـا الـذي حـدث حتـى توتـر أربعتنـا؟ كان الغـداء صامتًـا لأول مـرة منـذ اجتمعنـا، كنـا ننظـر لبعضنـا البعـض في غرابـة، يسـأل كل منـا السـؤال نفسـه في صمـت

- ما الذي تغير؟

لم نجـد إجابـة. الشـئ الوحيـد الـذي أدركنـاه جميعًـا..أن قلـب كل منـا، مـن هـذه اللحظـة، لم يعـد كـما كان أبـدًا.

## (٣)

يقـول هـارون أنـه لم يعـرف في حياتـه كلهـا غريـب أطـوار مثـلي، وأننـي أخمـد جراحـي وقتـما أشـاء وأفتحهـا وقتـما أشـاء ثـم أصرخ في وجهـه حـين يحـذرني بأننـي قـد وضعـت الملـح فـوق جرحـي، فأفـرغُ غضبـي فيـه. كان غاضبًـا جـدًا، لا يعـرف حتـى مـاذا كان يجـب أن يقـول، ولا كيـف يبـدأ حديثـه مـع رهـف -التـي روت إلي مـا يخصنـي منـه-.

- وماذا أيضًا؟
- هل.. تقسين عليه لأنه أخوه؟
- لا، ليلـزم حـدّه.. أحـب هـارون كـما أحبـك، لعلاقتنـا حـدود.. حـين أقـول لا أحـد يتدخـل، لا يجـب أن يحـشر أنفـه.
- إنه.. يقول.. أن هذه.. تصرفات رجولية.
- لتكن. على الأقل، ما عاد كل الرجال يتصرفون مثلها.

ضحكت متذكرة شيئًا ،فقلت أن تتكلم، فقالت:

- قـال لي نصًـا: «لا أعـرف يـا رهـف إنهـا تربكنـي حـين يتعلـق الأمـر بـك، فـلا أفتـأ أقـول نجـوت مـن أفعـال الحمـوات ومـن اللـه عـليّ بواحـدةٍ كالمسـك، حتـى يهبـط عـليّ جحيـم أختـك!»
- هذا الفتى، حسابه بدأ يثقُل.. ماذا أيضًا؟

ضمت قبضتها للأخرى وقالت بخجل:

- ها، لا شيء..لم يحدث شيء.
- هل قال شيئًا أخجلك؟

أعـادت خصلاتهـا خلـف أذنهـا، فعرفـت أني محقـة. قلـت وأنـا أضـم وسـادتي إليّ:

- تعرفـين؟ هـذا الرجـل يحبـك حـد أن يقـال لـه كـما تقـول سـيدات القـرى «البنيـة سـحراله».
- أنا لم أفعل شيئًا.
- وهذا هو الصواب، ألا تفعلي شيئًا سوى أن تكوني أنتِ.

طرق باب الغرفة، كانت شوق.

- لم أتحمل الجلوس في بيتنا الذكوري، وأتيت.

قلت:

- فارغة اليدين؟
- بالطبع لا، أحمل هذه الوردات للسيدة الخجولة.

أخذتها رهف بسرعة، ثم أخفت خجلها بسؤال:

- هل ترين أن هارون فيما قاله عنك.. محق؟
- حـين أقـول ابتعـد، ولا تتدخـل، هـذا لا يعنـي أني ألغيـه مـن واجـب نصحـه لي أو مسـاندتي. إن داخـلي لا يكـف عـن المشـاجرة، وكل رأي يريـد أن يفـرض نفسـه. رأسي يتعبنـي. أنـا لا أحاربـه هـو، أنـا أحـارب نفـسي، أفـكاري، قلبـي، مـاضيّ، وذكريـاتي، وخطـواتي، كل شيء. وعندمـا يتدخـل هـو، أو أيّ منكـم، فإنـه رغـمًا عنـه سـيصيبه أثـر مـن هـذه المعركـة.

قالت شوق:

- إن المشـكلة هنـا، في أننـا كنـا نلقـي كل الأخطـاء عليهـا كأنهـا مـن أقحمنـا في كـوارثَ أبديـة. بـدلًا مـن أن نسـأل أنفسـنا

كيـف يُعيـدُ المـرءُ فتـح جُرحـه الـذي كاد يلتئـم مـن تلقـاء نفسِـه وهـو أدرى الخلـقِ بصعوبـة تحمُّلـه؟ متجاهلـين أننـا عشـنا هـذه الفـترة معهـا وانفطـرت مُهَجُنـا حُزنًـا وكُنـا نحـن.. أول الشـاهدين.

قالت رهف:

- فهمتـك، هنـاك أيضًـا جـزء لا يفهمـه هـارون، أنتـما متشـابهان حـد التنافُـر، هـو يريـد مسـاعدتك ولا يسـتطيع، لأنـه أكـثر مـن يـدري كيـف تضطربـين لـذا يقـف عاجـزًا. هـو يريـد أن يـصرخ بوجهـك ويفهمـك أنـه حزيـن لأنـه لا يسـتطيع ذلـك. وأنـت تفهمينـه، وتعرفـين كـم يخـشى عليـك، لكنـك حقيقـةً عنيـدة ومتمـردة.

ابتسمت مؤكدة حديثها، فأضافت شوق:

- أرى أن نترُكهـا تُسـيِّر حياتهـا كـما تشـاء؛ ترمـم مـا مـضى؛ أو تترهـبن داخلـه، أو تفنيـه، أو حتـى تركـضَ إليـه فاتحـةً ذراعيهـا.. ليـس هـذا مـن شـأننا في شيء؛ نحـن ندعمهـا ونوضـح لهـا الطـرق لأننـا عائلتهـا، ثـم الباقـي لهـا.

وأضافت محذرة إياي:

- ذاك لا يعني أبدًا أننا إن وجدناها تخطئ..

أكملت الأخرى:

- نسـحبها سـحبًا وإن رفضـت.. لا أعـرف حقًـا كيـف كان يفكـر هـذا الرجـل؟

- تقصدين، أخي؟

- لا أتخيّلكم إخوة، كيف أتيتم من رحِمٍ واحد؟ ثم إنكم تختلفُون عنه اختلاف البحر عن السماء. خاصةً هو وهارون. يتشكلان باللون نفسه، لكن باطنهما متباين.. سبحان الله، كيف يتحمل شخص طيّبٌ مثل هارون غليظًا كهذا؟

قلت أنني سأذهب لأتصل بأبي، وأطمأن عليه. لم أفعل، وقفت خارجًا أتنفس هواءً خاليًا من جهاد، وأذني الغبية تتوق لتسمع أي شيء يخصه. هل يدرك هو ما يحدث هنا؟ هل يشعر بي؟ لماذا لا زلت أنتظر أن يشعر؟ هذا ليس كلّ شيء، أنا أنتظر أن يعود إليّ أيضًا. لماذا أنتظر؟ أنا أكره هذا الشعور. ربتت على كتفي يد فانتفضت مذعورة. كانت الدادة كريمة، مسئولة البيت، السيدة اللطيفة، التي تشعر بقلبي المسكين، وتشفق عليّ.. أيضًا مني.

مدت يدها إليّ، رافقتها للمطبخ. وبكل خطوة أخطوها، أعود إلى يوم الفراق، يوم استيقظت على أصوات متداخلة في الأسفل. نهضت متكاسلة، ونظرت للساعة جواري، وجدت ورقةً صغيرة، وفوقها معدن يلمع. جلست وتناولت الورقة بيد، والآخر.. كان خاتم جهاد، نفضتُ الورقة مسرعة، خشية أن يكون ألمّ به شيء، وقرأت: *«الله يعلم كم أنه صعب، فعلت ذلك لأجل كلينا، أنت على كل لم تُبدي موافَقَةً في سفري وأنا لا أستطيع أن أبقى، تعرفين أنني لا أستطيع أن أحيا هنا، ولأول مرة عارضتني في شيء. وتعرفين جهاد، لا يصبر على ما يريد. كما يحفظ جهاد دهاليز قلبك ويعرف أنك لن تظلميه كما ظلمك؛ وحين يعود لا يدري أتهدينه أمانك الذي يجده دائمًا، أم تلفظينه من جنتك*

*قائلة اخرج منها مذمومًا مدحورًا. لا أعرف متى العودة.. أنا آسف!».*

كلما أعدت قراءة رسالته، أقبض على الخاتم بين يديّ بقوة أكبر. أردت أن أضحك من ثقل مزحته. لكن هذه الأحرف، لمستُ فيها جديّة غير قابلة للتزييف، إذن.. السؤال هنا: لماذا؟ السؤال الذي أمضي عامي الثاني بعد الفراق، أحاول أن أجد سببًا له، ولا أستطيع. تزداد الجلبة، أسمع صوت هارون الغاضب، وأبي يجيبه بغضب أكبر. أهبط الدرج منادية:

- بابا، بابا..

لا أحد سينقذني الآن غير بابا، أريد أبي، أريد أن أعرف إن كان هذا حقيقة، وإن لم تكن فليضمني أبي حتى أصحو من هذا الكابوس، كما يفعل في كل مرّة. التقفني في حضنه ومسّد على رأسي وهو يردد:

- أنا آسف، أنا آسف يا ابنتي.

- هل.. حدث.. حقًا؟

قال هارون:

- ترك رسالة جوفاء لنا جميعًا.

التقطت منه الهاتف بسرعة لأرى. يقول: *«أعتذر على رحيلي بهذه الطريقة، لكن الأمر طارئ، والموقف استدعى ذلك، سامحوني».* قلت بصوت مبحوح:

- هذا فقط؟

يجيب بغضب:

- هذا فقط..

أزيد من قبضي للجمرة في كفي. كم يؤلم هذا الفراق ياجهاد! ألم

أقـل لـك أن أخـشى مـا أخشـاه أن يرحـل عنـي شـخص أحبّـه؟ ألم أخـبرك أننـي.. أخـشى المـوت لأنـه يفـرق عنـي حبيبًـا؟ لأنـه لـن يجعلنـي أراه، وأُمـلّي ناظـري منـه؟ ألم أخـبرك أن المـوت رغـم قسـاوة وقعـه فإنـه الوحيـد الـذي أسـتطيع تقبـل وجـوده ولا أسـتطيع إزالـة غضبـي وخـوفي منـه؟ ثـم أخبرتنـي حينهـا أننـي يجـب أن أتقبلـه بـلا غضـب، لأنـه أول الحقائـق، وأكثرهـا ثباتًـا في الدنيـا؟ ألم تخـبرني أنـك سـتكون بجانبـي، وتضمنـي إليـك إذا مـا فـرق المـوت عنـي حبيبًـا؟ ألم تخـبرني في النهايـة أن كل هـذه وسـاوسي وخيـالاتي؟

لقد حققت ما هو أسوأ من مخاوفي ياجهاد، أهنأك كثيرًا.

يتراخـى جسـدي، تبـدأ دمعـاتي بالهطـول، بـلا أنـين. مـا يخيفنـي أنهـا- عـلى غـير طبيعتـي- ذرفـت في صمـتٍ كصمـت الأمـوات. أمسـكت رهـف يـدي لتمسـح عليهـا، يـدي القابضـة عـلى الجمـرة، فالتقطتهـا بـين يدهـا. ألقتهـا عـلى الطاولـة كأنهـا تشـمئز مـن صاحبهـا. لا أسـتطيع نسـيان نظرتها لهـارون، كان يـود أن تنشـق الأرض وتحتضنـه. صحبتنـي لأعـلى، ضمتنـي، دثرتنـي جيـدًا، وخلـدت للنـوم الـذي كنـت قـد اسـتيقظت منـه لتـوي.

أمسكت يدي لأكف عن اجترار الأحداث:

- الوقت له أفاعيله يا ماسة.
- لقـد نسـيت ماسـة يـا دادة، لقـد ماتـت. هُنـا ترَيـن هتـون، بالوجـه الحزيـن لاسـمها.

تركـت يـدي، ذهبـت تجـاه المـبرد، قالـت وهـي منهمكـة في البحـث عـن شيء:

- يأتي من يهبها قبلة الحياة.

قلت مصرة:

- الأموات لا يعودون.

وضعت أمامي طبق مثلجات بنكهة الليمون، وهي تقول بلطف:

- هذا إن كانوا أمواتًا.

- ألا تموت مشاعر من ألقي بهذه الطريقة، ألا يموت قلبه؟

أعدت لنفسها كوبًا من الشاي الأخضر وجلست جواري:

- يبهت، يختفي لونه، يتشقق، لكن هذا القلب-وأشارت لقلبي- لا يموت من صفعة.

- لماذا أنال هذه الصفعة؟

- لتتعلمي.. أن الدنيا قاسية، لا تحتاج غصنًا طريًا.

- هل أنا غصن غضّ؟

- أنت تخالين أن الدنيا بيضاء ولطيفة، لأن أباك يحميك، من لا أب له..

تنهدت بحزن وهي تكمل:

- إن من لا أب له يجوب الدنيا ولا يستريح، وإن أكلته قدماه من التعب سينام بنصف عين، ويجلس نصف جلسة لأنه غير متأكد إن كان المكان الذي يجلس أو سينام فيه آمنًا، ولو كان بيته. البيت هو الأب، إن غاب الأب.. توقعي أن تغدر بك الجدران.

شردت مجددًا في كم هي محقة، ثم صفعتني الذاكرة بمشهد قديم آخر..

بعد شهرين من رحيل جهاد، أضاءت شاشة الهاتف برقم دوليّ،

عرفت أنه هو، تركت الملعقة من يدي، أمسكت الهاتف بارتجاف، وترددت كثيراً في الإجابة. انتهت المكالمة الأولى، ولحقها بالثانية. سألت رهف إن كان هو، أومأت أن هو. أخذت الهاتف وتركت الغرفة، لحقت بها راكضة إلى هارون.

- تفضل، النازلة التي تخصكم وأصابتنا.. أخبره أن يحل عنا.

أجاب هارون قبل أن تنتهي المكالمة، فتح مكبر الصوت مجيبا طلب رهف:

- هتون، لقد اشتقت..
- خيراً فعلت والله، وأنا الذي قاربت من التأكد أنه هناك من ينسى أهله.
- هارون؟
- هل خطر ببالك أن أحدًا سيدعك تقترب ثانية؟ أنت تركتنا بإرادتك، لذا فلا عودة.
- والله ياهارون.. لم أقصد..
- لا تقل والله.. ولم يعد أحد يهتم بقصدك. لم تقصد أن تخبرنا عن سفرك الذي هيأت له قبل الرحيل بثلاثة أسابيع؟ أم امتلأ جدول عمل السيد حتى لم يجد منفسًا ليقول ليلتها يا جماعة الخير أنا مسافر وتمنوا لي حظًا طيبًا؟

لم يجب..

- طيّب يا جهاد، نحن، أنا وأمي وأبي، اعتدنا حركاتك السخيفة، وفي النهاية نقول هذه حياتك وأنت حر.. لكنك

عقـدت بـك أخـرى، وعقـدت الفتـاة قلبهـا بـك. هـل تقـوى عـلى أن تكـون ظالمًـا؟

قال بدفاع واهن:

- وماذا فعلت أنا؟ تركتها؟

بهـذه البسـاطة تقـول تركتنـي ياجهـاد؟ هـل أنـا صفقـة؟ مـشروع لم يتناسـب مـع إمكانياتـك فتركتـه؟

- جيـد، دع عملـك الخفـيّ ذاك يجلـب لـك الـدواء حـين تمـرض ليـلًا؛ ويهديـك الأُنـس حـين تدخـل لبيتـك وحيـدًا في غربتـك تنشـد الحائـط أن يؤنسـك. كـم سـتظل عنـدك؟

- لا أعرف ربما عام أو أكثر.

وقال بعد تردد:

- هارون..كيف هي؟

- سـؤالك هـذا سـيصير أضحوكـة الليلـة..إن عمـي صالـح يريـد أن تلغـي قرانـك منهـا بـأسرع وقـت.

تجاهل وأعاد سؤاله:

- كيف هي؟

- كيف ستصير مثلًا؟

قال بغضب:

- هل عينوك محاميًا عنها؟ لم لا تخبرني كي أرتاح؟

- أنا لا أشجع الظلم.

ثم قال هارون بعد صمت طالع فيه رهف بنظرة ملتاعة:

- كانـت تحـكي لنـا ذات ليلـة قصـة النمـرة التـي سرقـت

ابنـة نمـرة أخـرى، فتنازعتـا عليـه واحتكمتـا للأسـد؛ فأخـذه عنـده، وأمرهـما أن تأتيـاه صبـاح اليـوم التـالي، فلـما أتينـه قـال لهـما: «حدثـاني عـن الليـل». أمـا الأولى فقالـت: «نمـت والله باكـرًا، وكانـت ليلـة هادئـة مضت-عـلى شـوقي لوليـدي- سريعـة كالسـنة». وأمـا الأخـرى، فحدّثتـه مهمومـة أحاديـث السـاهرين المكلومـين؛ فعلـم الملـك أنـه ابنهـا، وأكـرم منزلتهـا في الغـاب، ولمـا سـأله مسـاعده: «كيـف عرفـت أنـه ابنهـا؟» أجابـه: «لأنـه لا أحـد يسـتطيع أن ينـام وقلبـه ليـس بـين ضلعيـه».

أغلق جهاد الخط.

قلتُ:

- لم ينتظر.
- لا يهـم.. اختـار أن يهنـأ بمـا أراد.. والآن أيقظـه ضميره ليسـأل كيـف حالـك؟

قال هارون:

- رهف، أرجوك.. لا تكوني قاسية.
- مـن القـاسي هنـا؟ هـل تريـد أن تخبره عـن ويـل الأيـام التـي أمضتهـا بـين الذكريـات؟ أم عـن طـول الليـل الـذي أمضيتـه أصحـو عـلى كوابيسـها؟ أم عـن طـول علّـة قلبهـا وشـقائها؟ ربمـا تريـد أن تخـبره أنهـا مكثـت شـهرًا لم تصـدق، تنتظـر يوميًـا رسـالة منـه، تزعـم أنـه مزحـة، ترجـوني أن أخبرهـا إن علمـت عنـه شـيئًا، لعـل هـذا يـرضي غـرور الأسـتاذ.

قال:

- لكنني أيضا أعرف، أعرف أنها بدأت تتقبل الحقيقة، أقف في الشرفة ليلًا وأجدها هناك، تقلب خاتم خطبته بين يدها تنظر إليه في وهن، في حسرة وبقلة حيلة، أرسل لك رسالة لتأتي إليها، تتعانقان وتدخلان سويًا. أعرف أنه مضى شهر آخر وهتون تقيم فيه العزاءات، كل يوم تبكي شيئًا مختلفًا..

قلت مقاطعة حديثهما العنيف:

- البكاء هو الطريقة الأمثل للتخلص من الأشياء العالقة داخلنا.. ومن الأشخاص أيضًا.

نظرا إلي كأنهما انتبها الآن فقط أن هذا الحديث عني، وأنني لازلت هنا.

- تابعا الشجار.

حاول هارون الاعتذار فقلت:

- أنتما تلقيان التهم على بعضكما بغلاف يحمل اسمي، أعرف أن كلاكما يعتب على الآخر.

قلت لرهف وأنا أتركهما وأغادر:

- هذا الرجل لا يفلت يده.

بعد انقضاء هذا اليوم، أتيت من تلقاء نفسي لمائدة الطعام دون أن يستدعيني أحد. تصرفت بتلقائية كأن شيئًا لم يحدث، جلست جوار أمي وسألت عن أبي بهدوء، بصوت ثقيل. قالت أنه سيأتي مع هارون وعمي سليم، وانتظرت حتى أتى. ما إن جلس موضعه حتى نزعت

الخاتـم، ووضعتـه أمامـه.

قلت بذات الصوت الثقيل الهادئ:

- إنــه محــق، أنــا كنــت حجــرًا في طريــق حلمــه، وهــو كان الشــوكة التــي ابتلعتهــا فنغّصــت برحيلــه حيــاتي، لا الشــوكة التــي أشــاكها فأجــزى حســنة.

ومن بعد هذه الجملة، شهد الجميع لي، أنني استحلتُ إنسانًا آخر!

## (٤)

أؤمنُ أن البشرَ «محطات»؛ لكن ما أوجعني أن جهاد لم يكن محطة، لقد كان القطار الذي دهسَ عُمري، وصحب معه أحلامي، ولم يُلوح لي حتى بالوداع. لا أؤمن بذُلّ الحُبّ أبدًا ولم أحاول أن أجرّبه؛ متى ما شعرتُ بابتعاده عني، وتفضيله شيئًا آخر عليّ، تركته وما يريد كما يشاء. مهما أحببت، ومهما كنت ضعيفة أمام من أحب، لا يمكنني أن أتقبل وضعي في خانة «اختيار».

لا يلوم أحد تفكيري، ولو حدث، لن يقنعوني. جهاد لم يسألني أن أرافقه، لم يقُل أن هناك حلمًا أو طموحًا ينتظرُه ثم يخيّرُني بين أن أرافقه أو أن أبقى، أو بين مرافقته وأي خيارٍ آخر. يرى جهاد أن كل ما دون تحقيق حلمه سيُؤخرُه، لكنني لم أفعل. لم أؤخره، ولم أطلب منه أن يكون خارقًا، لكنه يسعى لأن يكون أحد أؤلئك الأبطال لينتقم لنفسِه. لا أحد يعرف ممن سينتقم أو مم تحديدًا، لكنك تحسّ هذه النبرة في كلماته. لا يعرف جهاد معنى الموافقة بين أمرين، خاصة لو أحد هذين الأمرين عمله، وطموحه، ربما لأنه شقي كثيراً في صغره، ويريد الاعتراف أنه مهما حدث أقوى من أن يستسلم أمام أي من رفاهيات الحياة.

*«هذه النعمةٌ يا هتون لا يعترفُ الناس بأنها رفاهية؛ يرونها فرضًا على الدُنيا أن تجلبها لهم. تتفتح أعينهم عليها ويشبّون ليجدوها كما هي بمتطلبات الأعمار، والميول والطباع، ولا يسعُ أحدهم أن*

*يـؤدي فرضًـا أو حتـى يرفَـعَ رأسـه للسـماء شـاكِرًا أنعُـم الخالِـق؛ مثـلًا أننـي قابلـت اليـوم أرعنًـا يرفـع أنفـه للسـماء حتـى كاد يبلـغ طـول رقبتـه الـزراف، أحـدث جلبـة بسـيارته وبـات الشـارع دخانًـا، مشـهد مبتـذل في السـينما، وحـين خاطبـه أحـد بـأن موضـع السـيارة هنـا غـير ملائـم، طالعـه بـازدراء ورحـل تـاركًا الرجـل المسـكين يحوقـل ويـضرب كفًـا بكـف عـلى حـال ذاك الشـاب».*

إنـه بشـكل مـا محـقّ. تهـرس الحيـاةُ مـن لا حيلـة لهـم، قليـلي الحـظ فيهـا، والطيبـين ذوي الفطـرة السـمية. مثـل ذلـك الرجـل الـذي عومـل بـازدراء، وربمـا مثـل جهـاد في وقـت سـابق، ومثلـما حكـت لي قليلـة الحيلـة شـوق، حـين تعـرض لهـا وقـح وهـي عائـدة إلى المنـزل.

ذهبـتُ لأمـن المشـفى لأعـرف مِـن الشـخص الـذي أنقذهـا القصـة كاملـة. الفتـاة منهـارة، وتعبـة. لا تكـف عـن دعـك جسـدها بتقـزز. قـال الحـارس المنـاوب أنـه سـيأتي خـلال نصـف سـاعة. انتظـرت، لأجـل مـن يحبـك.. تنتظـر العمـر كلّـه. أمضيـت هـذا الوقـت أفكـر مـاذا سـأفعل في المصيبـة التـي ألقاهـا هـارون عـلى رأسي.

- جهـاد، سـيأتي. قـال ألا أخـبرك، لكـن أنـا لا أقـدر أن أتحمـل العواقـب.
- حسنٌ فعلت.
- أحـس أن عقـلي مجمـد، لا أعـرف هـل إخبـارك صـواب أم خطـأ.
- هـل كنـت سـتحب نفسـك إن رأيـت مـا يترتـب عـلى مفاجـأتي بوجوده؟

هـز رأسـه بـ«لا». حـين يصبـح في هـذه الحالـة أعرفـه، قـال سـأمر عليـك وهـو متوتـر. ترقبتـه حتـى يـأتي، حـين يـتردد في قولـه، أعـرف أنـه يكـذب أو يـداري شـيئًا. وحـين يديـر وجهـه عنـي، أدرك أن الأمـر يخـص إمـا جهـاد أو رهـف، وقـد مـضى أمـر رهـف، ولم يبـقَ إلا أمـر جهـاد.

- أعـرف أنـك قلـق عـليّ. هـل رمـش لي جفـن؟ عقـابي لـه أن يكـون غريبًـا عنـي. لـن أثـير المشـاكل. إن التجاهـل يعيـد كل شـخص لحجمـه الطبيعـي.

لم يتوقـع أن أكـون لامباليـة لهـذه الدرجـة، ولا أنـا توقعـت. لكننـي تعبـت، ومللـت تعبـي. ظـن أنـه سـيفجر في وجهـي قنبلـة إذا مـا أخـبرني، لكـن يبـدو أن انفجـار القنبلـة سـيتأخر.

- ماذا أيضًا؟
- هناك، من سيأتي معه.
- سيأتي أم ستأتي؟
- أتعجب حاستك السادسة.

قلت مبتسمة:

- إذن، ستأتي.

أومأ أن نعم، سكتّ هنيهة وقدمت اقتراحًا طيّبا:

- بمـا أن أبـاك يشـتاق لولـده، وخاطبـي سـيعود، لم لا أخـبر أبي. و..نذهـب معًـا لاسـتقباله؟

وضـع رأسـه عـلى المحـرك بقلـة حيلـة وأخـذت أضحـك لهيئتـه، ظنهـا مزحـة سـخيفة. قلـت بمنتهـى الجـد:

- أنـا أصرّ عـلى ذلـك، قـد لا نكـون معًـا لكـن قراننـا لا زال

معقــودًا.

لـن أهـدأ حتـى أتـم مـا أريـد يـا هـارون، ليـس خطـأ أن أسـتقبل ابـن عمـي، وخاطبـي، وتسـتقبل أنـت أخيـك. النقـاش بيننـا في هـذا الأمـر يمكـن أن ينتهـي باقتـلاع شـعر رأسي، لـذا لم يناقشـني، ولم يقـل لا، وكونـه لم يقـل لا مـؤشر جيّـد، لأنـه الوحيـد الـذي يمكنـه إقنـاع أمـي، هـو فقـط حائـر مـاذا يفعـل معـي، لكننـي لـن أتراجـع. هنـاك فرصـة واحـدة لأثبـت لنفـسي، ولجهـاد وللجميـع أننـي بخـير دونـه، ولـن أفـرط فيهـا.

أوصلنـي وذهـب لرهـف. سـيبث همـه هنـاك ويسـتريح كأن شـيئًا لم يحـدث. تحملـه لمسـئوليتي رغـمًا عنـي يضايقنـي ويتعبـه، لكنـه بـلا ملـل يتمسـك بمسـاعدتي. مـن الجيّـد أن يكـون للمـرء متنفـس مـن مشـاقّ الدنيـا، والأجمـل أن يتمثـل لـه بهيئـة إنسـان يسـلو بـه حـين تجثـم عـلى صـدره الهمـوم، يهـدّأ روعـه حـين يفزعـه العـالم، يهديـه بسـمة تهـدم جبـال الحـزن الثقيلـة ولمسـة يـد تذيـب فتـات مـا بقـى، ويخفـف عنـه دروب المجانـين التـي يسـير مرغـمًا فيهـا. هكـذا كانـت رهـف لقلبـه خـير دفء، وأعظـم سـلوى وأكـبر كسـبٍ مـن حـرب الحـبّ التـي كانـت بينـي وبـين جهـاد.

- آنسة هتون؟ تنتظرينني؟

كان حـارس الأمـن، أعرفـه، اسـمه يقـين، كثـيرًا مـا سـاعد أبي، شـكرت اللـه كثـيرًا أن جعلـه اللـه في طريـق شـوق.

- أريد أن أعرف، ما حدث أمس بالتفصيل.

- أي أمس؟

- ليلة البارحة. ماذا بك؟

- ماذا تريدين أن تعرفي؟
- كل شيءحدث لشوق.. بالتفصيل الممل.

أنا لن أقول أنه توتر حين ذكرت اسمها. لأن هذا الفتى أكثر ما يكره، هن الإناث. لكنه.. جاهد في إخفاء بسمةٍ صغيرة، وأخفق. جلست، وجلس. أخبرني:

- خرجت الشاردة من المشفى متعثرة قلقة، تلقي أغراضها بإهمال في الحقيبة وتسير كما عادتها باتزان رجل متعجل، لا خطوات أنثى.
- يبدو أنك حقًا لا تتذكر شيئًا، حد معرفتك بطريقة سيرها.

أدار وجهه، وقال بخجل:

- سيدتي، لا.. فقط لأنني..
- لأنك ماذا؟
- أعمل هنا منذ أشهر ولم أرها تسير مسرعة بهذه الطريقة، انتبهت، و..

كنت سأضحك لحجته الواهية. دافع عن نفسه:

- واحمدي الله أني رأيتها.. بدلًا من تعليقاتك هذه.
- حسنًا، لن أقاطعك، تابع..
- حتى انتبهت للذي يسير وراءها. تلفتت يمينًا تراقب ظله وتراه يقترب فتسرع، صارت مشيتها أقرب للهرولة. لما تأكدَت من هوية الشخص الذي يتبعها، دلفت من شارع على اليمين فتبعها وذاك ليس طريقه.

تركـت زميـليّ وتبعتهـا. حـين اقتربـتُ مـن هـذا الشـارع، سـمعت منـه صراخًـا تبعتـه شـهقة. ركضـت لألحـق بهـا، كان يطوقهـا مـن الخلـف، كان ثمـلًا. بصـوت عـال ناديـت صاحـب الـدكان وصحـتُ فيـه أن هنـاك لـص. مـا إن سـمع أقـدام النـاس -كأي جبـان- لاذ بالفـرار. اسـتغللت كونـه ثمـلًا وألقيـت عليـه حجـارة أصابـت قدمـه فتباطـأت حركتـه. اقتربـت منـه، كان ينظـر بـشرّ، كان بـه جـزء يقـظ، جعلتـه يحفـظ وجهـي جيـدًا لأننـي أعتقـد أنه في المسـتقبل القريـب جـدًا، سـنلتقي.

- لماذا تعتقد؟
- ألم تقولي لن تقاطعيني..
- الأمر يتعلق بمن هي خاصتي.
- أريد الإبلاغ عنه، لا أريد أن تترك حقها.
- نتحدث في هذا لاحقًا. .تابع.
- نهـض متحاملًا عـلى سـاقه وأشـهر في وجهـي سـلاحًا أبيـض اسـتطعت بخفـة أن أعكـس الوضـع، و..

أخرج من جيبه بطاقة هوية، وضعها في يدي وقال بسعادة:

- استطعت نزع بطاقة هويته من جيبه بسهولة.

مدها إليّ. تناولتها وقرأت الاسم.

- أعرف والدته، وإخوته. هم أناس طيبون، وذوي خلق.
- ولديهـم ابـن كابـن نـوح.. يخالفهـم في كل شيء، لمجـرد الاعـتراض والمجادلـة. أصدقـاؤه أسـوأ مـن الشـيطان، وهـو

أحـبّ صحبـة السـوء. لقـد فُضـح والـده كثـيرًا بسـببه.

- يمكنني أن أعي الآن أكثر، معنى قول أن يخلق من ظهر النبي فاسق. هذا الولد بلاء على أهله. ألم يحاولوا ثنيه عن هذا الجرب، وهذه الرفقة؟

- كثيرًا.. حاولوا كثيرًا. باللين مرة وبالشدة مرة. وضعوه في مصحات مختلفة. حبسوه في البيت وسعوا لينال علاجه. لكنه لم يرد. تعرفين ياسيدتي؟ حين يمر أمامي، يتردد في أذني قول الله «وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين، فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا». إن خشية الله وحدها على عباده، نعمة كبيرة، يتصبرون بها على بلاياهم. حسب والده أن يتذكر من آن لآخر أن الصبر على البلاء امتحان الأولياء.

- محقٌّ كثيرًا. وأن يحمي إخوته منه ما استطاع.

لم يتكلم، فأخبرته أن يتابع..

- أعطيته هدية يتذكرني بها كلما رآني. هددته أننا سنلتقي، وظن حديثي هذيانًا. أهديته لكمة في فكه الأسفل ثم معدته.. وكالفئران بحث عن جحر يأويه. وعدت لأجد المسكينة الصغيرة أمام الدكان المجاور تبكي وتنتفض. قاربت الأرض وجلست أمامها. جئت لأتكلم فصرخت. لكمتني في خدي الأيمن وخبّأت وجهها بين يديها وهي تبكي: «أنت.. أرجوك لا تؤذيني، أرجوك». قلت وأنا أتحسس موضع لكمتها، محاولًا أن أغالب حنقي أنني

لـن أفعـل. طلبـت منهـا أن تخـبرني إن رأت هـذا الرجـل قبـلًا أو إن حـاول مضايقتهـا فيـما قبـل.. هـزت رأسـها نافيـة وقالـت مـن بـين بكائهـا: «لقـد تأخـرت، واتصلـت أمـي موبخـة قلقـة، كنـت أسـير بسرعـة لأدرك البيـت.. فجـأة شـعرت بظـل شيء قريـب منـي، ظننتـه كلـب، فنظـرت عـن يمينـي فـإذا بظـل هـذا الـ هـذا «الـ.شيء» يقـترب كلـما أسرعـت، فكـرت بـ.. أن هـذا طريقـه». صمتت وقالـت كأنهـا بـدأت تفهـم: «لكـن النـاس لا يدنـون.. مـن النـاس.. في شـارع.. خـال.. ليـلًا». وتقطعـت منهـا الكلـمات الأخـيرة. ربمـا فهمـت الآن أن عليهـا أن تكـون أكـثر حـذرًا. ثـم احمـرّ وجههـا خجـلًا وحيـاءً منـا وعـادت تبـكي. حثهـا العـم أن تتابـع فقالـت مـن بـين بكائهـا: «كنـت سـأنعطف وأركـض، حـين نظـرت ورائي لأتـرك بينـي وبينـه مسـافةً كان قـد وقـف ملتصقًـا بي، وكنت..كـما رأيتنـي..». نظـرت لـلأرض ونهضـت فجـأة متسـائلة كالمحمومـة إن كان حجابها قـد مُـسّ بـشيء. ومضـت تتحسـس ثيابهـا كأنـه قطعـة مـن لحـم جسـدها، إلى أن اطمأنـت فتنفسـت الصعـداء وأخـذت تتنفـس بصـوت عـالٍ، لكنـه منتظـم.. فحمـدت اللـه أن بـدأت تهـدأ. ثـم سـألها العـم عـن اسـمها فلـم تجـب. طالعـت وجههـا فـإذا قسـماته ترتخـي وهـي تقـاوم فلـم أنتظـر. سـكبت حقيبـة يدهـا عـلى الأرض واسـتخرجت بطاقـة هويتهـا.

ثم قال بنبرة شاردة قليلًا، تحمل غضبًا لطيفًا:

- كان اسمها يا سيدتي...

قلت ساخرة بنفس نبرته:

- ما به اسمها يا صديق سيدتك؟

- فتنة.

ضحكت قائلة:

- عفوًا، ماذا قلت؟

- فتنة. إنني.. مضيت أكرر اسمها كأنني أستلذ نطقه، أو أتذوق قطعة حلوى فريدة للمرة الأولى. كيف يصبح للأسماء سحر هكذا؟ تخيلت لو أن هذا الثمل كان يعي سحر اسمها لذا لحق يدركها. ثم.. لماذا يختار الآباء لبناتهم أسماءً فاتنة، وهن من البداية كل الفتنة قبل أن توضع لهن الأسماء؟

- أنت.. تلقي اللوم على كونها أنثى؟

- ألقي اللوم على كونها فتنة، تسير وحدها ليلًا.. ولقيها جائع.

- هل تعود وحدها يوميًا؟

- لا، تغادر مع هارون أو ترحل باكرًا.

- إذا لا غبار عليها..

نفخ في الهواء وقال:

- أعرف. أنا فقط..

- متعصب الفكر، وهذه الفتاة، لا تختلف عنك. لا تعترف

بأفضـال الرجال.

قال بامتعاض:

- لاحظت.
- كيف؟
- لا أعـرف. بـدا أنهـا لم تطـق وجـودي. وبالمناسـبة.. قـولي لهـا أن مشـاعرنا متبادلـة. أعطاهـا العـم مـاءً لتـشرب، ومكثنـا دقائـق في هــذا الصمــت، إلى أن اســتطاعت الاســتيعاب فقامـت. حاولـت النهـوض، مـددتُ يـدي لأسـندها فأبـت. قلـت لهـا: «أنـتِ متعبـة، دعينـي أسـاعدك لتقفـي عـلى قدميـك». قالـت باعـتراض: «وهـل كـسرت سـاقي؟ سـأنهض وحـدي».

تـسرب الغضـب داخـلي وأنـا لم أنـو شرًّا، تركتهـا وشـأنها. إنهـا لم تشـكرني حتـى! لقـد اقتربـت مـن العـم وهمسَـت لـه بـشيءٍ فـأتى لهـا بمقعـد. ثـم اسـتراحت، قـال لي العـم أن أعـود لعمـلي وهـو سـيعتني بهـا. ثـم نهضـت مــن جلســة الأرض المتعبــة -والتــي فعلتهــا لأجــل ناكــرة الجميــل التــي عنفتنـي- وعـدت مـن حيـث أتيـت.. أرقـب ناصيـة الشـارع مـن طـرف عينـي، حيـث تجلـس هـذه الـ «شـوق» مـع العـم صاحـب الـدكان. وبعـد وقـت قليـل قـام وقامـت، وسـارا معًـا، جنبًـا إلى جنـب، كأنهـما رفيقـان منـذ زمـن، لا تعارفـا منـذ سـاعة! وأنـا صرت المنبـوذ رغـم أننـي مـن لحـق بهـا. وقفـت طـوال الليـل مغتاظًـا منهـا، ومسـتعيذًا باللـه مـن وسوسـة الشـيطان ومـن فتنـة النسـاء.

ضربت يدًا بأخرى وأنا أضحك. حوقلت مرات وقلت له:

- النساء شقائق الرجال يا يقين.
- أنا لا أريد هذا.
- وهـذه رعونـة وحمـق. سـأقول لـك، كـما أقـول لهـا دائمًـا. لا يمكـن للمـرء أن يتنصـل مـن أصلـه وطبيعتـه. الفراشـات تطـير، والعصافـير تزقـزق، والـوردات تتفتـح. لا يمكنـك أن تـرى فراشـة تـذم الطـيران، ولا عصفـورًا ممتعضًـا مـن كونـه يزقـزق، ولا وردةً ترفـضُ أن تتفتـح. سـيحدث خلـل، أنـت تعـرف هـذا.
- إن كل هـذه المخلوقـات مسـخرة للإنسـان. الإنسـان لديـه عقـل، يفكـر بـه. والعاقـل مـن وعـظ مـن سـابق لدغاتـه.

يقصد والدته، أخبرته:

- «والإنســان» إلا مــن رحــم اللــه ظلــومٌ جهــول. إن مــا تفكرفيـه، نـوع مـن العطـب. لا تلتفـت لماضيـك إن زارك. دثـر قلبـك جيـدًا، وكـن ممـن رحمهـم اللـه، وارحـم نفسـك.

طالـع الحائـط أمامـه بغضـب. أعـذره، وأعـذر رؤيتـه للعـالم، وشـدته عـلى نفسـه، وغـيره. مـا ذنـب المـرء إن كان أحـد أبويـه أو كلاهـما فاسـدًا؟ لقـد تـرك يقـين بلدتـه، وأتى هنـا ليتخلـص مـن دنـسٍ أصابـه بـلا ذنـب. كان أهلـه نافخـي كـير، يشـقى المـرء برؤيتهـم، وهـذا المسـكين.. قـد صحبهـم مرغومًـا. يقـين في مثـل عمـري، درسـنا سـويًا في الجامعـة، لكـن تكاليـف الدراسـة ووقتهـا كانـا أكـبر مـما يكسـبه، فتركهـا. وزادت حسرتـه عـلى نفسـه، لأنـه.. كـما يقـول، قـد خـسر مسـتقبله، كـما خـسر ماضيـه. قلـت لـه وأنـا أغـادر:

- إن حـواء لآدم.. كالحـمام يحمـل لصاحبـه غصـن الزيتـون. قـل هـذا لقطعـة الحجـر في رأسـك، وسـأقولها أيضًـا لقطعـة الحجـر في رأس شـوق.

استوقفني.

- كيف هي؟

- كيـف سـتكون؟ فزِعـة، لا تنـام، ولا تكـف عـن البـكاء. سـتحتاج وقتًـا ليـس هينًـا لتسـتوعب أنهـا ضحيـة، لا يـد لهـا.

أرخـى رأسـه للأسـفل. يريـد أن يقـول أنـه حزيـن لأجلهـا. يقـين مخذول. أشـعر أنـه لا يريـد فتـح قلبـه، وأن يخالـف مـا يريـد، كي لا يقهـر ممـن سـيحب كـما قهرتـه أمـه. استشـعرت حـين حـكى لي قصتـه، اسـتعاذة النبـي باللـه مـن قهـر الرجـال.

- سأبلغها سؤالك عنها.

- هتون..

- نعم يا صديقي؟

- هل يتبدل الحجر؟

ابتسـمت. سـيحاول، سـعيدة لأنـه سـيحاول. قلـت لـه، متذكـرة قـول ابـن الرومـي:

- إنمـا قطـرة المـاء تثقبـه، ليـس بالعنـف لكـن بتكـرار السـقوط. سـتنمو في الثقـب نبتـة صغـيرة.. وأعـرف، أنهـا سـتكون، نـادرة جـدًا، ربمـا فريـدة مـن نوعهـا أيضًـا.

ابتسم بحياء.

- ستوصلين سؤالي؟
- سأتأكد من وصوله، بكل طاقتي.

## (٥)

- لا زلتما متخاصمين؟
- منذ وقت ما، وهناك جزء داخل كل منا قد تغير. لا أظنه سيعود كما كان.
- أي جزء؟
- ليس ثقة يا هتون، ثقتي به عمياء. لكن.. هناك شيء ما في نظرتي له، تسأله هل ستتركني يومًا فجأة بطريقة كهذه؟ وحين يرى مني هذه النظرة، يسكت مهمومًا.
- إنه محق. قلت لك.. هذا الرجل، لا يفلت يده. هذا الرجل أولويته الوحيدة أن يسكن إليك. لماذا تصرين على خراب حبّك بهذا الشك؟ جهاد فقط أساء التصرف، وزاد تصرفه سوءًا أنه جار على قلب إنسان مثله، له شعور. لكنه لا يُلام على أحلامه. لا يحق لأحد أن يحكم على أولويات غيره بأي شكل، وبأي صفة.
- لكن هارون قال..
- هارون، وجهاد، متباينان تمامًا. كما أنا وأنت. هل رأيتِ مغناطيسًا بقطبين متماثلين؟ يجب أن يتنافر القطبان ليقوم بوظيفته. هكذا نحن، ننقذ بعضنا البعض بطريقة ما.
- هتون..

مسحت على ذراعها بلطف، بينما أقول لها:

- أجيبي الآن سؤالي، هل أنتما متخاصمان؟
- لا أجـرؤ أن أخاصمـه. إنـه، رغـم غرابتـه، حبيـبٌ يُنـسي المُـر بنظـرة ويُجـلِي الحُـزن بكلمـة. رقيـقُ الحاشـية حتـى أظنـه لا يحـزم أمـره، وحـازم حتـى أظنـه لا يـرق، لا يديـم الخصـام أكـثر مـن سـويعات، نبيـل هو..كـما الفرسـان، محـب كـما الشـعراء، عزيـزٌ عليـه قلبـه وسـاكنيه، كأنـه رجـل قـد خـرج مـن حكاياتـك، ووصفـك المسترسـل، كأنـك تعنيـه هـو حـين كنـت تقصـين عـليّ قصـص الفـارس والأمـيرة ونحـن صغـار.. ثـم أهديتـه إليّ مغلفًـا بهيئـة هـارون. أصبـح يُخـرج الكلـمات منـي لا أعـرف كيـف، يسـحبها كالمغناطيـس، يجـرُّ الأحـرف مـن بـين شـفتيّ جـرًّا، ولم يمـلّ المحاولـة -ولا أحـبّ إلى المـرء ممـن يصـبر عليـه ولا يمـل- حتـى بـات جـدارًا أسـند عليـه ظهـري بـلا خـوف، وبـئرًا دفينًـا لأسراري التـي أرى أنهـا بـلا جـدوى، ويـرى هـو لهـا كل جـدوى.

أطلقـت صفـيرًا عاليًـا وضحكـت. تتقلَّـب الدنيـا بأعيننـا حـين نحـبّ، حـين نأمـن فنسـكن؛ كالتوبـة يجـبّ الحـبَّ مـا قبلـه، يُنسـينا الحيـاة التـي سـبقته كأننـا ولدنـا مـن جديـد، ولدنـا بتاريـخ الحـب.. غـير أننـا لا نعـرف لهـذا التاريـخ رقـم، نعمـى ونبـصر بـذات الحرفـين، نطـير ونسـقط، نبـكي ونضحـك، تـبرق وترعـد وتشـمس في الوقـت نفسـه داخلنـا.. كلـه بفعـل الحـب؛ حـاؤه حـيرة وبـاؤه بـؤس، الحـاء حيـاة وحـزن والبـاء بقـاء أبـديّ، ولـو تـم فـراق!

- ليته سمع حديث ست الحسن.

قالت برجاء حقيقي:

- ليته..

أتانا صوته من الخلف، إنه فتى المفاجآت، تصرفاته كأبطال السينما:

- أنا هنا، وأنا أحبّك.. بكل خلية مغتربة فيّ، لاجئٌ لقلبك يا صغيرة.
- هذا المكان لا يسع قلبي الوحيد، أكملا حبكما وسأسبقكما للسيارة.. كي لا أصاب بداء الهيام.

ركبنا وانطلق. قال أنه يريد أن يحادثني في أمر ما.

- ما الأمر؟
- ماذا سيكون الأمر؟

أمسك كف رهف.

- أريد أن أتزوج..
- هل أعمل مأذونًا؟ اخطف الفتاة واهرب.

انكمشت الفتاة وأخفت وجهها بحجابها.

- ساعديني.
- هارون، لن نضحك على بعض، ماذا تريد؟
- أمرين مهمين، الأول أنني لن أستطيع أن أكمل في العمل بالمختبر. سأبحث عن مكان مستقل لي. أفكر منذ فترة طويلة، ولا يهمني السنوات التي ذهبت، يكفي ما مضى، أريد أن أحيا كما أريد..ستساعدينني؟

أجبته حزينة قليلًا:

- طالما أنه قرارك وبمحض إرادتك، أنا معك..لكن أخبرت عمي ؟

- لماذا سأطلب المساعدة إن أخبرته؟ سأفر من السلالة الطبّية التي يريد أن ينشأها. وأؤسس عملي لنفسي. إننا عائلة تفوح منها رائحة المرضى والمشفى والفورمالين؛ أنا أساسًا لم أرد أن أدخل هذه المقبرة المشئومة. لم أرد أن أدفن عمري في مكان لا أريده. حين أنهيت دراسة اللغة وقال أبي ستدرس العلوم الطبية يا هارون، قلت حاضر يا بابا. تحاملت على سخافة الأمر بأنني أكبر من زملائي بأعوام، وبدأت الدراسة، وظننت الأمر سهلًا. تحاملت على نفسي ثانيةً وأنهيتها. لكنني لن أحتمل أن أعمل أيضًا في مكان لا أريده.

- كما تشاء.

سأل بغرابة:

- هكذا فقط؟ ظننتك..

- ليس فقط، أفكر في طريقة أخرجك منها بأقل الخسائر.

تنهد براحة وقال سعيدًا:

- وأنا قلت لن يحلّها أحد غيرك.

- هل رأيته قد أصدر الفرمان؟ اتنيل.

- تنيّلت.

ضحكنا. سألت رهف:

- والأمر الثاني؟

نظر إليّ في المرآة وقالت رهف بتوجس:

- فيما يتعلق بـ.. بجهاد..إنه.. لن يأتي وحده.

قلت باختناق:

- أعرف.

- تعرفين من سيأتي معه؟

- ستأتي، لا سيأتي. وأعرف..زوجته. ربما ظننت أنني من سيفجّر قنبلة في وجهه، أو سأنفجر بها.. لكنني خارج الخطة.

نظرا إليّ بعدم فهم، قلت وأنا أتذكر قصيدة قديمة:

- أنت تعتقد أنني سأرتكب شيئًا خاطئًا. أنا لن أفعل. سأذهب فقط لاستقبال خاطبي، المعقود قراني عليه أمام الله والناس. لن أهتم بنزع فتيل القنبلة التي سيسببها الموقف المحرج الذي وضع جهاد نفسه فيه بنفسه، سترتد إليه القنبلة، وبيده أن يفجرها، أو يقطع أسلاكها.

*«يكفي لقدَ أكلَ الشتاءُ حروفَه*

*حطبًا ليُدفأ بالقصائدِ أضلُعك*

*أرضيتَ نفسَك وانتصَرت لطينِها*

*وغرَزت في عينِ المحبّةِ إصبَعَك*

*فالآن مُت، غادِر دفاترِ شعرِه*

*ضيّعته فقسَى عليكَ وضيّعك*

*وسينبتُ النسيانُ بين جوانحٍ*

ضحكتُ ضحكة صغيرة ساخرة. نظر إليّ هارون متعجبًا، وابتلعت رهف الكلام في صمت، كعادتها في ما يعجبها وما لا يعجبها، رغم أنها لا تحب جهاد، ولا ترتاح له. تقول منذ أن عرفناه وهي لا تستطيع تقبله، وأنه يخيفها بوجهه الشديد. تقول أن به علامات قسوة، وأقول أنها تبالغ، وأن هذا ما يترتب عليه الشعور بعدم القبول بين شخصين.

أنحي فكري عن جهاد ، وأفكر في رهف أكثر. نصحتها أمي مرارًا أنها بهذا الصمت تبتلع حياتها، بألا تقول ما يضايقها أو يفرحها، ولا تبدي رأيًا فيما يخصها حتى، أقول إنها ليست سلبية لكنها حين لا تجد داعيًا مهمًا لأن تتكلم، تلزم السكوت.. حتى جاء هارون طبعًا، استُثني الفارس الوسيم من القاعدة. نظرَت إلى هارون متسائلة فهز كتفيه بقلة حيلة. يعرف كلاهما أن الآن يجب أن يتركاني لنفسي. هنا، في هذه النقطة تمامًا لا يحق لأحد التدخل. لحظة المواجهة خاصة بي وحدي.

يعرفان كرهي للأوامر أيًّا كانت صيغتها، وخصوصًا في شئوني الشخصية. أن يقال افعلي ولا تفعلي، اللهم إلا أبي الذي أستجيب له، كانت أمي تخبره بما تريد ليطلبه مني فأنفذه. أعرف أن أمي هي من طلبت، لكن لأنه أبي، ولأنني أحبه حبًّا فوق الحب، كنت أنفذ ما يطلبه بإتقان، غير أن أبي أيضًا لم يكن آمرًا، لا يستخدم معي أسلوب الأمر، بل على سبيل الطلب، كان يترك لعقلي مساحة أستوعب فيها صيغة كلامه بصدرٍ رحب دون أن أشعر أنه يريدني أن أفعل شيئًا آمرًا. أحد أكبر مشكلات حياتي، اعتقادي الكبير أن الأوامر والقوانين

قيـود، وأنـا أكـثر مـا أكـره.. أن أكـون مقيّـدة.

قاربنـا الوصـول للمشـفى فقلـت أن يقـف هنـا لأمـشي بقيـة المسـافة وحـدي. قالـت رهـف:

- إنها تمطر، ستبردين.
- أنـا مـن المطـر، أتظنـين أحـدًا يـؤذي بعضـه أو يتـأذّى مـن بعضـه؟

عارضـاني، ولم آبـه. قبّلـت رهـف مـن وجنتهـا ورحلـت. داخـلي أرض متشـققة جافـة، أحتـاج أن تُـروَى لأعـرف مـا أريـد. تقـول رهـف أننـي لـو عرفـت مبتغـاي، لـصرت الأفضـل في هـذا العـالم. لكننـي مشـتتة، مبعـثرة كثـيرًا، وأفـكاري وحيـاتي كالنوافـذ المفتوحـة، كل منهـا يطـل عـلى شيء مغايـر لغـيره. لوّحـت لهـما ومشـيت.

تركـد بحـيرة الأيـام فجـأة، فيلقـى بهـا حجـر ليتحـرك ماؤهـا، ويتغـير الـدأب الممـل؛ يلقَـى الحجـر لنتذكـر أننـا لسـنا محـركات صناعيـة.. وأنـه ليـس علينـا أن نسـيّر أيامنـا كلهـا كالـذي قبلهـا.. ولنتذكـر أننـا بـشر، لا نثبـت عـلى حـال، لسـنا مضطريـن أن نظـل كـما نحـن، متقلبـين كـما فصـول العـام.

## (٦)

في فـؤاد كل امـرئٍ ثقـبٌ لا يـراه، لا يحسـبه موجـودًا، يسـير بطمأنينـة شـامخ القلـب، عظيـم الكرامـة، عـالي الكبريـاء، وخـال وفاضـه مـن أمـارات حـرفي الحـب الأجوفـين، يلتحـف بأحبتـه القليلـين جـدًا؛ حتـى يأتيـه أحدهـم، يلـجُ مـن الثُّقـب الخفـيّ لفـؤاده كـما يتـسرب هـواء الشـتاء مـن الجهـة التـي لا تراهـا مـن الغطـاء. يأتيـه أحدهـم، ريشـة تداعـب وجنـة قلبـه. بخفّـة فراشـة، ومهـارة جـراح، بـذكاء صيّـاد، وبـطء كتنقيـط الوريد، تجـد نفسـك فوجئـت بنفسـك في مصيدتـه، وبـه في أوردتـك.. وبأنـك تحبّه.

هـل يسـتطيع أحـد التنبـؤ بـأول قطـرة تسـقط لتتناثـر بعدهـا دمـوع السـماء شـتاءً؟ كـذا معرفـة أن الإنسـان أحـبّ، لا يعـرف متـى بـدأ ومـن أيـن ولمـا؟ بـبراءة طفـل لا يجيـد سـوى زمِّ شـفتيه لتجنـب معاقبتـه، يهـز الحـب كتفيـه ويقـول:

- دقّ قلبان، أفلا يجتمعان؟

أقول بعجب:

- أما كان لك غير العذاب؟

يتذمر رغم فعلاته فينا:

- عجبًا لبني البشر، ألا تستلذون عذابه؟

أقول:

- لو أنك هونت وخففت، وما زاد ألم الصبابة لهذا الحد.

فيجيب بتفاخر:

- مـن لم يكـن أهـلًا للحـب، فليستسـلم ويلقـي الرايـة؛ ذاك كان حـال المجنـون، وجميـل بثينـة، وزليخـة مـن قبلهـم.. ثـم لا تلومـوني، لومـوا قلوبكـم!

أتوقـف لهـذه النقطـة، وأطـوي ورقـة الحديـث الـذي دار داخـلي، أضعه في درج مـا في ذاكـرتي عـلى أن أعـود إليـه فيـما بعـد، وأفكّـرُ في آخـر مـا آل إليـه دماغـي المُتعِـب، لأكـرره وأجيـب نفـسي: «مـن لم يكـن أهـلًا للحـب فليستسـلم! عـلى أسـاس أنـه كان بيـدي أني أحببـت؟ الـشيء الوحيـد الـذي استسـلمت لـه كان الحـب ولم يكـن صراعـه وعذابـه، الـشيء الوحيـد الـذي حاربـت نفـسي لأجلـه كان الحـب.. ولم أظفـر بـه، أو لم أظفـر بالحـب الـذي أردت».

- «ذاك كان حال المجنون وزليخة من قبلكم».

ومـن قـال أننـي أردتـه مجنونًـا أو أن أكـون زليخـة؟ مـن قـال أننـي أريـد التنسـك في محـراب الحـب، أو الركـض بحثًـا عنـه؟ أحتـى راحـة قلبـي سـأركض مـن أجلهـا؟ إننـي أتمنـى لـو أكـف عـن الركـض ليـوم واحـد، أو أن تسـير دنيـاي بهـدوء ليـوم واحـد، أن تمنحنـي فرصـةً لأتنفـس وأعـي موقعي في هـذا العـالم وموقفـي مـما يـدور حـولي؛ كل شيء يحـدث في غمضـة عـين!

حيـاتي متنافـرة تمامًـا، إمـا أن أكـون عنـد دائـرة الاسـتواء، أو تقذفنـي لأحـد القطبـين بـلا رحمـة، بـلا تمهيـد، قائلـة: «قـد اعتـدتِ!». لا تتابـع فيهـا لفصـول السـنة؛ أسـتيقظ بمنـاخ معتـدل، يرتـدي مزاجـي ثوبًـا ربيعيًـا لطيفًـا، ويضـع احتياطـه فيحمـل معـه معطفًـا ثقيـلًا؛ لأنـه لا يضمـن أن يسـير اليـوم كـما هـو للنهايـة.

«لوموا قلوبكم»..

لـو يفيـد مـا كنـت كففـت عـن لـوم قلبـي سـاعة. في كلّ مـرة أجـره ذليـلًا، أحمّلـه ذنـب كل شـئ، يـئنُّ كالأطفـال الذيـن عـلى وشـك البـكاء وينـزوي بعيـدًا ولا أصـلُ لإجابـة، لا أصـلُ لمصطلـحٍ أسـمِّي بـه نفـسي ومـا بي. وحـين أعاقبـه بالتأنيـب يصمـت، ويصمـت، ويعبَّـأ إنـاؤه الغاضـب منـي؛ حتـى إذا امتـلأ شـعرت بوخـزة مؤلمـة تعـصرني، كأنـه يركلنـي ركلـة جنـين متعجّـل الخـروج مـن الرحـم، كأنـه يريـد أن يخـرج منـي ويسـتقر بـين كفّـيّ مـن هـو أحـن عليـه منـي.

أليـس فـؤادي مـن أحـبّ؟ ألا نحـب بالقلـب لا بالعقـل؟ هـل عقـلي لا يقبـل شريـكًا في إدارتي أم يسـتحقر قلبـي لأنـه يدنـوه بعـدة طوابـق فيتهمـه بالنظـر تحـت القـدم بينـما هـو في الأعـلى ويـرى مـا هـو أبعـد وأعمـق؛ أم أنهـا غـيرةُ شركاءٍ في الإدارة؟ لـديّ كبريـاء عنيـد؛ يضعنـي كلا الكبريـاء والعنـد بـين شـقيّ الرحـى، يثـيران شـجار العقـل والقلـب بـين وقـت ولفيفـه، وفي الغالـب يتماشـيان مـع هـوى مديـر الطابـق العلـوي بجـدارة، فيصبـح بميـزاني كفـة عقـل وكبريـاء وعنـاد، وكفـة أخـرى تحمـل نابـضي. وعليـه فـإن القـوى الصغـرى، الأكـثر ألمـا وإيلامًـا وأمـلًا.. هـي الأكـثر ظلـمًا عـلى مـا أشـعرتني بـه مـن جميـل المعـاني رغـم ألمهـا.

ذات ليلة لطيفة، حزينة الذكرى، قوية الأثر، قال جهاد شاردًا:

- لكلّ حُلوّ نارَه.

قلت بنبرة مترقبة:

- لا أفهم.

وكان كلـما قـال هـذه الجملـة علمـت أن وراءهـا شيءٌ يشـبه العاصفـة؛ غـير أنـه قبـل رحيلـه لم يقـل لي شـيئًا. قـال:

- إننا لا نحصل على ما بيدنا كهدية من الحياة مثلًا، لا.. الحياة أقسى بكثير من أن تمنحك شيئًا ما لم تعطِها مقابلًا له أضعافًا.
- لكن الله وهبني عائلتي وإياك بلا مقابل.
- أنت أصغر من أن تفهمي هذا.
- أفهِمني إذًا!

تنهد، وضع كوب الشاي من يده وقال:

- أتظنين أن الدنيا تسير بهذه السلاسة؟
- طالما أننا نسير باستقامة، لم لا؟
- لأن الحياة نفسها ليست مستقيمة؛ ولا تريدنا أن نسير بنفس الاستقامة التي تتحدثين عنها، والدنيا، ليست عادلة.. أسمعتِ قول النبي بأن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها؟
- أجل، لكن هناك استثناءات.
- الأصل أنها ليست جيدة، والاستثناءات ليست قواعد..
- إن الاستثناء الوحيد هنا هو أبدية البشر في الدنيا، وبناءً على ذلك، نحن نتبع استثناءات الحديث واحدًا واحدًا.. لِم تضع تفسيراً بمنطقك أنت؟ لعنة الدنيا في الانصراف عن أمور الآخرة والانشغال بمتاعها القليل؛ إنها عروس زائفة، وحذر الرسول منها لأنه يعرف أن كثيراً من أمته سينجذب إليها وكأنها الشيء الوحيد الحقيقي رغم أنها أول ما سيزول.

ثم إن معجزة النبي في اللغة؛ ألم يعمم الدنيا وما فيها؟

- بلى.

- واستثنى منها ذكر الله وطلب العلم؟

ابتسم:

- خرجت ماردة اللغة من مصباحها.

أكملت بخجل، كلمات مدحه دائمًا صغيرة، وجميلة دائمًا:

- أعني أن غرض أسلوب الاستثناء توكيد الفكرة.. وأن ذكر الله يشمل معانٍ كثيرة، وما أسهل طرق العبادات، والعلم وطلبه أعظم المشاق على الإطلاق، والصبر على طلب العلم من شيم النبلاء..

عنيت أن أوجه قولي لجانب العبادات، لا لتقصير منه، بل لأنني لا أراه إنسانًا متجرّدًا من قسوته مع العالم إلا في صلاته، وجلوسه مع أبي وأبيه، وأحيانا قليلة معي. أردت أن أريه معنًى للحياة يحمل اسم الرحمة واللطف والعفو، أن يسمع هذه المصطلحات ويدخلها في قاموسه الذي لا يعرف إلا الغضب والقسوة.. بعيدًا عن أي شيء أثّر في سجيّته، منذ عرفت جهاد كان بهذا الطبع الشديد، لكنني كنت مؤمنة أيضًا بأن هناك ما خلف هذا السور، وأن هذا ليس جهاد.

لم أكن أعرف سأفلح أم لا، لكنني قلت أن أريه العالم كما أراه ليتخلص من سوء أفكاره. سأل وكأنه لا يعرف:

- عبادات تقضى في يوم شخصٍ مُلِأ حد فيضان الإناء.. مثلي مثلًا ؟

قلت بسعادة وقد أحسست أني وصلت لمبغاي في جذب انتباهه:

- نعم، هل يوم هذا الشخص كيوم من أيام رسول الله، أو هل يلاقي من كبد سعيه للرزق كما لاقى الرسول في سعيه للدعوة؟ رغم ما لاقى من عناء، وهجر من قومه، واضطراره لهجرة وطنه، ووفاة زوجه وعمه، وأبنائه وبناته، ودفنه لهم جميعًا بيديه الشريفة، لم تقل عنه السيدة عائشة إلا أنه كان بشوشًا، بسّامًا، لا يلقاه أحد إلّا سر وجهه به.

أردت أن أخبره أكثر، أن أضم يده وأقول له أنني هنا، شاركني ألمك، لا شيء يستحق أن يجعل وجهك متهجمًا أو أن يكون قلبك غاضبًا لهذه الدرجة؛ أردت أن أخبره أننا نثاب على البسمة، وعلى إطعام حيوان شارد، و.. على الأذى الذي يلحق بنا، وأنه حتى الشوكة التي نشاكها، ترفعنا درجة، ويكفر الله بها عنا خطيئة. ران عليه صمت طويل، أعرف أنه يشعر بكلامي كلّه، ويحفظه عن ظهر غيب، ربما يستطيع أن يقوله بطريقة أفضل، يمكنه أن ينظم مقالًا ارتجاليًا فيخرج منه الحديث جميلًا، لكن لا يستساغ ولا يدخل القلب، لأنه لم يخرج منه. إنه يعرف كل هذا.. لكنه يحتاج سماعه. قلت لأقطع صمته كأنني أحادث نفسي:

- ما ضر المسلم لو وضع جل إدراكه في أنه يثاب على خطواته كلها، وتناسى جانبه المظلم قليلًا؟

ثم نظرت إليه:

- ما دخل الحديث بالمقابل الذي تعطيه الدنيا؟
- كلما تبين لي قبح الدنيا أتذكره؛ وظننتك ترينها سلسة

سـهلة.

- أنـا أراهـا سـهلة لأن هـذه التعاليـم تسـهّل عـليّ فرصـة العيش بأقـل خسـائر نفسـية ممكنـة، أبسـط مثـالٍ إن تشـاجرت مـع أختـي أو صديقتـي، ومـنّ عـليّ اللـه بتذكـر العفـو عنـد المقـدرة، وأن خيرنـا مـن يبـدأ بالسـلام، وبـدأت الصلـح.. مـاذا سـيحدث؟ أثـاب لأننـي جاهـدت نفـسي وترفعـت عـن الخطـأ البـشريّ وأننـي لم أمنـح للشـيطان ولا لنفـسي فرصـة إطالـة الخصـام، وأزيـل توتـر الجـو وتعـود الأمـور كـما كانـت.

تنحنح وقال:

- أنـا عنيـت فقـط أننـا يجـب أن نتعـب لـكي نحصـل عـلى مـا نريـد، أن نبـذل فـوق طاقتنـا كي نـرى خيـط الضـوء الرفيـع، ونبـذل أكـثر حتـى يكـبر سـمك الخيـط فنشـدُّ مرادنـا إلينـا.
- أو يشـدنا هـو إليـه، ونصـير ضحيتـه مهـما كان الغمـوض الـذي يخلفـه طريقـه؛ ليتـك تكـف عـن إتعـاب عقلـك بقسـوة الحيـاة، ألا تـرى أنـك تعاقـب مـن حولـك؟ ليـس كل شـيء يحتـاج مقابـلًا يـا جهـاد.
- بل كل شئ.
- حتى العائلة؟
- حتى العائلة، كما ترين. إن هارون..
- الاحتـلال يعـد اسـتثناءً ولا تـسري عليـه القاعـدة، ثـم إن احتـاج أهلـك منـك مقابـل مودتهـم وانتمائـك، هـل كان سيسـعى المـشردون في الشـوارع للبحـث عـن أسرة تضمهـم

وتأويهـم؟ العائلـة أولًا، ثـم بعدهـا كل شيء!

واستفهمت مجددًا:

- وحتى الحب له ثمن؟

- حتى الحب.

- أنـا لا أنتظـر منـك شـيئًا مطابقًـا لحبّـي لـك، يكفينـي أنـك بجانبـي، وأن كفـي ترتـاح بـين يديـك، ولتحـترق كل المسـمّيات.

أمسـك يـدي ومسـح عليهـا بكفّـه الآخـر وهـو يقـول ناظـرًا لعينـيّ، محدَقًـا فيهـما، سـالبًا كل ثبـاتي واتـزاني:

- لكنـك قدمـتِ قلبـك قربانًـا لذلـك الحـبّ، وتدفعـين ضريبتـه باسـتمرار؛ أشـعر بـكِ وأنـت تضعـين يـدكِ عـلى قلبـك كل ليلـة أتأخـر فيهـا دون أن أخـبركِ ولا تملكين أن تسـألي؛ أشـعر بنيرانك حـين تلمحـين زميلـة بالعمـل تنظـر إليّ ببسـمة أو تمازحنـي؛ أحـسُّ دمعـك يتسـاقط عـلى كفّـي حـين تبكـين أيـام الخصـام، وأحـسُّ بعجـز كبريائـك الـذي تتركينـه عـلى عتبـة بـاب عينـيّ حـين تطالعينهـا بحـب وتبدأيـن مصالحتـي وتحاولـين إرضـائي.. المحـب يتعـذب، ويتـآكل.. صحيـح؟

أومأت له أن نعم؛ مسح على رأسي وقرصني من خدي بخفة قائلًا:

- وتجادلينني فيما أقول؟

- أنا أستلذّ عذابه، طالما نتيجته أحرف «نحن».

أوقفـت شريـط الذاكـرة بصعوبـة عنـد هـذه النقطـة، وأنـا أكـرر قـول جهـاد «لـكل حلـو نـاره». وأسـأله في داخـلي: «أتُجـادَل القلـوب ياجهـاد؟ حُلـوٌّ حُبّـك ينافـسُ أبـدًا نـاره، عـلى أن كانـت نـاره تخـسر طالمـا أنـت هنـا.

الآن إنها تحرقني، لم تعد بردًا وسلامًا كنار إبراهيم، وبدأت أكذب حين يسألني الناس قائلةً أن هذا الدخان أثر حرقٍ أصاب صدري، لا انفجاره. كالأطفال كنت أركض إليك دومًا، ولم أنكر أو أقول أنني كنت؟ لا زلت هناك، لا زلت أهرب إليك، لا زلت أسير كفيفة ولا زلت تلتقطني وتحول بيني وبين السقوط في حفر الدنيا، ربما دون أن تعلم. منذ اللقاء الأول عند سقوط عيني اللعينة في بئر تفاصيل وجهك، ومن وقتها لم يُدلَ لي دلو نجاة؛ منذ أن حلت بيني وبين تعثري على درجات السلم، كنت وقتها قد حلت بين تعثر عينيّ بأي شيء آخر، منذ أن بعثرت أغراض حقيبتي عن عمد منك بعدها، في ذلك الوقت قد بعثرت دماغي».

تتوقف قدمي عن السير لثقل الذكريات التي تنسكب من رأسي لكتفي. أجلس على الرصيف في وهن واضعة رأسي الثقيل بين كلتا يداي.. أفكر لم حدث كل ذلك؟ تقذفني الذاكرة بعيدًا حيث رأيتك أول مرّة؛ حيث انتهيت أول مرّة. كنت أصعد السلم قفزًا وأضع سماعات أذني وأدندن، أتخطى درجتين وأصعد الثالثة. لم أنتبه للكيس البلاستيكي الذي دست عليه فانزلقت قدمي. مددتُ يدي لأستند على الحائط أو أمسك بسور السلّم، تعثرت يدي في سماعات الأذن ولم أدر ما حدث، في ثوان كنت أرتمي للخلف. اصطدمَ رأسي بالجدار وكدت أسقط متهشّمة العظام لولا.. لولا ذراعيك. لم أدرك إن كان هناك من يصعد خلفي، لا أعرف حتى إن كنت بلغت الطابق الخامس أم تعديته، كنت منهمكة بشدة مع القصيدة التي أستمع إليها.

*ليت هاجري يشرح السبب*

*عتبه رضا، ليته عتب*

*بين عينيه والمها نسب*

وحين تعثرتُ، التقطتني، كحمامةٍ مكسورة، بين يديك.. رفعتَ رأسي إلى كتفك وساعدتني لأقف. لم أستطع فأجلستني، وجلست جواري. ران عليك صمت متوتر، نظرت إليّ، وكان ألم رأسي يزداد ولم أطقه.

- أنتِ بخير؟

أشرت أن لا، ضغطتُ بيدي فوق رأسي مشيرة لجزء يؤلمني:

- كأن ها هنا ثقب.

قلت بغرابة:

- ثقب؟

اعتدلت جلستك واستأذنت أن تراها فرفضت. أحسست بضغط على عيني. أذكر أنني قلت لك كلمات غير مفهومة لتنجدني بها، لا أذكر منها سوى أبي، والطابق الخامس. وقتها لم تنتظر، نهضت بسرعة والتهمت الدرج. بعد دقائق سمعت صوت أبي فاطمأننت، جاءني فبدأت أدمع، حين تستشعر عينيّ طيفُه، أو تلتقط أذني صوته، يمكنني أن أتجرّد من كل زيف، وأتعرّى من كل حزن..فقط أمامه. يكشفُ المرء ما خلف رُقَعِ ثوبِ القوة أمام من يحبّه، من يفديه. سألني ماذا حدث فأجابه الغريب الطويل مختصرًا.

- ما يؤلمك يا بابا؟

أشرت لرأسي وقلت له أنني أشعر أن بهذا المكان ثقب، وأن به هواء. تمهل أبي قليلًا حتى ابتسم، ورفع الحجاب عن رأسي قليلًا فوجدها تدمي؛ حملني حتى غرفته، وضعني على السرير وطلب من

المرضة أن تحضر أدوات الخياطة.

- خياطة؟

- تمزّق حجابك.

- بابا، إنه جرح صغير..صحيح؟!

أدار وجهه وافتعل بسمة، سيعطيني الآن إجابة غير صريحة.

- لن يؤلمك شيء، أعدك.

جلس جواري وأمسك كفيّ بين يديه وقال أن عليه أن يطهّر الجرح وأن يضمده، قال إنه لن يؤلمني، وأبي لا يكذب. ما إن اقترب من صندوق الإسعافات حتى تناهى لمسمعه صرخة ممرضة تستغيث به، تقول إن المريض في الغرفة السابعة والعشرين قد توقف نبضه فجأة. لم يتمهل، لم ينظر لوجه ابنته الذي تسيل من رأسه الدماء، وركض الطبيب صالح ليلبي نداء الواجب، لا الأب الذي كادت دنياه أن تنتهي برؤيتي متألمة.

سابقًا، كنت أتضايق وأتذمر، كنت أصرخ فيه بأن لأهله عليه حقّ، كنت متذمرة منذ صغري على تقصيره في حق بيته ليبلسم جروح الآخرين. الآن.. بعد أعوام قليلة جدًا، بتّ أفتخر كثيراً به؛ حتى أنني ابتسمت له الآن حين التفت إليّ، وأشرت له أنني سأكون بخير. لم أعُد أعارضُ تركه المنزل، لم أعد أتذمّر كالطفلة من إرهاقه أو من عدم وجود الوقت الكافي ليقضيه معي، كنت أمتص غضبي من مهنته في صمت، وصبر حانق، وأستبدل وجهي العبوس القلق بوجه مبتسم وإن كان زيفًا. تحضر له أمي مائدة الغداء أو العشاء، لا يهتم أبي بأسماء الوجبات قدرَ اهتمامه بأسماء المرضى وسبل العلاج؛ فكنّيتُها مرّة بملاذ

البيـت. سـألت أمّـي:

- لم ملاذ، ولم ليس المنزل؟

- لأنهـا تعجبنـي أكـثر؛ وحقيقـةً.. لفظـة البيـت دافئـة وتليـق بـأبي كثـيرًا.

التفتُ لأبي حينها، وقلت له:

- بابا، أنت بيتي الكبير.

ضمّنـي تحـت جناحـه وتنـاول طعامـه برضـا. أحـبّ كثـيرًا كلمـة البيـت؛ حروفهـا سَـكَن، أُنـسٌ، وطمأنينـة، عكـس كلمـة منـزل. إننـي لا أسـتطيع أن أغمـض عينـي في مـكانٍ لا أطـمأنُ فيـه أو لا آنـسُ بأهلـه، لكننـي أسـتطيع أن أنـزل ضيفـة في أي مـكان شريطـة ألا أبيـت فيـه، وإن أرغمتنـي الأقـدار عـلى ذلـك، فإننـي أصطحـب معـي أحـد البيـوت التـي آمـن لجوارهـا.. مثـلًا وسـادتي، دفاتـري، أبي، أمـي، رهـف.. وأنـت، أنـت يـا جهـاد.

- هل تسمحين أن أضمد جرحك؟

كان صوتـك رخيـمًا حـد مجازفتـي لأن أخـوض مغامـرة داخـل حنجرتـك، لاستكشـافِ مصـدر نبرتـك، قويًـا حـدّ إدمـان الاسـتماع إليـك كمعزوفـة موسـيقية مفضّلـة، هادئًـا حـدّ الخـدر الـذي يتخلـلُ جسـدك حـين يتلبسـك شـعور الحنـين. أومـأت أن نعـم؛ رفعـت يـدي عـن رأسي ووضعـت حجـابي عـلى كتفـي وبـدأت عملـك بخفّـة. لا أذكـر أي شيء مـما حـدث، لا أذكـر أني تألمـت.. كنـت وبـكل أسـفٍ مشـتتة بعطـرِك. تعـرفُ أننـي مريضـة برائحـة الأشـخاص، والزهـور، والأماكـن. إن كل مـكان وكل ذكـرى في قلبـي لهـا عطرهـا الخـاص.

أغمضـت عينـي واستسـلمت ليديـك ولأدواتـك التـي تعبـث في رأسي،

حتى تنهدت تنهيدة طويلة عرفت بها أنك انتهيت. ولا أدري.. هل أحسست بأصابعك تتخلل خصلات شعري وتعيد تهذيبه برفق كما كان، أم أنني توهمت من الإرهاق؟! لكنني أذكر جيدًا أنك كنت متوترًا، متوترًا جدًا وأنت تلملم الأدوات وتعيدها للصندوق ثم تغلقه بعنف، وترفع عينيك لتتعثرا بعينيّ اللتان تراقبانك في تعب. قلت لأبعد عينيك عني:

- حجابي؟

رفعت حاجبيك كأنك تتذكّر الآن فقط أنني أرتديه. جلست مقابلًا لي وبدأت تلفّه حول وجهي، وأنا كتمثال من الشمع، تجمّدت؛ أنظر لملاءة السرير تارة ولياقة قميصك الأسود تارة، ألمح ذقنك الخفيفة ثم أعيد نظري للأرض.. خجلًا، رهبةً، ضعفًا.. ما الفرق؟ أردت أن أسحبه من يدك، أو أنادي شوق لتساعدني، لم يخرج لي صوت، لم تتحرك شفتيّ.. أيكون لك عليّ سحرٌ حد أن يصيبني بالخرَس؟ وفي أول مرّة أراك؟ اقتربت من كتفي وأنت تلقي آخر طرف منه خلف ظهري، كنت أسمع نبضاتك، أستمعُ لنغم دقّاتها على طبلة أذني معلنة ناقوس الخطر. أعدتَ رأسي للخلف وأسندتَ ظهري جيّدًا بالوسائد، وأنت تطيل النظر داخل عيني. لم أستطع الهرب من عينيك. ولم أستطِع أن أمحوك من عيني، حتى هذه اللحظة التي أتذكر فيها هذا المشهد. أتكون استطعت تقييدي حد أن أُؤسرَ بين يديك بفعل صغير، كوضعك الحجاب فوق شعري؟

ثم تذكرت أبي يا جهاد. وماذا لو رآك قريبا مني لهذه الدرجة، سيسفك دمك. أصدرت همهمة خفيفة لتنتبه؛ افتعلت كحة متوترة

وعـدت للخلـف وأنـت تقـول:

- لقد انتهيت.

وأضفت بتهكم:

- ولم أجد ثقوبًا.

حينهـا ابتسـمت، ولـذت بالصمـت. مـن غـير أبي يفهـم تعبـيراتي وشـكواي الغريبـة؟ ومـن لحظتهـا، والثقـبُ الـذي توهمـت أنـه أصـابَ دماغـي، وجدتـه -عـلى غـرّة شـوقٍ- في قلبِـي، يُـسرِّبُ لدفئـه بـردًا مبهـمًا، أشـبه بثقـب تسـوّس الأسـنان.

أعـود لأذكـر نفـسي بسـؤالك: «هـل تسـمحين لي أن أضمـد جرحـك؟» وأجيبك-غيابًـا-، بهمـسٍ مـن بـين دمعـاتي: «لـو أنّـك ضمـدت قلبـي، أو ضممتـه». ويأتينـي صـوت مـن بعيـد، يتخلـل غيـم الذكريـات الشـائكة، ينـادي بعطـف وإشـفاق:

- هل تشعرين بالبرد؟

لا أجيـب، لا زلـت هنـاك، حيـث الغريـب الـذي جلـس بعيـدًا قليـلًا يترقَّـب حـركاتي وانفعـالاتي، وهـو يسـألني:

- تتألمين؟

لم أجـرؤ أن أرفـع وجهـي إليـك ياجهـاد، حضـورك يفـوق كل شيء. أومـأت كذبًـا أن لا.

- وتكذبين؟

افتضـح أمـري، انكمشـت خجـلًا، كقطـة تنتظـر العقـاب، ومجـددًا أومـأت كذبًـا بـلا. ناولتنـي وقتهـا ورقـة وأنـت تقـر أننـي أكـذب:

- لأنـك تكذبـين؛ سـتأخذين هـذه الأقـراص حتـى انتهـاء الجرعة،

لـن تتهـاوني في موعـده، سـتحرصين عـلى ألّا يصيبهـا المـاء قـدر المسـتطاع، لـن تقـتربي مـن موضـع الجـرح بالمشـط لمـدة..

قاطعتـك بنفـاذ صـبر وأنـا أتنـاول الورقـة وأطويهـا بقلـة اهتـمام تعاكس اضطرابي:

- عـلى الأقـل يومـين، وسـيبدل أبي الضـمادات مـرةً كل يـوم، وأحـرص عـلى الغـذاء الصحـيّ قـدر المسـتطاع، -لا أعـرف مـا علاقتـه بالأمـر لكنـك سـتخبرني بذلـك-، وأنـا بالمناسـبة، لا أتنـاول هـذه الأقـراص.

وكأنني لمحت نبرة عبثية في صوتك حين أتممت على أوامرك:

- نسـيت شـيئًا هامًـا، سـتنزعين سـماعات الأذن أثنـاء سـيرك في الطرقـات وعـلى الـدرج خاصـةّ، لـن تجـدي بطـلًا خارقًـا ينتشـلك كل يـوم.

لم تكـن تعـرف ياجهـاد بأنـه لـو أن هنـاك شـيئًا أكرهـه في هـذه الدنيـا، سـيكون أسـلوب الأمـر الـذي لم يعاملنـي بـه أبي حتـى، وهـو أجـدر النـاس بـه. لذلـك لم أرد، أدرت وجهـي في الاتجـاه الآخـر وأغمضـت عينـي ولبثـت منتظـرةً أبي، وأخـيراً أتى صوتـه المتعـب الملهـوف بعـد وقـت ليـس بهـيّن:

- أنت بخيرٍ يا بابا؟

أبي لا ينادينـي عـادةً ابنتـي، يدلّلنـي بلقبِـه الخفيـف، لا أعـرف أمـا زال «يسـتطعم» حـلاوة الأبـوّة ونكهـة كلمـة «بابـا» كـما كنـت أنطقهـا في صغـري، أم أنـه اعتـاد تدليـلي بـكل مـا يخصّـه، أم أنـه يحـذف كلمـة «وجـع قلـب»، فيقول»بابـا»، بـدلًا مـن «وجـع قلـب بابـا». قالـت لي أمّـي مـرّة أن البنـات وجـع قلـبٍ قـدر مـا هـن راحتُـه وريحانتـه. حاولـت أن

أبتلع الجملة، حاولت أن أقول كيف يحب المرء، ثم يخشى من يحب ويخشى عليه في الوقت نفسه؟ كيف يحيا الإنسان بخليط مشاعر حيّة بهذا التناقض وبنفس المقدار؟ لم أدرك أن الآباء، حين يولد لهم رضيع، يوهبون قلوبًا أخرى عند صرخة الطفل الأولى، ليتحمّلوا بها عناء هذه المشاعر الغريبة. أجبت أبي بهدوء وأنا أغفو:

- ساعدني.. هذا الرجل.

«هذا الرجل» الذي ترك بذور حبّه تتسلل عبر أذني ككائن دقيق حين التقطت نبضاته. هذا الرجل الذي استقرّت بذور صوته في جوفي الأيسر، حيث نابضي تمامًا وتركها تنمو ببطءٍ و لم يتعجّل؛ كان صبورًا جدًا، كأنه نبتة صحراء ستكبر في حديقةٍ أنشأها أبي طيلة عمره بكل قلبه. هذا الرجل الذي وعيت به على الدنيا الكبيرة المؤلمة، -لا الروض التي أنشأني فيها أبي وأسماها لي حياة-، الدنيا التي يختبأ منها الحالمون، المختبئون في أحضان أهلهم مثلي؛ تجرأت أن أخطوها معه حين وضع يدي في بيتها بين يديه، هذا الرجل الذي..

وتخلل الصوت ثانية غيمة الذكرى الخبيثة وهو يسأل:

- لم تبكين؟

أطلقت سراح وجهي المخبّأ بكفيَّ، ونظرت حولي. من كان يدري أنني كل هذا الوقت كنت تحت المطر، أجلس على الرصيف حيث تركني هارون ورهف، وغريبٌ يجلس جواري يمسكُ مظلةً، ويشاركنيها ليقيني البرد. وأنا.. وأنا يا جهاد، من يقي قلبي برد غيابك؟ ألم يأن لأمانِه أن يُرَد؟ ألم يأنِ لك أن تعود؟

كان يبتسم بلطف وهو يمد يده بمنديل لأمسح دموعي، لكنني لم

أكـن أبـكي. قلـت:

- ما فائدته بعد أن نضب الدمع وجفّت التربة؟

هزّ كتفيه وقال:

- ربمـا يذكـرك هـذا المنديـل أن البـكاءَ حـقٌ طبيعـيّ لـك، وأن حبـسَ الدمـعِ لا يفيـدُ سـوَى بتصـدُّع جـدران الـروح.. لا أظـن أن أحـدًا يـودُّ لـو يحيـا بـروحٍ متشـققة.

نظـرت لـه بضيـق؛ لا أحبّـذُ أبـدًا أن يسـبر أحدهـم غـور قلبـي بهـذه البسـاطة. إننـي ألـوم نفـسي كثـيرًا إذا مـا وجـدتُ أحـدًا يسـتطيعُ أن يكتشـفَ أننـي أختبـئ خلـف قنـاع؛ قنـاع زائـف وقـوي جـدًا.. لم أجـد أقـوى مـن التمثيـل؛ كل مـن أتقنـه اسـتطاع مواكبـة الحيـاة. ربّمـا أحـسّ بما أشـعر فاختلـق حديثًـا مـن الـلاشيء، قـال إنـه خـرج مـن المشـفى ليـصرف دواءً لوالدتـه، ووجـدني في طريقـه شـاخصة البـصر، ثـم نكسـت وجهـي وأخفيتـه بـين يـديّ، قـال بأنـه ظـنَّ بـأن هنـاك مـا أخافنـي، قـال أشـياء كثـيرة لم أنتبـه لهـا، قـال إن المطـر بـدأ يهطـل ولم أتحـرّك. جلـس جـواري وكنـت أتمتـم بكلـمات لا تمـت لبعضهـا بِصِلـة. لا أذكـر أننـي تحدثـت، لقـد طـارت بي غيمـة كبسـاط عـلاء الديـن إلى سـنين قليلـة قبـل الآن وكنـت هنـاك.. حيـث أنـا العاشـقة الصغـيرة، حيـث قطـة أبيهـا المدللـة ذات التسـعة عـشر؛ ولـو لم يسـقطني مـن خيـالي لأكملـت سـفري هنـاك، واختبـأت في مـاضيَّ للأبـد.

سـألته إن كنـتَ تحدثـت حقًـا؛ رفـع حاجبيـه بتعجـب وحـاول تـدارك الموقـف مجيبًـا:

- كنـت تتسـاءلين بهمـس وتكرريـن مـن بـين قولـك؛ «ألم

يـأن..؟».

قلت بشرود وأنا أكرر قول هاروكي موركامي:

- «الأمـر يشـبه العـودة بعـد زمـن طويـل إلى غرفـة تحمـل كل ذكرياتـك».

تابع بغير جهد الجملة السابقة لما قلت:

-»كل الذيـن وقعـوا في الحـبّ كانـوا يبحثـون عـن الأجـزاء الناقصـة مـن أنفسـهم، لـذا كل مـن يحـب يصبـح حزينًـا عندمـا يفكـر في محبوبـه.»

واندهشـت لتأكيـده أنـه يعـرف مـا أفكـر بـه، لتأكيـده المتبجـح بأنـه يشـعر بمـا ظننـتُ أني أجيـد إخفـاءه، لاسـتطاعته أن يفهـم أن الأظافـر الشرسـة خاصتـي لا تسـتطيع أن تنبـش الهـواء حتـى.

مدَّ يده مبتسمًا:

- كنان.

قلت بحنق دون أن أصافحه:

- هتون.

ازدادت ابتسـامته، ووضـع يـده عـلى صـدره إشـارة تحيـة، وقـال أن اسـمي جميـل. أعجبتنـي إشـارته لتحيتـي.

- لكنه يحمل معنًى حزينًا.

- يسـتطيع الجـمال أن يخـترق الحـزن ليعـبر عـن نفسـه كصفـة سـائدة.. الحـزن ضيـفٌ طـال أم قـصُر؛ لكـن الجـمال فطـرة.

- والفطرة تتلوث.

- تتلوث، لكنها لا تغادرك.

كان يتحـدث كحكيـم كهـل. كلامـه صحيـح، وأزعجنـي كـون كلامـه

صحيحًا. قال أنه هنا لأجل والدته التي ترقد في الغرفة رقم اثنين وخمسين، لا أتذكرُ سبب مجيئه بها إلى المشفى، ربما أزمة قلبية، لكنني شكرت الله في صمت أنه أرسل أحدًا إليّ. سألني لم أنا هنا؟

- لأن..

نظرت إليه ووجدت عينيه تحثني على الحديث؛ أخرجت تنهيدة طويلة وقلت:

- أبي.. تعرض لحادث.. هو في المشفى، هناك، و..

لم أعد أقدر على الحديث الطويل، فقدت هبة النطق والبكاء.

- كل ما يأتي به الله-وإن جزعنا- خير.

دقائق ولم نتحدث؛ رأيته يقلّب كفّ يده ويبتسم.

- لست المجنونة الوحيدة هنا.

ضحك:

- أبدًا، لكنك لست الشاردة الوحيدة؛ سعيدٌ بمعرفتي إيّاك أيتها الغريبة.

ابتسمت:

- وأنا.. ممتنة لك أيها الغريب.

شيءٌ ما داخلي قد ارتاح لفكرة وجود شخصٍ جواري في هذه اللحظة، يشتت دماغي كي لا أتوغّل لأرفف ذكرياتي وأنكبّ هائمة. وددت لو أقدم كل الشكر لكلّ من أرغمونا على مشاركتهم الحياة وخلّصونا دون قصد من داء التفكير المفرَد المفرِط، من التركيز على الندبات التي خلفها الراحلون؛ كل الشكر لمن التقطنا من لحظة شرودٍ كادت تودي بعقلنا لفوهة الحجيم من فرط جلد الذات وعذاب

النفس؛ لمن منعونا عنوةً من المخاطرة للمس دوامل الماضي كي لا ينفجر القيح. قال بسرعة، وكأن قطارًا سيفوته:

- إن سمح لنا القدر بلقاء آخر، أيمكننا أن..

قلت مقاطعة:

- نتشارك فنجان قهوة؟ في استراحة المشفى؟

ابتسم براحة وسألني:

- مثلجات بنكهة الليمون؟

هززت رأسي بسعادة:

- اتفقنا.

نهض وحياني مبتسمًا، بيده موضع قلبه. ترك لي المظلة فأعدتها له.

- المطر لا يؤذي من هم منه.

وتطلعت أمامي ببسمة -وإن كانت زائفةً- حتى يرحل. أعجبتني فكرة المثلجات، ونكهة الليمون؛ راقتني كثيرًا فكرة تجربة شيء مختلف. لن أكذب، لم أتذوقه من قبل، وستتألم لوزتاي وحلقي إن تناولت مثلجات في الشتاء، سأتحدث بصعوبة وسأصاب بوعكة برد ترقدني في السرير ليومين..لا أهتم! التجربة المختلفة تستحق، ولو كان شيئًا بسيطًا. أنا التي اتخذت من القهوة مشروبًا مقدّسًا للتعارف، ومن الأسود لونًا شبه دائمٍ لي، ومن وجه الجليد قناعًا، ومن حدة الصوت سلاحًا.. أتفضل بقبول دعوة لمثلجات بنكهة منعشة وبلون فاتح، من شخصٍ قابلته على الرصيف، بعد عام ونصف من الروتين الغامق.

*«وأمرّ ما لقيت من ألم الهوى..*

*قرب الحبيب وما إليه وصول*

*كالعيس في البيداء يأكلها الظما*

*والماء فوق ظهورها محمُولُ.»*

أحبّ رنة هاتفي كثيرًا، غير أن ما يليها غالبًا لا يكون محببًا أبدًا؛ كانت شوق وصوتها مضطرب وهو يقول:

- الطبيب ...الذي ..الطـ ..بـ..

استجمعت ما فهمت وقلت بعصبية:

- ليذهب الأطباء كلهم للجحيم، هل أبي بخير؟

- ولكن..الطبيـ

- أبي بخير؟

- بخير.. بخير والله.

تنهدت براحة وقلت:

- لتحترق منظومة الموتى، ما به طبيبك؟

- الـذي أتى خصيصًـا لأبيـكِ، اسـمه، جهاد..إنـه أخـي، جهـاد سـليم!

أغمضت عيني لأمنع الدمع من أن يتجمع، تذكرت حديث كنان، لم يمضِ عليه أكثر من دقائق، ستبكين إن أردت، هتون.. الأقوياء يبكون أحيانًا. أردت أن أتكلم، أن أقول شيئًا لشوق، ومنعني صوت قوي خلفي. كان صوت ارتطامٍ عنيف. أطاحت دراجة هوائية بأحد المارة، تابعته عيناي لا إراديًا وهو يطير في صدمة، واستقرت على الرصيف الذي أسير عليه. على بعد خطوات مني.. جثة هامدة بمعطفٍ بنيّ،

ومظلّة تشبه التي شاركني فيها كنان قبل قليل. اخترق عقلي سهمٌ مؤلم، ينبأ بفكرة سيّئة جدًا، حاولت أن أدفعها عني غير مرّة، وبقوّة.. لكنه كان قد أصاب موضع الشكّ في رأسي، والشكّ لا ينتزع إلا باليقين، واليقين يؤيد بالرؤية.

هذه المرة لن أصدق قلبي، قلبي لا يوثق به.

- لا يمكن..

تحركت خطوتين وتخللت المارّة بلا صوت، وتساؤلات شوق التي لا حصر لها تضرب أذني. وقفتُ خلف شخصٍ يحاول أن يرفع رأس المصاب فنهرته.

قاطعت قلقها:

- هناك حادث، على مقربة من المشفى، أطاحت دراجة هوائية بأحد المارة، أحضري سيارة بسرعة، الرجل..

واعتراني الخوف، والجزع..وأنا أرى الممدد أمامي، لم يكن سوى الطيف اللطيف الذي أزال وحشتي وحاورني منذ قليل.. كنان!

## (٧)

المشهد يتكرر ثانيةً، بنفس الدموية، ونفس الصدمة. المشهد يتكرر بمنتهى الابتذال، بنفس الجزع، وأنا في حيرة من أمري ماذا أفعل مجددًا؟ أجلس جوار الجسد الملقى، أطلب من الله برجاء كبير ألا يموت. للمرة الثانية، أضع يدي فوق قلب الجسد المسجى، أشكر الله بدموع الشكر أنه حيّ، أناديه من بين دموعي: «كنان، هذه أنا.. أنت تسمعني؟». لا يتحرك، ولا يجيب.. وأسترسل في البكاء: «كنان، هل يمكنك أن تحرّك إصبعك؟». لا يرد. أبكي بقهر، يخرج الدمع مني فائضًا، كيف خزنت هذا الكم داخلي؟ أبكي كثيرًا، بحرقة، بجزع من فقد طريقًا مستويًا بعد أن سار على الشظايا.

من بين دموعي أنظر لوجهه، أسأله برجاء أخير.. برجاء كبير: «ولا حتى جفن عينك؟!». المرة السابقة التي سألت فيها هذه الأسئلة لم ألقَ إجابة، لم يرد عليَّ الشخص الملقى جواري. في المرة سابقة.. حين سقط أبي من الشرفة، لم أجد من يجيبني إلا حين صرخت.

هل أصرخ الآن ليسمعني أحد؟

يسحب البكاء كل طاقتي، قدرتي على الصراخ معدومة، قدرة صوتي على الكلمات تساوي الصفر . ضممت ركبتيّ إليّ، وبكيت لأجله، ولأجل نفسي، ولأجل أبي ثانيةً.

ثم انتابتني هواجس كثيرة..

«يا الله، أنت لن تفعل بي هذا، أنت لن تجعلني أعيش هذا

الألم ثانيةً، أنت لن تجعلني أفكر أن هذا حدث بسببي، لو لم يتأخر بسبب رؤيته لي لم يكن ليصطدم بأحد، كان سيذهب ويعود بسلام، ولم أكن لأشعر بنور سأراه، كنت سأكمل كما أنا، كنت سأفيق وأعود لأبي، يا الله نجّه يا رب، لأجل والدته المسكينة التي تنتظره، لأجلي أنا يارب.. لأجل ألا تتلقفني الوساوس كفريسة مستساغة.. يا الله، أنت لن تدع الذنب يأكلني. أنت ستساعدني، وستساعده، من يدري ماذا به ليحتمل ما حدث له؟ لا أحد يحتمل ألمًا جديدًا.. ساعدنا ياربّ».

مسحت عيني بطرف أكمامي حين سمعت صافرة الإسعاف، سأل المسعف عما حدث، أجاب أحد المارّة، نهضت من الأرض يلتهمني الدوار، قلت ما أستطيع قوله من معلومات كطبيبة. حملوه وأدخلوه السيارة، رفضوا أن أرافقهم، قلت أنا طبيبة، رفضوا أيضًا؛ أخرجت للمسعف بطاقة هويتي، اعتذر وقال أنه لم يرى ابنة صاحب المشفى قبلًا، وتركني أصعد.

لا أحب استغلال الرتب، أذمّ من يفعل ذلك، أعتبره خللًا في عقيدة الإنسان، لكنني أيضًا لا أحب أن أمنع عما أشعر أنه واجبي، وقد اضطررت. كانت دقائق طويلة، كأي دقيقة ابتلاء، لا تمرّ إلا وقد ابتلعت من صبر المرء ما تستطيع. أنظر لوجهه آملةً ألا يسوء وضعه، أجد حاجبيه يقتربان، أدقق النظر، أشعر أنني أتوهم، لكنه أصدر زفيرًا متألمًا، كان ثالث أجمل صوت أفرح لسماعه بعد إفاقة أبي من غيبوبته، وصوت جهاد.

- كنان..أنا هنا، لا تتعب نفسك.. لا تحاول الكلام حتى.

ابتلعت ريقي وقلت بكذب:

- ستكون بخير، كل شيء سيكون بخير.

أصدر صوتًا متألمًا، وحاول رفع ذراعه.. حاولت أن أفهم، لم أجد شيئًا غير أن أخرج محتويات جيبه. في يدي الهاتف، المحفظة، رنوت إلى ما يريد، دواء والدته، وصفة الطبيب، وبطاقة المرافق.

- إنها أمانتي حتى تنهض سالمًا، عد بسرعة لأجل والدتك.

وصلنا المشفى، أخذوا الطريق ركضًا لغرفة العمليات؛ وأخذت طريقي للغرفة رقم اثنين وخمسين، أعطيت الممرضة الدواء، وشرحت لها باختصار ما حدث، أريتها بطاقة المرافق واستأذنتها في الدخول. طرقت الباب ببطء حتى سمعت صوتًا يجيب موافقًا. ثقلت خطواتي فجأة. كيف نحمل السم مجرّدًا من أي زينة؟ كيف نقدمه ونقول للمرء بكل أريحية أن هذا سم، سوف تتجرعه، سيؤلم، ويؤذي، ربما يميت.. لكنه -ككل ابتلاءات الدنيا- يجب أن تتجرعه، كاملًا غير منقوص. كيف يتحمل الأطباء مشقة إخبار أهل الميت بموته وأهل المصاب بفاجعته؟ كيف يصبح الأمر روتينيًا حد ألا تهتز لهم شعرة؟ هل الاعتياد قاتل لهذا الحد من اللاشعور بالرهبة، بالخوف، بـ. بالتفكير بدنو الأجل؟ أم تراهم في كل مرّة يضطرون فيها لحمل هذا العبء، تتكون لآذانهم طبقة شمعية مضادة لأصوات الصراخ، وتحيط أعينهم غشاوةً حتى لا ترى هذا العذاب، أم أن أفئدتهم من البداية تحاط بدرعٍ واقٍ كي تتحمل، كي تستطيعَ إكمال اليوم والأسبوع والشهر والسنة والعمر في هذه المهنة دون خسائر نفسية كبيرة؟ دون أن يفقد المرء منهم إنسانيته؟

الآن أشعر بأبي.. لأول مرّة، أجرّب شيئًا مؤلمًا رآه، لا أنسى أيام دخوله البيت بكتف متهدل، يخبرنا أن أحد مرضاه مات، أو وصل المرض لمرحلته الأخيرة، ولا يجدي معه شيء سوى احتجازه في المصحة، ووضعه تحت المراقبة.. والانتظار، ثم الانتظار.

الانتظار؟ الكلمة مزعجة، تستفز أعصابي، كأن تكون في غرفة خاليةٍ من كل شيء إلا من ساعة حائط تستمع لدقاتها، دقَّة دقَّة! الانتظار؟ أن يتعفنَ قلب المرءِ وهو حيّ، مترقبًا معجزة لن تحدث، يختلق لتأخرها ملايين الأعذار، يعلم أنها لن تأتي، لن تحصل، لكنه يتشبث بالوهم كي يحفظ رباطة جأشه، ويخسر جزءًا منه في معركة داخله أثناء ترقبه لأي شيء صغير، لأي بادرة من الأمل تكفيه ليضع عشرات التوقعات وينشغل بها، أو لأي نذير يشغله عن ورطة المنتصف تلك، عن اللاجديد الذي يمليه على نفسه قبل غيره. الانتظار؟ أن يسير المرء على سيف الصراط دون أن يبكي، بصمت وهدوء. ألا يعرف أين ستطأ قدمه، وما يلي هذه الوطأة.

إنني لا أعرف الآن ما علي أن أفعل، هل أدخل لهذه السيدة الكبيرة وأقول لها ببساطة ورباطة جأش:

- مساء الخير يا أمي، يؤسفني أن أخبرك أن ابنك تعرض لحادثٍ وهو في العمليات الآن، رجاءً تماسكي لأجل صحتك ولأجل ولدك، نتمنى لكما الشفاء العاجل.

هل سأقدّم لها نشرةَ أخبار؟ الأمر أشبه بقائد طائرة يُملي علينا الإرشادات: «الرجاء ربط أحزمة الأمان وعدم الحركة وإغلاق الهواتف حتى ثبات الطائرة في الهواء، نتمنى لكم رحلة موقفة». هل يقسو

قلب الطبيب حد استقبال الفواجع بلا شعور؟ كيف أخبرها ما ألم بابنها؟ وإن أخبرتها أن ابنها بالأسفل، يجرون له جراحة، وحيدًا في غرفة باردة، ستراه الشاب قوي البنية أم سيستحيل في عينيها الصغير الذي حملته في المهد؟ أيتحمل قلبها أن يشاك صغيرها شوكة فضلًا عن رقدته بين أيدي الغرباء؟ رفعت صوتها منادية:

- ادخل.

قدمي ملصقة بغراء، مثبتة في الأرض بمغناطيس، لا تتحرك. أيدري أحد هول الموقف حين يقيده قلبه عن الحراك؟ رفعت قدمي بتعب، سرت ببطء أحمل همّها وهمّي معًا، أتخيلني أمًا، لي صغير تقلّبه أذرع الغرباء كيفما شاؤوا، هل كنت لأهتم بمسميات وقتها؟ كان سيقتلني الوقت، كانت لتجلدني الدقائقُ جلدًا مبرحًا. إنها أم.. وأم مريضة، هل أخبرها بهذه الفاجعة؟

اقتربت منها فتعجبت رؤيتي. ابتسمت بزيف وألقيت التحية، ردتها بأحسن منها، ووقفتُ صامتة، حائرة، كطفلة أرسلتها أمها للمتجر لأول مرّة، لا تعرف ماذا ينبغي عليها أن تفعل أولًا. سألتني إن كنت أخطأت الغرفة، هززت رأسي بـ لا. وقفت ساكنة كالموتى، لست متوترة، لا أعبث بأظافري كعادتي، لم أقبض على كفّي، كنت ساكنة تمامًا.. وداخلي يتصارع بين ما يجب علي فعله، وما يصح قوله. شيءٌ ما كان يردد في عقلي أن أهرب من هنا، أن أتركها وأمارس رياضتي المفضلة. ثم قيدتني هيئة كنان التي كان عليها فتماسكت؛ ومرت بخاطري فكرة تقول أنني ربما أخرج من هنا بحال غير التي دخلتها بها.

أشارت للكرسي جوارها وقالت أن أجلس. امتثلت. رفعت وجهي

إليها، سيدة جميلة رغم سنها الكبير، على مشارف الستين تقريبًا، خطوط الزمن في وجهها، وارتجاف شفتيها تحكي أنها لم تعش سهلًا. افتعلت كحة وابتسمت:

- أمي، أرسلني كنان، حقيقةً أنا لم أتعرف إليه سوى اليوم، أوصاني أن أرسل العلاج للممرضة وأهتم بك إلى أن يعود.

قالت بريبة:

- وأين ذهب حتى يرسلك؟
- قال أن لديه عمل هام.. وسيتأخر مرغمًا.
- إنه لا يتركني وحيدة أبدًا، أعرف كم يشق عليه عمله.

ملأت لسانها بالدعاء له فقلت مجاريةً حديثها:

- هل عمله شاق لهذه الدرجة؟
- أيامه هذه مليئة حتى فوهتها، أخبرته أن الممرضات لا يقصرن معي، ولا يضجرن، لكنه لا يعود للبيت إلا ليغير ثيابه أو يجلب مستنداته، ويبدأ عمله هنا تمامًا.

مسحت بيدها ذهابًا وإيابًا على بقعة من السرير وهي تكرر بحنان:

- هنا تمامًا يا ابنتي.

وكأن فؤادها يتذوق طعم وجوده، وكأن فؤادها أصبح فارغًا، وكأنها تعرف أنني كاذبة، وأن ابنها ليس بخير. هل تشتاق جواره وهو لم يغادرها إلا لضرورة؟ أيهفو قلب الأم لوليدِهِ في الدقائق التي يغيب عن ناظرها فيه؟ كانت تنظر إليَّ كأن عيناها تتفحصان جوفي، وكنت أدير عيني كي لا تسألني الكثير. سألتني فقط أين تقابلنا، قلت:

- أمام المشفى، لم تكن معي مظلة وكانت تمطر، وظللني بخاصته.

أردت أن أقول أنه قد أهدى الظل لي، وقاني شمس صحراء هواجسي، ولو لدقائق، حماني من دوامة كانت ستعصف بي، أدركني من نوبات شردوي التي لا أفيق منها إلا بتعب من أحبتي. إلى متى سأستمر بكتمان ما أريد قوله وإبدله بآخر لمجرد أن هذا أفضل؟

وجدتها تبتسم بفخر، كأن ابنها أنقذ العالم، والحقيقة أن كلماته الصغيرة، وهيئته الهادئة، قد أنقذا أفكاري. وابتسمت كما يحدث في كل مرة أرى امرأة تمارس الأمومة بكل رضا، رغم سذاجة الشعور -أو كما كنت أراه قبلًا بأنها كذلك-. ما الشيء الجديد في أن ينطق الابن كلمة، أو يمد يده ليمسك شيئًا للمرة الأولى، أو ظهور السنّ الأول من أسنانه؟ إنه مسار حياته الطبيعي. كطبيبة، يمكنني أن أفرح بملاحظة هذا لأطمأن لمسار نموه بشكل سليم، لكنه لا يستحق الاحتفال، والصخب، والتقاط الصور، والاتصال بأفراد العائلة فردًا فردًا لإخبارهم أن الطفل بدأ يحبو، استطاع أن يجلس.. وغيره! ظننت أنها الفرحة بالابن الأول، قرة العين الأولى، لكنني وجدت الأمر يتكرر مع الابن الثاني، والثالث، ولو أنجبت الأم قبيلة لوسعهم قلبها دون أن يضيق المقام بأحد.

لاحقًا.. أحببت أن أرقب هذه التفاصيل، تفتح قلبي واستسلم لغريزة الأمومة كمبرر قوي ووحيد لا يمكن تفسيره. أحببت كثيراً أن أنظر للأمهات في طريقي، وأن أنظر لأمي وهي تعاملنا كالصغار، وأنظر إلى والدة كنان وهي تفتخر بتصرفه النبيل، وبدأت أتفهم،

وأقـول بسـعادة: «إنهـا أم، مـاذا عسـانا نفعـل؟». وتذكرت-رغـمًا عـن قناعي-سـؤال جهـاد لي يومًـا:

- كيف يختزل العالم في شخص؟

- أنت لست أبًا لتشعر بهذا.

- لكنني محبّ، والمحب يرى حبيبه كأنه العالم.

وددت لـو أوقفـه هنـا وأخـبره كـم أنـه مخطـئ، المحـب يـرى حبيبـه العـالم، بـل يـرى العـالم كلّـه في حبيبـه، لا «كأنـه»، الحبيـب يـسرق ماهيـة الأشـياء والأشـخاص، ليكونـوا بـلا معنـى إن لم يكـن موجـودًا.

- لم تخبريني من أنت؟

كان سـؤالها غريبًـا، أو هكـذا خيـل لي عقـلي المسـكين، وكانـت لـدي رغبـة قويـة بـأن أخبرهـا حقًـا مـن أنـا، أن أبتسـم لهـا وأقـول لا تصدقـي أن هـذه التـي أمامـك هـي أنـا، لا اسـمي ولا هيئتـي ولا عينـي الثابتـة ولا صـوتي المتـزن هـذا حتـى. ولكننـي لم أجـب.. اهتـز هاتفـي فأخرجنـي مـن شرودي. تذكـرت مهامـي التـي لا أدخـر جهـدًا في تأجيلهـا، وأننـي تأخـرت عـلى أبي كثـيرًا، لا بـد أنـه ينتظـر، ونسـيت محادثـة عمـي فيـما أراد هارون، وطائـرة جهـاد التـي سـتصل، مـن سيسـتقبل كتلـة الصخـر هـذا؟

- جهاد هذا.. قريبك؟

نظـرت بتلقائيـة لبنـصري، حيـث خاتـم الخطبـة، لم أجـده. رفعـت عيني للسـيدة فوجدتهـا ترقـب انفعـالاتي. أغمضـت عينـي وزفـرت بقلـة حيلـة، مـن يمنعنـي مـن الثرثـرة بأفـكاري بصـوت عـال؟

- ليس كما يبدو، إنه.. إنـ

قاطعتني:

- يقرأ علي ولدي جملًا تقع عليها عيناه وتعجبه، قال لي ذات مرة: «لكل إنسانٍ شيءٌ داخله، يهزّه ويعذّبه».

وأنقذني رنين الهاتف مرة أخرى من أن يتشقق قناعي. أمسكت يد السيدة وقلت بود حقيقي:

- عليّ الذهاب الآن، لن أتأخر، سأتطمأن على أبي وأعود لك.

نظرت مستفهمة فشرحت:

- أبي في الطابق التالي مباشرةً، إننا هنا منذ فترة.

دعت له بالشفاء ورجتني أن أمضي معه وقتي كله ولا أمر ثانية، قالت أن كنان سيأتي قريبًا، وأنها تعرف طبيعة عمله، لن يتأخر. أنهيت الحوار بحزم:

- أنت أمانتي لحين عودته.

ودعتها وأكلت أدراج الطابق لأرى أبي، كانت شوق تخرج من عنده، قالت أن أبي قلق علي، وأنها أُخبِرَت بأنني في الأسفل منذ وقت، قلت أن تتبعني. باب أبي، الباب الوحيد الذي أمسك مقبضه وأنا أريد أن أرى ما وراءه. خلف هذا الباب أستطيع أن أعيش، أكون حيث يكون أبي، رغم مرضه، رغم أنني لا أستطيع أن أكون جواره دومًا، رغم أنهم يُقصُونه عنّي بسبب نوباته، رغم كل هذا، إلا أنه الشيء الوحيد الذي أحبّ رؤيته في كل حالاته.

احتضنته احتضان الحزين الصامت، جلست حذاءه وأحاط كتفي بأحد جناحيه. ذراعيّ والدي جناحان أختبئ تحتهما، عناقه كهدنة من صراعي مع العالم، ومع نفسي التي أود أن أخرجها مني. طمأنته أنني بخير، وقصصت عليه ما حدث، مستثنية بالطبع حديثي الحزين

مـع كنـان. لا أحـب أن يحـزن، لا أحـبّ أن يعـرف كـم أنـا مصابـة بهلـع الفقـد والغيـاب. قـال أنـه حـقّ والدتـه بـأن تعـرف، وواجـب عـليّ إخبارها. دافعـت عـن نفـسي بعتـاب يتجـدد:

- وكان حقًّـا عـليّ معرفـة مـا تخفيـه أنـت أيضًـا. ثـم إنـك لـو تخيلـت أحـدا يـأتي إليـك وأنـت هنـا ويقـول لـك يؤسـفني إخبـارك أن ابنتـك تعرضـت لحـادث وتهشـمت عظامهـا.

لم يجب، زاد من ضمته إليّ، وحمد الله في سرّه. سألت شوق:

- تعتقدين أنها صدقتك؟

- لا أظن، قلوب الأمهات تصل للحقيقة دومًا.

رن الهاتـف، أخرجتـه مـن معطفـي، كان هاتفـه، والدتـه تتصـل ونسـيت أنـه معـي. بـل أن أغلـق الخـط، أرسـلت لهـا رسـالة: «أعتـذر يـا أمـي، مشـغول جـدًا، ربمـا لـن آتي الليلـة، أوصيـت إحداهـن أن تعتنـي بـك، أراك بخـير». وأغلقتـه، بـين نظـرات شـوق المتعجبـة وأبي الـذي أراد أن يقـول شـيئًا سـبقته:

- علمـت أن جهـاد سـيكون طبيبـك، لـن يدخـر جهـدًا ليكـون سـببًا في تعافيـك.. بابـا، أنـت لا تقلـق عـليّ أبـدًا، قلبـي بخـير طالمـا أنـك معـه.

شد على يدي:

- سيأتي بعد غد.. في هذا الوقت يمكن..

ابتلعت دهشتي التي تتكرر، وأحسّ بها كليهما.

- يمكنـك أن تهيئـي نفسـك، يمكنـك أن تبتعـدي عـن هنـا إن شـئت، لم أرد أن..

- أما أنا فأريد، لا أحد سيهتم بك مثله، سيكون دقيقًا قدر استطاعته؛ أنا أثق باجتهاده وحبه لك.

سألني ماذا سأفعل، لا أعرف ماذا سأفعل؛ قلت أود أن أذهب لاستقباله، لم يرد، نظر للفراغ وقال فقط:

- متأكدة؟

قلت نعم بقوة تخالف الـ»لا» التي أرادت التملص من تحت لساني.

- أتسمح لي أن أسرق من وقتك القليل، وأمر على والدة كنان بين الحين والآخر؟

لم يرفض، سأل إن كان يرافقها غيره، ويقصد رجالًا، أجبته أنها وحيدة، وكأنني تذكرت الآن فقط، أخرجت محفظته، أعطيت بطاقة هويته لأبي.

- هل تعرفه؟

تطلع لثوانٍ وقال لا، أعطاها لشوق وقال لها أن تأخذ بياناته وأن كامل حساباته مدفوعة. خرجت هي، قال لي أن أؤكد الأمر على الموظفين بالأسفل.

سألته مجددا:

- هل تعرفه؟

أجاب بإبهام:

- وهل اقتصر الخير على من نعرفه؟ المعروف لا يعرف سببه، هو منة من الله ليقيك مصرع سوء.

قبلت يده، وابتسم. أغمض عينيه بقوة وفتحهما بسرعة، ربما

يتجنب شعورًا بالألم، أو فكرة سيئة.

- أنت متعب؟

- لا أتعب وأنتم جواري. أتدلل فقط.

ضممت أصابع كفي وأشرت بسبابتي لوجهه بجد مصطنع:

- لتنل نصيبك من الدلال كاملًا وافيًا، وحين يأتي دوري لن أرحم أحدًا.

أسندت رأسه إلى ذراعي وساعدته ليتمدد، دثّرته جيدًا كي أحميه من البرد، وقبّلت جبينه كي أدثّرَ قلبه، وأحميه من أي خاطرة حزينة تمرّ بباله. حين يقبلني بين عينيّ يذوب ما بداخلي من همّ وحَزَن وأي أفكار سيئة قد تحيط بي، فعلتُ المِثل معه، لعلّ داخله يطمئنّ، لعل عقله يهدأ.. ولو قليلًا. أحبّ مجالسته قبل نومه، أحببت فكرة أن أكون آخر من يرى؛ لا تتكرر كل يوم، لكنني كلما استطعت أدركتها. جلستُ جواره وأحضَرتُ كتابًا، الكتاب الذي وقعت عليه القرعة، مع النبيّ..لأدهم شرقاوي، لم أقرأ الكتاب من قبل أن أقرأه عليه كما كان الدأب بيننا، وسرى داخلي شعور لذيذ بالأنانية أنني أشاركه شيئًا بمفردي، دون رهف، دون أمي، شيئًا لي ولأبي فقط.

«الغيّورة..» هو اسمي كما يسجله في هاتفه، وأستحقه بجدارة. لا زلت أذكر زميلته المتملقة، التي كانت تتعمد إطالة الحديث حين تلقي التحية عليه كل صباح في الجامعة، وكان أبي حييًّا لا يستطيع أن يحرج أحدًا، يرد بأدب ويمضي، لا يفتح حديثًا إلا في نطاق عمله.. حتى ساقني الله إليه لأرفع عنه الحرج.

أهبط من السيارة لأجدها في طريقي أغلب الوقت. أول يوم لي في

الجامعة رحبت بي وكأنني عروس اختارتها لابنها الوحيد، كان ترحيبتها وحفاوتها زائدين بشكل لا يطاق، قبلتني وعانقتني وصحبتني أغلب اليوم حيث تركت أبي. صحبتها مسلية، هي ليست ثرثارة، وليست ثقيلة عليّ كصديقة كبرى، كمدرّسة، كأيّ شيء إلا أن تكون متملقة تتقرب لشيء أو شخص يخصّني. في نهاية اليوم، جلسنا برفقة أبي في استراحته، هل تغيّرت نبرة صوتها فجأة أم أن قطط الغيرة عندي تبحث عن ذريعة لتهجم؟ تبدأ في الحديث معه، وأبدأ في الضجر. أذكر أنّها قالت لأبي من بين حديثها المبهم -بالنسبة له طبعًا-:

- إن ابنتك يا سيدي لم ترث جمالها وخلقها الطيّب من شخص بعيد، ولما قادتها دراستها الثانوية إلى هنا، فإنني لا أستعجب أيضًا جمال عقلها، والذي أعرف أنها ورثته منك بالتأكيد.

ثم استطردت ببسمة بدأت تتخذ هيئة لذجة:

- مع أنه لا يبدو عليكَ أنك أبيها، تبدو كشقيقها الأكبر.

برقت عيني بغضب، وكان أبي لم يفهم الأمر إلا أنه ثناء على تربيته وعلى أخلاقي. لكنني أنثى، وأحسّ مكر الإناث، وأفهمها جيّدًا.. الجريئة تغازل أبي، ملكيّتي أنا! لم أتمالك نفسي وسألتها:

- سيدتي، هل رأيتِ والدتي من قبل؟

- لم تسنح لي الفرصة، لكنني واثقة من أنها سيدة فاضلة، فالدكتور صالح اختياراته كلها ممتازة.

المتملقة.. ثانيةً! وأعقبت:

- لماذا تسألين؟

- أفكـر في دعوتـك لتتعـرفي عليهـا، حينهـا تريـن مـن أيـن ورثـت هـذا الجـمال الـذي تتغنـين بـه وأنـت لا تعرفـين ولم تـري سـوى أبي.

اكفهر وجهها وتلعثمت فقلت موارية هجمتي الشرسة:

- عـلى أيّ حـالٍ شـكرًا لـك، إطـراؤك في محلّـه، لم أرث هـذا الجـمال مـن وجـه بعيـد.

وأخبرت أبي في طريق العودة أن هذه السيدة لا تريحني.

- أنها زميلتي وترحب بك.

- لمَا لم تحتفل بي باقي الزميلات مثلها؟

يجيب بعدم اكتراث:

- لـكل طريقتـه في الإفصـاح، أنـت مثـلًا لسـتِ كأختـكِ ولا صديقتـك.

- معك حقك، لكنها لا تريحني.

أصمـت لدقائـق أجمـع بهـا الخيـوط المتشـابكة، أقفـز مـن جلسـتي وأخـبره بتصريـح:

- بابا.. هذه السيدة، معجبة بك.

يضحك، يضحك كثيراً، يفهم غيرتي ويقول:

- لكننـي أحـبّ ماما. وماما تحبّـك، لكـن هـذه الدكتـورة معجبـة بـك.

- وكيف فهمت هذا؟

- حاسـتي السادسـة، الإنـاث لهـن مجسّـات خفيـة كشـوارب القطـط يسـتطعن مـن خلالهـا الشـعور باقـتراب الخطـر،

ألم تفهم حين تغزلت بك وقالت أنني ورثت جمالي وأخلاقي وذكائي منك؟ إنها لم تكن تعنيني، بل تستغلني لتقول لك أنك بهيّ الطلعة ودمث الخلق ومتوقد الفكر.

وقلدت قولها بطريقة متغنجة مضحكة، واستغرق أبي في الضحك وهو يجيبني:

- ولكنكِ قطة شرسة؛ حسنًا، سأوكل لك مهمة، متى ما شعرت بخطر يدنو مني، يمكنك أن تتولي زمام المعركة بأدب وتروٍ، لكن لا تتملكك الغيرة كثيرًا، أبوك مطمع الطالبات هناك.
- بابا، هؤلاء بناتك كلهن، إن اقتربن منك فبمطمع الأبوة لأخذ نصيحة وما إلى ذلك.. لكن إن رأيتُ إحداهن تنظر لك نظرة أشك بها، حينها أفقأ عينيها.
- والله ياحبيبتي أستطيع أن أشتم رائحة مباني الجامعة التي ستحترق من هنا.

أضحك مستعيدة الذكرى، أحدثه عما تذكرت فيضحك لي. أجمل وأعظم إنجازات حياتي، حين أستطيع أن أروّح عن من أحبّ وهو مكروب. يقول أن أمي لا تغار هذه الغيرة. قلت له:

- إنها امرأة عاقلة وصامتة، لا تعترف بغيرتها، أما أنا، في هذه النقطة تحديدًا، فأستسلم لطبيعتي البربرية وأتركها تتولى الأمر.

يبتسم ويقول أنها ذات مرة صافحت ابنة عمه التي مدت يدها

لـه بـدلًا عنـه قائلـة:

- معذرة، زوجي لا يصافح الغرباء.

وأكمل:

- حينهـا غضبـت ابنـة عمـي لأننـي لم أدافـع عنهـا ولم أنكـر عـلى زوجتـي فعلتهـا، فقـط ابتسـمتُ فرحًـا وخصصـتُ لهـذا الموقـف موضعًـا مزيّنًـا لا ينـسى في ذاكـرتي، وكلـما قالـت لا أغـار لأننـي أثـق بنفـسي، أذكرهـا بهـذا الموقـف؛ تـارة تنكـر وتـارةً تبتسـم.
- أنا أثق بنفسي أيضًا، لكنني لا أستطيع إخفاء غيرتي.
- لا علاقـة لهـذه بتلـك، إنمـا هـي فطـرة في النسـاء، ألم تـري السـيدة عائشـة رضي اللـه عنهـا حـين قلبـت طعـام السـيدة صفيـة أمـام النبـي وصحبـه؟ قـد فعلـت ذلـك وهـي السـيدة عائشـة، أم المؤمنـين والمحدثـة والفقيهـة وزوج رسـول اللـه، المـبرّأة مـن فـوق سـبع سـماوات، هـل أي النسـاء بعدهـا أفضـل منهـا؟
- لا.
- جيّـد، نفهـم مـن ذلـك أن طبائـع النـاس متباينـة، وطالمـا لم ترتكبـي فعـلًا يعيبـه اللـه ورسـوله ونعيبـه نحـن، لا يهـم.. فلتغـاري مـا شـئت، لكـن مـن أنـاس يسـتحقون الغـيرة.

وقال بمكر:

- لا من زميلة عمل لا أتذكر حتى شكلها.

قلت ببراءة مصطنعة، كأنني ملاك بجناحين:

- أبي العزيز، أنا لم أغَر منها، أقصد غرت، لكن ليس لحد كبير، وجدتها تنظر لما ليس لها فأفهمتها الوضع، ولما لم تستطع حماية نفسك من دهاء النساء، أرسلني الله كهبةٍ من السماء إليك.. هذا كلّ شيء.

يضحك وننهي الحديث، يشير للكتاب، أفتحه حيث توقفنا وأبدأ بالقراءة:

- الدروس المستفادة من قصة هاجر وإسماعيل عليهما السلام: «الدرس الخامس عشر؛ إن الله إذا أعطاك فقد أعطاك ما ليس لك، وإذا حرمك فقد حرمك مما ليس لك، فإن أُعطيت فاشكر، وإن مُنعت فاصبِر..»

خرجت منه تنهيدة مرفقة بـ«سبحانك، سبحانك، ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله». تابعت:

- «سبحانه في عطائه حكمة، وفي منعه حكمة، والصبر والشكر كلاهما عبادتان قلبيتان، لا شأن للجسد فيهما..»

وعلى هدهدة هذه الكلمات، نام أبي .. طرقت أمي الباب ودخلت، وضعت يدها على كتفي علامة امتنان وحبّ؛ أمي الصامتة دومًا كهدوء العواصف غير أنها لم تعصف أبدًا، تمنت لو أرث منها هذا الطبع، وخيبت ظنها -كالخيبات الكثيرة التي قبلها- فورثت العاصفة دون هدوئها. تابعت القراءة بصمت حتى انتهيت من الدرس، وضعت الكتاب مكانه، وضعت كفَّها بين كفي أتنعم بالدفئ، أسرّب قليلًا من هتون الناضجة عني، أزيل قليلًا من «مكياج» ثباتي، وأفسح الطريق للطفل داخلي أن يئنّ. حادثتها حديث شوق طويل، كأنني لم أرها منذ

أيـام، قصصـت عليهـا كلّ شيء في يومـي الطويـل تفصيـلًا، أخبرتهـا عـن اجتماعـي برهـف وهـارون، وعـن موعـد طائـرة جهـاد الـذي تغير، وعـن التوتـر الـذي حـل بي لفكـرة أنـه لـن يـأتي وحـده، أخبرتهـا أننـي لسـت متوتـرة تجـاه جهـاد، بـل متوتـرة حيـال الفعـل الصحيـح الـذي يجـب أن أفعلـه؛ وأخبرتهـا عـن جلـوسي وحيـدةً تحـت المطـر، وعـن كنـان منـذ أن انتشـلني مـن سـحابة شرودي إلى عـودتي للغرفـة هنـا، وعـن وسـاوسي التـي داهمتنـي حتـى وصلـت الإسـعاف، حكيـت لهـا كل شيء، وكعادتهـا، اسـتمعت بصـبر.. لهـا صـبرُ زوج أيـوب حـين ابتليـت في زوجهـا، وصـبر يعقـوب الجميـل حـين تبـث الشـكوى والحـزن إلى اللـه. تُفجـع في وحيدهـا في الدنيـا فتصـبر وتحتسـب، لأنـه لا حيلـة لهـا إلّا ذلـك.

ينحنـي ظهرهـا بمـرضّ أبي فتخفـي عنّـا، تمنعنـا عنـه حتـى يسـتعيد وعيـه، تمنعنـا عنـه كي لا نـراه في حـالٍ لا تحـب أن يُـرى فيـه -رغـم أننـا أهلـه، وأننـا منـه-. لا تحـبّ إلا أن يـراه النّـاس في أحسـن صـورة، تقبـض يدهـا عـلى الجمـرة المتقـدة في قلبهـا وحدهـا، تجـزع وحدهـا، تبكيـه وحدهـا، بعيـدًا عـن الأعـين، لدقائـق قليلـة، ثـم تخـرج لنـا مواجهـة العـالم صابـرة محتسـبة، لا تشـكو هـمًّا، بثّهـا الهـمّ يكـون باتصـالٍ خفـيّ للسـماء، تصـبر لأنـه الـشيء الوحيـد الـذي تـبرع فيـه، وتؤمـن بعاقبتـه.

سـألتني كيـف أشـعر حيـال عودتـه، وهـو الـذي جاهـدت في حبـه جهـادي في التعـافي مـن غيابـه؛ قلـت سـأذهب لاسـتقباله، قطّبـت حاجبيها، فهمـت أنـه غضـبٌ ورفـض. قلـت أن أبي لم يرفـض، لم تتكلـم. لا أحتـاج رفضًـا، هـي تعـرف أننـي سـأفعل مـا في رأسي، وإن كان بـه درجـة مـن الخطـأ.. للأسـف. أحتـاج أن أعـرف ماهيـة شـعوري تجاهـه الآن، أن أثبـت

لنفسي أن الأمر سينتهي بمحض بكاء أفرغ فيه الخزان الممتلىء، بكاء أبكي فيه ما كتمته وقت غيابه، ورسالة صغيرة جدًا، أو ربما كبيرة قليلًا، المهم أن تكون كافية وافية! قلت مطمئنة:

- سيمضي، كل هذا سيمضي، أنا لا أفكر بأي شيء الآن سوى أن يكون بابا بخير، وبعد أن يكون بخير، يمكنني مواجهة العالم.
- بابا وأنا نريد أن تواجهي نفسك لا العالم.
- سأفعل، والله سأفعل، أحتاج فقط أن أثبت لنفسي أن القوة التي أمامكِ هذه ليست إدعاءً، وأنني لا أعيش بثبات زائف تجاه جهاد، هو لا يعرف أيَّ شيء مما صرتُ أنا عليه الآن، لا يعرفُ حتى هتون هذه.

وقفت أمامها وأشرت لنفسي؛ صمتت هنيهة، وقالت بهدوء مقتضب:

- كما تشائين.

احتضنتها بقوة، خلصت نفسها مني بصعوبة. مدى محبتي للناس تظهر في عناقي لهم، أو اختبائي في أحضانهم. لقد عانقت جهاد دومًا، بين قلمي وورقتي، وبين جفنيّ، وفي طيّات قلبي، لم نتعانق فعلًا، لم يمهلني فرصة عناق.. لم تمضِ أشهر على خطبتنا، وظهر لنا سفره المفاجيء، ثم.. فاجعتي أنا.. زواجه المفاجيء.. تقول رهف أنه مريض المفاجآت المكروهة، تدعو له دومًا بالشفاء. مؤخرًا بدأت أردد آمين. تركت الغرفة ورأيت شوق شاردة، تملّس على حجابها، كأنها تطمئنه، شاخصة البصر كأنها مرتعدة؛ وضعت يدي على كتفها

فانتفضت. تنهدت حين رأتني، لم تستطع إخفاء الحزن في عينيها.

- لينتهي هذا اليوم الكئيب، ونتكلم.

أومأت أن حسنًا، تركتها وذهبت بخطى مترددة نحو العناية المشددة حيث كنان، لا زال كما هو، لم يفق، دعوت أن ينهض لأجل والدته، نظرت لكل الأجهزة المتصلة به، لم أحاول أن أفهم ماذا يحدث بالداخل، ولم أقوَ على الوقوف أكثر، تركته ورحلت، جارّة الخطى خارج المبنى. أنزل السلم بهدوء واجم. أخلع الحذاء وأجلس فوق العشب. أترك قدماي تتدلان بملمسه. أرفع رأسي للسماء وأغمض عيني، يبعث لي الهواء كلماته، هذه المرّة يمرر على خاطري أبيات اللقاء الأول:

ليت هاجري، يشرح السبب عتبه رضى، ليته عتب

وخرجت مني آهةٌ مؤلمة، آهةٌ متألّمة. هل كان عليّ أن أنتبه للأبيات التي كنت أستمع إليها كرسالة من القدر أن هذا اللقاء، وهذا الحبّ.. له نهاية؟ وأي نهاية؟ أقسى نهاية.. أن يكون سببها، أنها بلاسبب. تذكرتُ الليالي والأيام التي لم أكف فيها عن إحصاء أقوالي وأفعالي، حركاتي وسكناتي، بسمتي وعبوسي؛ كنت أحصي كلّ شيء لأعرف ما الخطأ الذي ارتكبت ليرحل بلا تبرير، بلا سبب! قال هارون في آخر حديث لنا عن هذا الموضوع -أعني موضوع اختفائه المفاجيء- أن هذا ليس له علاقة بي، وأن والده اعتاد هذا منه، يترك البيت ويخاطبه بعد أيام يخبره أين هو، ويذهب ظمأ أبوته.

- تعني أنه يقتسم جزءًا من روحك، ثم يخبرك بوداعة لماذا اقتسم ما ليس له، فتضطر بأسفٍ أن تغفر له،

وتمسح على قلبه بلطف رغم أن قلبك منفطر من البكاء عليه، وتقول له لا بأس -وكل البأس في فؤادك أنت-، وتملأه بكلمات هادئة.. وأنت من أنت، وفؤادك هو فؤادك.. هل يجب أن تفعل كل هذا، فقط لأنك.. لأنّك.. تحبّه؟!

قال بحرج:

- لا أقصد هذا، يمكنُنا أن نقول أنه ملك نفسه.
- لا يقصده لكنه يحدث، أنا لست أمًا وأبًا ليفعل الخطأ ثم يأتيني بملامح بريئة مستغفرًا، إنه تزوّج، تزوج وأنا معقودة برقبته، وأنا أمانة أبي لديه، تزوج بعد أن أعلن خطبته عليّ؛ ثم إنه.. يا هارون.. ملَك قلبي أيضًا، ولو سألتني هل تحبينه رغم هذا، سأخبرك بغباء العاشقين البُلهاء الذين يتمرغون في تراب العشق أنني أحبه، ورغمًا عني أستعذب هذا العذاب، لكنني لم أعد أحبّ ذلك، لا أريده، لا أريد جهاد ولا أريد قلبي، ولأنني لن أستطيع التخلص منه، لا أريد أن يأسره أحد.. فقط لو أتحرر منه، لو ساعدتموني لأخلّص نفسي!

«لو أتحرر منه».. رنت في جمجمتي، سببت لي الصداع، وسألت نفسي لِمَا لم أتحرر منه للآن؟ لما لم أفكّر في أن أحرر نفسي من هذه الخطبة وبعدها يأتي أمر قلبي؟ تذكرت قصة عصفور الزينةِ لما ماتت زوجته، رأى صاحبه ألا جدوى من عيشه وحيدًا، وأن هذا سيعذبه، ففتح له القفص ليطير، لم يخرج، نزع صاحبه أجزاءً من القفص ليرى

المخرج ويطير.. ولم يفعل! ظلّ متشبثًا بمخالبه في القفص، مرتعدًا من نسمات الحرّية، خائفًا من أن يستخدم جناحيه؛ اعتاد الأسر وألفه، صنع لنفسِه عالمًا هناك، دون أن يخطر له أن جناحيه خُلقا للطيران.. إلى أن أخرجه صاحبه من القفص، ووضعه على سور الشرفة، وبعد فترة طويلة بدأ في الطيران.

وتساءلت عما إذا كانت لحظة التحرر تلك تُنسي ما قبلها أو تخفف حدته، عما إذا كان الآتي المجهول يستحق أن أترك ما أضمن عاقبته لأجله، أو أن ندبات الخدوش موضع الشظايا ستختفي، أو أن العناء القادم حتى، سيكون أخفّ من هذا العناء؟ هل يعرف الجلاد أنه بكلّ سوط يضربه، ينتزع جزءًا من الألم المكتوم بقدر ما يؤلم الجسد لوقتٍ قليل؟ هل يعرف أنه ربما يكون قدم مساعدةً أكثر من كونه وسيلة عقاب؟ هل يمكن للمرء -أيًا كان- أن يمتن لمن عذّبه وحرمَه كونه إنسانًا طبيعيًا؟ هل يمكن للغياب أن يقسو قسوة الجلّاد؟ كأنّه يقوّي شكيمة الإنسان ببطء، يُنضِجُهُ على مهل، وما بُني بتأنٍ يُهدم بمشقة. ومن ثمّ.. هل يعرفُ جهاد الكارثة التي أحالني لها؟ هل يعرفُ أنني الآن ناضجة عن ذي قبل؟ لو يعرف كارثة كوني نضجت.. قال ذات مرّة:

- مؤسفٌ أن يصاب مثلك بالنضج.

أستطيع أن أقول له الآن أنه مؤلم، مؤلم جدًا أكثر من كونه مؤسفًا.. أن يصبح المرء ناضجًا، أن يعي أن الدنيا عالم كبير، أكبر من أن تضمه لأحزانها عائلته، أكبر من تمنحك الهدوء الذي هو كل مرادك. أشعر أنني، حين أفكر في مخرج من جهاد، يأتيني منه ما

يثبت أنني حبيسته، إلى الأبد. تجاهلت شعوري، ومضيت مستغرقة في التفكير حتى أعلن هاتفي وصول رسالة، لم أنتبه، أعقبتها أخرى، وأخرى، وأخرى. أفتحها. لقد كان هو، ألم أقل أنني حبيسته؟ هل يهم أن أعرف ما تحويه؟ أم أحذفها وأنتهي؟ أريد أن ألقي بالهاتف بعيدًا. لكن إصبعي الخائن ضغط على أيقونة اسمه، وظهر مضمونها. وعيني الخائنة نظرت لحروفه، وقرأتها بكسرة. وما هذه؟ دموع؟ سامحك الله ياجهاد!

*«اشتقت إليك، وأعرف أن الأمر أكبر من الشّوق. أفتقدك جدًا. أنا مبتور القلب هنا. وأعرف أنني من أمسك النصل. هل شاهدت إنسانًا قد بتر قلبه بيده بإرادته الحرّة؟ لن أكذب.. سأعترف لكِ، لم أتغير كثيرًا، لكن لحظة الصراحة هذه لن أعرف متى ستواتيني مرة أخرى لأخبركِ كم أفتقدكِ. أوحشتِ قلبي. أو كما تحبين لفظتها، أوحَشتِنِي جدًا. أصابعي تتحسس تفاصيل الصورة على مكتبي. الصورة التي التقطها لنا هارون، والتي تحبين الدفء فيها. الصورة التي أرسلتها إليّ.. لتذكريني أن هذا ليس أنا، وأن مكاني بينك وبين أبيكِ. تستقر أناملي عند وجهك الصغير تتلمس دفء الأُنس، أمرر إبهامي على خصلة بنية هاربة من حجابك. وكلما أمسكت الإطار لأروي ظمئي إليكِ، أقلبه لأبحث عن شيء خبأته في طياته بحيلة طفلة. لا زالت الورقة مطوية طيّتها الأولى ياهتون. إنها وِرد شوقٍ ليليّ، أبحث عنك في أحرف الرسالة حتى أجدك. أشتم عطركِ الهادئ، أتخيل أناملك ممسكة القلم، أفرغ حنيني إليك وأقرؤها للمرة التي لا أذكر عددها دون ملل..تذكرين ما كتبت؟».*

تسيل دموعي بغزارة. أشعر بوخزات في قلبي. أريد من ينقذني من هذه الكلمات.. كيف أنسى ياجهاد؟ كيف أنسى؟ أحس أنني كتبت لك هذه الرسالة بدمعي لا بحبر. السؤال هو؛ هل شعرت أنت بغربتي بين أهلي حين اغتربت أنت؟ هل تشعر أنت ما كتبت؟ هل تذكر أنت ما كتبت؟ كتبت إليك كثيراً: «إلى اللاأحد الذي صار آحادًا هبط من ثقب مجازاتي للواقع».

وجودك يصير ثقيلًا، ثقيلٌ لكني أحبّه..وأحبّك؛ وأنت تعلم، ومأساتي أنك تعلم! أنت تبعثرني، تفتت أضلعي، تضرب بكلّ أخضر في صحراء؛ صحراءُ تزرع لك فيها نبتة صبار ختمت باسمك.. لتكون بذرتها أنت، وريّها أنت وتربتها أنت. عضلات نابضي تتراخى، لم أخل أن حبّك كثيرٌ عليّ إلى هذا الحد. أعتقد ياعزيزي أنك تفيض من مسام جلدي فيشعر الناس بك حولي، ومن بؤبؤ عينيّ حين يترغرغ بهما الدمع فيراك الناسُ في مقلتي واضحًا، بلا إبهام.

إلى كل الآحاد -لا الواحد- الذي هبط واقعًا أليمًا مبكيًا، إلى الذي جعل مني كتلة صراخ مكتومة، قنبلة صراخ موقوتة، ضرب الزمن موجب سلواني بطيفك في الفجوة التي تبتلعُ كُلّ ما يُدني أحدنا من الآخر؛ فابتلعت الفجوة كل الموجودات، حتى بقينا على طرَفَي الدُنيا.

لا الأرض تنطوي، ولا الزمن يرقّ، والقدر يأبى لنا جمعًا، والمضغة تعصر في صمت، والجنازات تقام داخلي في سكينة كسكينة الموتى. لا يُسمَعُ إلا نشيج خلاياي كالأطفال العطشى، الذين يحتضنهم النوم كل ليلة، علّهم ينسون حاجتهم للماء، وأنت ريِّي، وأنا الطفل العطِش. أكتب لك وأنا في اليوم الأول لإدراكي أنك حقًا تركتني ورحلت. فلأتدارك

نفسي، وأبدأ الكتابة من جديد: «صباح الخير في اليوم الأول مذ قررت أن أترك أوهامًا تحمل اسمك، الصباح الأول الذي أواجه به العالم بعد أن رحلت يا جهاد، أنت تعرفُ أنك أظلمت شيئًا في عيني، تعرف أنك منذ تركت لي خاتمك وأنت قد أصبت عيني بضبابية الرؤية. ظلمتني، وظلمت نفسك. هل سوّلت لك نفسُك أن الوحدة أفضل من البقاء جوار من يحبك؟ إن كنت فعلت فأخبرني، هل أهداك طموحك الجموح بسمتي، وقلقي، ودمعتي خوفًا عليك، شوقًا إليك، حبًّا فيك؟ هل أهدتك الغربة نظرتي المترقبة إيابك من الشرفة كل ليلة؟ قلت لهم اليوم أنك قد رحلت، أخبرت بابا أنني مقتنعة، وكلانا -أنا وأنت- يعرف أنني أكذب. هل أؤمن بشيء أكتب عكسه الآن؟ المهم أنني سأحاول أن أنسى.. لا تجعلني أنساك، لا تجعلني أحاول أن أنساك. جهاد، طريق الجامعة طويل جدًا، هل كنت تعرف هذا؟ كنت أظنه قصيرًا دومًا، ويمضي بسرعة، ثم اتضح لي أنه كان يمضي بسرعة لأنك معي، في خيالي، في قلبي، بين ثنايا عقلي. أراك حولي، وعن جانبيّ، أتخيّلك طوال الطريق. أما الآن أنا مستوحشة، لا أقول أحتاجك، أنا أحتاج أن أمرّ بهذا بمفردي. أحتاج ألّا أفكر بك، ألا أتخيّلك. جهاد، الطريق طويلة جدًا، كأنها لا تنتهي، كأنك كنت طريقي؛ هل عليّ أن أحيد عنك الآن؟ أحاول أن أجعل المسافة تسليني عنك الآن؛ هذه السماء الرائعة، هذا البحر الجميل، سرب الطير الذي وددت لو يحمل قلبي هذا ويلقيه بعيدًا.. ويأتوني بقلب جديد. وددت كثيرًا لو كنت طيرًا، لطرت إليك، لنهرتك عن أن تبتعد عني. تعرف؟ مأساتُك أنك تتعذب مثلي، لكن بصمت. ويتعذب قلبك أكثر مني

لأنك من اخترت. لن تعترف، ستقول هذا عملي، أنجو بعملي من كل شيء ماعداه. هل تنام بين أحضان كتبك؟ قل لي يا جهاد صدقًا، كيف حالك؟ يصيب جسدي الحمّى أنينًا وخوفًا من ألّا تحن ليّ، من ألا تشتاق كما أشتاق. يحاولون منحي السلام والهدوء وأنا لا سلام لي إلا وجهك، ولا هدوء لي إلا بيدي بين يديك. يعزونني فيك كثيرًا وإن لم يقولوها بأفواههم، تقولها أعينهم، وتربيتات أكتفاهم، وأنا أريد أن أخبرهم وأختم لك حديثي الحزين بقول إيليا أبو ماضي: «كل ما في الأرضِ من فلسفة لا يعزِّي فاقدًا عمّن فقد». ولتعلم أن لا عزاء لي إلا برؤيتك، عُد إليّ، وأعدني إليك»..

فريدتُك

كما كنتُ لك.

***

أضغط على قلبي بيدي. إنه يؤلمني. وأنا وحدي، وحدي تمامًا. أريد أن أصرخ. أن أتقيّأ قلبي ليكف هذا الألم. أضم ساقيّ إليّ وأغمس وجهي بينهما، وأبكي.. كأنني لم أذرف دمعةً من قبل. يهتز جسدي كأنني بركان أوشك على الانفجار، ولامسَت فوهته عصفورة. قاتل الله الفراق، والحب الذي يكوي أصحابه. أحاول أن أهدأ. لا زال هناك حديث لم أقرأه، أريد أن أقرأه، لن أترك هذا الأمر في منتصفه، لن أكون مثله. أترك الأشياء متورطةً فيّ وأرحل. سأقرأ رسائله الإلكترونية الباردة كلها.

أفتح الرسالة، أتابع بألم: *«إنني أنهي رسالتك كل مرّة كأنها المرة الأولى التي أقرأها فيها. أطويها، وأعيدها سيرتها الأولى في زاويتها*

*خلف الإطار، كما وضعتها صاحبتها. تتراكم فوق كتفي أحاسيس الذنب والندم والاشتياق يا ماسة. إن مغترب القلب قد فاض إناء وجده يا ماسَة، اعتدت الغربة، غربة الوطن. تعرفين أنني لا أهتم أبدًا بمسميات الأرض، حيثما استطاع الإنسان أن يعيش، فليعش. لكن أنتِ، أنتِ وطن من نوعٍ آخر. بعدك عني جريمة تشاركنا فيها، قدمنا القرابين سويًا ورضيتِ أنت؛ وقلتِ أن هذا هو القدر. أما أنا، فلم أرضَ، غادرت منساقًا خلف ما أريد، ولن أرضَى.. فإن زرع حبّك فيّ شيئًا واحدًا، فهو ألّا أفلت يدك، أبدًا.. قريبًا جدًا، أعود لوطني. وطني ذو العينين النجلاوين، وقلبٍ مشقوق يتّمه قلبي. قريبًا جدًا أعود لوطني الصغير، أعود إليك، راجيًا ألا تلفظيني منك. أريد أن أهنأ باحتضان كفّك لي، وأن يطلق قلبي تنهيدة راحة حين يراك. أعرف أنني حين أكون معك، أشعر أنني أنا، لا أجد بدًا من تجميل الكلمات، وادّعاءاتٍ ليست فيّ، لا أكون مجبرًا لأجذب انتباهها لي، أو أن أقوم بشيء ما لأتميز به. حين أكون معكِ، لا أكون مجبرًا لفعل أي شيء.. سوى أن أكون أنا. تصبحين على خير».*

**أين دمعي؟ لماذا جفّ فجأةً؟ أريد أن أبكي. أن أخرجه مني بالبكاء. لماذا لا أبكي؟ حتى نفسي تعاندني، لا تريدين أن تنسَي يا هتون؟ لا تريدين؟ جيد، سأعلمك أنت وهو كيف تخرجينه منك.**

**بقي يوم، وتأتيني ياجهاد. أؤدي تجاهك واجبي كاملًا، أنفضُ عن كتفيك غبار الغربة، أروي عينيك مني، أكتب لك ما أردت قوله كلّه، لن أنغصّ عليك سعادتك بالعودة، أما هكذا تفعل العاشقات والأمهات؟ لن أخسر شيئًا بأن أؤدي دوري للمرة الأخيرة ،كي لا يمسّني**

النـدم، لسـت مسـتعدة لتـذوّق شـعور سيء جديـد، وبسـببك. الجـدار الـذي بـدأ يَبـينُ بينـي وبينـك، جـدار مـن نـار، وأنـت تخـشى الاحـتراق، وأنـا أصبحـتُ أخـشى الاقـتراب. بقـي يـوم، وتـرى أنـت كيـف أصبحـتُ حـين تركـت لي خاتمـك، وأرى أنـا كـم أصمـد أمـام قلبـي. هـذه المـرّة أتمنـى ألّا أهـزم أمـام نفـسي، ألّا أنسـاق وراء حبـي للقيـود، أن أغفـر لنفـسي ذلتهـا، وألتقطهـا مـن هنـاك. هنـاك، حيـثُ تـرى أن الحيـاة قيـد، وأن متعـة القيـد خـير مـن الخطـوة المحتملـة. هنـاك، حيـث تـرى أن هـذا طبيعـي وأن كل النـاس مثلهـا، وأن سـير الحـزن في الـدم طبيعـة.

هناك..

حيـثُ تظـنّ أن لا خـلاص مـن قلبهـا. هـذه المـرّة أتمنـى ألا أنتظـر، أتمنـى أن أنجـو، وأن أخـذل قلبي.

## (٨)

أمسك كفه بين يديّ. يجب أن أسأل، لا بد أن أعرف.

- بابا.. أريد أن أسألك شيئًا.
- سليني قلبي، أهبك إياه.
- جُعلت فداء عينيك يا أبي.

مسح على رأسي، ثم قال أن أسأل ما أريد، ضممته بلطف، وقلت بينما يمسد على شعري:

- أريد أن أعرف.. ماذا حصل، ليلة الحادث.

توقفت حركة يده. زدت من ضمتي له.

- بابا، أنا حقًا أريد أن أعرف كل شيء. هذا حقي عليك.

قال بصوت أجش:

- ستتعبين لأبيكِ كثيرًا.
- أنت لا تعرف ما خلّفت فيّ هذه الأيام دونك، وماذا علّمتني. لقد تعلمت أنني مهما لاقيت وأنت جواري فهذا لا شيء. فكم مرّة قلت أنا متعبة، وحملت عني التعب. كم مرة بكيت أنا وحزنت أنت. كم مرة قلت أنني لست بخير، ورأيت الهمّ في عينيك أنت يا أبي.

أنظر لعينيه، أعيد كلامي:

- أليس من حقك عليّ يا أبي، أن أحمل عنك الألم مرّة؟ مرّة واحدة فقط؟

- ستكون بكل مرّات ألمك يا بابا، لأنك جبل، والجبل لا تؤثر به السهام، والجبل حين يبكي يحدث زلزالًا. ألقِ إليّ حجرًا واحدًا من هذا الجبل.

عاد يمسح على رأسي وبدأ يحكي:

- بدأ الأمر فجرًا، كانت أحد أوقاتي الصعبة، كنت أجاهد ألا تتغلب آلامي عليّ. صليت الفجر، وما إن خرجت من باب المسجد، حتى داهمت انقباضة قويّة قلبي، وأصبت بالذعر، بدأت أنظر للناس حولي خائفًا، أشكك في كل شخص أمامي، أعرفه أو لا أعرفه.

- كانت بداية نوبة المرض؟

همهم أن أجل، وتابع:

*«طفقت أنظر حولي، حتى وجدته.. واقفًا ينتظرني، كما كان يفعل دومًا، كلما تقدمت تقدم وهو ينظرُ إليّ؛ لا يتركني حين أتعب، منذ سنوات وهو يرافقني، اعتدت وجوده، اعتدت حتى أنني وحدي الذي أراه، عددته رفيقي الخاص، رفيقي السريّ، ولم يخذلني. نظر إليّ نظرة مبهمة، شعرت بعدها أن خطواتي تتباطئ رغمًا عني، أستند لجدار فيقترب، يقول ما بك؟ أقول لا أقدر. يحثني أن أقف ولا أقدر، يتثاقل نفَسي، يحثني أن أنهض ولا أقدر، أجلسُ منهكًا، يعلُو صوتُه في أذني، يجبُ أن أكملَ سيري، لا أستطيع.. يصيبه الحزن، يجلس جواري، يقول انهض، بقي القليل، ستصل، ستقف. لا أستطيع التكلم. يعلو صوته، ويبدأ بإحباطي، لا أستطيع أن أتحمل صوته. أغمض عيني بقوة، أضع يدي على أذني، محاولًا تخفيف حدته، لا أفلح، كأنه اخترق*

أذني، نفسي يتباطأ، جسدي كأنه يرتج، لا أشعرُ أنني على الأرض، كأنني على مقعد وثير لا أستند لصخرة، أرى أناسًا كثيرة تنظر إليّ وتضحك، علام يتجمهرون؟ يقف أمامهم صديقي هذا. يتناهى لمسمعي صوتٌ أعرفه، يقترب ويمسكني من ذراعي، أفتح عيني، أجد أحد المصلّين الذين أعرفهم، أنتفض واقفًا، أبتعد عنه، لا أعرف ماذا يريد هذا مني، لماذا ينظر إليّ وكأنني فريسة؟ هل يضمر لي شيئًا سيئًا؟هل سيقتلني ويحرمني من زوجي وبناتي؟ بناتي.. كيف سيعيشون بلا والدهم؟ وزوجتي.. زوجتي! يا الله إنها تنتظرني، أعنّي أن أعود سالمًا. أتذكر نصيحة أمكِ لي، أخذت نفسًا طويلًا، وأخرجته ببط، أحاول أن أزيح أي فكرة سيئة لأقف على قدمي، لا أستطيع، كأنها جاثوم.

- سيدي، تبدو متعبًا، دعني أوصلك للمنزل.

وصلني صوت هذا الفتى الذي صلى معي، قويًا ضخمًا، كأنما خرج من فوهة بئر.. بالمناسبة ياماسّة، هذا لم يكن صوته.

- أعرف ياحبيب ماسة، أعرف..

لقد حررت ذراعي وقلت باقتضاب له أنني بخير. واستندت للحائط، نهضت بصعوبة، لن أمنحه فرصة ليستغلها ويؤذيني. ظللت أكرر لنفسي» أنا بخير، أنا بخير». حتى أتاني صديقي مجددًا. سرنا سويًا يتبعنا هذا الثالث وأحاول تجاهله، ألا أعيره انتباهًا؛ سألت مرافقي أين كان، لم يجب. احترمت صمته، ربما لا يريد التحدث وهذا المتطفل يتبعنا، ربما يخشى عليّ من أن يتهمني بأنني أحادث نفسي وأنه لا يراه هو أيضًا. قالت زوجتي أنه لا بأس من أن يكون لي رفيق سريّ وخاص، لكن يجب أن نعرف به جميعًا، لا نراه لكن على

الأقل نعرف اسمه. يا الله، زوجتي، ستموت من الانتظار قلقًا.. قال مرافقي:

- لا تقلق، لا يزعجها تأخرك.

لم أتعجب إفشاءه لما يجول بخاطري، هذا هو، هكذا يفعل حين يزورني. قلت:

- إنّك مريح، قد ألفتُك، ولا أعرف لم يضايقهم وجودك.

- من المفترض أن يريحهم ما يريحك.

- معك حق، لكن.. يقولون أنه يجب ألا تكون موجودًا.

كأن أصابه الغضب قليلًا:

- أنت تعرف، لأن العقار الذي تتناوله يساعد في محوي من ذاكرتك.

- يجب أن أتناوله لأكون بخير.

- لكنك لا تكون بخير إلا حين أكونُ موجودًا، هم لا يريدون أن تكون مرتاحًا.. لا يسعون إلا لإبعادي.

- إنك مريبٌ في الوقت نفسه.

قال بغضب:

- ألا ترى أنك تتساءل حولي كثيرًا؟

وقضب حاجبيه، وتبدلت نظرته:

- هل تقصد أنك لا تعرفني؟

ابتلعت ريقي وقلت:

- بدأت أشكك في كونك، لا أعرف أأنت إنسيّ أم جان أم حتى وهم أستحضره أنا في خيالي؟ أنت تحول بين أن

*تكـون هـؤلاء جميعًـا، تظهـر في أوقـات مختلفـة ومتباعـدة، لا يـراك غـيري، ولا يتحـدث معـك غـيري، لا تقـترب منـي ولا أسـتطيع أن ألمسـك، وتحـزن زوجتـي وبنـاتي إن رأوني أحادثك.. مـن أنـت؟*

- *هل تسألني؟*

*غضـب وأكمـل طريقـه جـواري صامتًـا، صمتـه مخيـف. عـدت للبيـت متحامـلًا عـلى همّـي، وكانـت تنتظـرني عنـد البـاب ككل يـوم. تعرفنـي أمـك مـن عينـي، وقـد عرفـت أننـي تعِـب..».*

**قلتُ:**

- **تقول أنك تنسى كل شيء إلا المسجد يا أبي.**
- **الحمـد للـه، أننـي في أيـام اللاوعـي هـذه لا تفوتنـي الصـلاة، الحمـد للـه أننـي لا أنـسى.**
- **ثم؟**

**تابع:**

*«ثـم.. تعكـزت عـلى أمـك كـما دائمًـا يـا ابنتـي. رغـم ضعفهـا، لا أسـتطيع أن أتعكـز إلا عليهـا. ولا تسـتطيع إلا أن تسـندني بحـب. تناولـت أقـراصي، وخلـدت للنـوم. واسـتيقظت فزعًـا، كأننـي صعقـت بكهربـاء، ثـم بـدأ الهـواء يُسـحب مـن رئتـيّ، قلبـي يقفـز مـن بـين ضلوعـي هلعًـا. كان هـذا الـشيء هـذا الـشيء يجثـم عـلى صـدري، يحـاول خنقـي، كان غاضبًـا، قاومتـه بصعوبـة، صرخـت وأزحتـه بقـوةٍ فارتمـى جـواري. كان يحمـل سـكينًا، تراجعـت خطـواتي، وكان يتقـدّم، مكثـت أتراجـع، وكل مـا حـولي يتـلاشى، أسـأله مـا حـلّ بـه، ولا يجيـب. كلـما اقـترب، تغـيّرت معـالم*

*الغرفة من حولي. أدخل الشرفة وأغلق الباب، يعبر من خلف الباب ويأتيني، أسمع أناسًا بالأسفل ينادونني، هم نفسهم الذين رأيتهم فجرًا، يقولون أنت بأمان، يقولون لا تخف، تعال إلينا.*

*أنظر للأسفل، أجد سحابة كثيفة بينهم، أم أنها مرتبة وثيرة، أتردد، أنادي زوجتي، لا يخرج صوتي، أتوسل لله من قلبي أن ينقذني من هذا الغريب، الآن فقط أدركت كم هو غريب. يتعالى صراخ أناس آخرين يقولون توقف، فأخاف أكثر. ثم وجدت يدًا تمتد إليّ، كأن ملاكًا سينقذني. أسمع صوتك وأنت تناديني بصوت صارخ، كأنك رأيتِ كابوسًا: «بابا..»، حدثتك ولكن صوتي لم يخرج، إلى أين يذهب بابا يا ابنتي؟ أسمعك تصرخين مجددًا: «بابا..لا تفعل». لا أفعل ماذا؟ ينبح صوتك وتصرخين ثالثًا: «بابا.. أنت بخير، لا تتحرك، لا أحد يؤذيك». من الذي سيؤذيني غير هذا الذي أمامي؟ هل هناك آخرون؟ أغمض عيني وأمد يدي لليد المُطمئِنة وأستسلم بسكينة. هل الآن أموت؟ هل الموت مريح هكذا؟ شعرت بك، وخاطبتك ولم يصلك صوتي مجددًا».*

- **ماذا قلت؟**

- **قلت لك: لا تحزني، والدك الآن يتخلص من كلّ خوفه، من كل ما أرّقه وأتعبكم، لا تحزني عليه أبدًا، سيرتاح الآن. الآن بابا بأمان يا صغيرة، الآن يأمن بابا.. بعيدًا عن هذا الذي يتربص له في كل جيئة وذهاب، بعيدًا عن سهركم جواره طيلة الليل، وأرقكم المتواصل وبكائكم المكتوم، بعيدًا عن الثقل الذي وضعته على أكتافكم رغمًا عني.. الآن يأمن**

بابـا يـا ماسّـة. ثـم نطقـت الشـهادتين بقلبـي، واسـتودعت اللـه أهـلي، وتركـت نفـسي...

قلت له بغتة:

- هل ليتلقفها الملاك؟

أومأ أن نعم. عانقته أنا، مسحت على رأسه أنا، قبّلت رأسه أنا.

- لم أعرف أن المرض النفسي مخيف لهذه الدرجة.
- إن فكرة سيئةً واحدة تلتبسك، أسوأ أنواع العذاب.
- آسـفة يابابـا، آسـفة كثـيراً لأننـي ظننـت في أحـد الأوقـات أنـك لا تريـد أن تـراني أنـا واختـي. آسـفة كثـيراً لأننـي ظننـت بـك سـوءًا.
- ماسة..
- ماسّة فداءٌ لك يا أبي.
- تذكرين يوم أخبرتك أمك عن حقيقة بُنوّتك؟
- لم تعيد هذا الأمر الآن؟
- أريـد إخبـارك فقـط، لم يصلنـي أي رسـالة مـن أحـد، كانـت إحـدى الأفـكار التـي تحـاصرني. كنـت أفكـر فقـط في مـاذا لـو مـتّ ولم تعـرفي الحقيقـة، ثـم اسـتولت عـليّ الفكـرة، و..حـدث مـا حـدث.
- لا يهم، المهم أننا معًا الآن.
- تعرفين حين دخلت في غيبوبتي تلك.. مرّوا عليّ خفافًا.
- خفافًـا؟ لقـد كانـوا عـشرة أشـهر، عـشرة أشـهر وأنـت بعيـد عنـا يـا رجـل! لقـد أراد الطبيـب أحمـد أن يفصـل الأجهـزة لأن

جسدك لا يستجيب.

ابتسم. لأبي بسمات خمس؛ حين يرى أمّي، وحين يجلس معي ومع أختي، وحين يتم الله شفاء مريض على يديه، وحين يبتليه الله بلاءً شديدًا، والأخيرة بسمة الرّضا حين يشمله لطف الله بعد البلاء الشديد. أما عن هذه، فقد شملتهم جميعا.

- تعرفين كيف بدأت أشعر؟
- كيف؟
- سمعت بكاء رهف.

جلست منتبهة، كنت أضحك فرِحة.

- ماذا حدث؟ احكِ لي!
- حكاية طويلة..

وضعت رأسي على صدره، أمسكت يده، وضعتها فوق شعري، وقلت:

- ماسة الآن تحتاج قصة قبل النوم.

ضحك ضحكته الوقورة، فنسيت كل ما يمكن أن يحزنني؛ نسيت جهاد الذي سيقلب داخلي رأسًا على عقب، كنان المسجى في العناية المشددة، رهف، شوق ويقين، نسيت كل شيء.. إلا دلال أبي باسم «ماسّة»، وجدائل ماسة ذات الأعوام السبع. وبدأ يروي الحكاية..

«شعرت أن روحي حبيسة جماد أصمّ، كأنني في عالم غير العالم، لا أرى شيئًا، أشعر ببرودة طفيفة، أين أنا؟ هل تصعد روحي الآن؟ هل انتهى الأمر هنا؟ سأمضي الباقي من الدنيا في انتظار القيامة وحيدًا هكذا؟ ثم بدأت أقول: «أوحش قلبي بناتي، أريدهن حولي. أريد

ماسة، كيف تترك أبيها وحيدًا، مستوحشًا بهذه الطريقة المرعبة؟». لم أستطيع أن ألمس شيئًا، ولا أرى شيئًا. أريد الاقتراب من أيّ شيء، أريد أن أسمع أي كلمة، أن أرى أي أحد، أن يقوم جسدي بأي وظيفةٍ غير احتوائه روحًا، أشعر بأنني منبوذ من كل المخلوقات. كان الأمر أشبه بعقاب السامريّ حين اتخذ من حليّ قوم موسى عجلًا له خوار. ما أقسى العقاب الذي لاقاه السامريّ يا ماسة!

ولبثت ساكنًا، أذكر الله وأقول: «يا الله، الحمد لله أنك أنعمت عليّ بعمر طويل في نعمك التي لا أستطيع أن أنال منها شيئًا الآن؛ الحمد لله أن أنعمت عليّ بالحرمان لأتذوق طعم هباتك بشكل مختلف، ولو لم تعدها إليّ، ولو انتهى أجلي هنا. الحمد لله أن أريتني الذرية الصالحة في بناتي، لم يقصّرا في برّهما بي. لكنني عبدك الطامع في ركعتين أتزود بهما في هذه الحياة الساكنة، وفي عناق لابنتيه، في أن يلمس وجههما مرّة أخرى أخيرةً يا ربّ».

ثم مضى وقت لا أقدر أن أحسبه، لا أعرف إن كان هذا العالم يسير بوقت مماثل لعالم البشر، لكنني سمعت صوتكِ الباكي وأنتِ طفلة تقولين «بابا، لا تتركني وحدي.. لا أسامحك إن فعلت». شعرت أنني سأبكي، هل عيناي تبكيان هنا أم أنه فقط شعور؟! أردت أن أرفع يدي لأمسح دمع طفلتي، بابا هنا، بابا لن يتركك، يتذكرك ولو كان في عالمٍ آخر، ويحبك كثيرًا.

وسمعت صوت رهف مرّة أخرى يهتف: «بابا؟ بابا؟.. هارون، هارون استيقظ.. بابا يشعر بي، يسمعني، لقد تحرك طرف إصبعه، عيناه تدمعان.. أقسم لك». أسمع صراخها، سُرّ به قلبي، كأنه صراخ

ولادة عاقر بُشّرت برضيع. أجل، بابا يشعر بكِ يا رهف، بابا يسمعك وإن لم يكن معك، بابا يريد أن يلمسك مرة واحدة ثم يذهب مجددًا. ثم أسمع صوت باب يفتح بقوة، ورهف تهتف لك: «ماسة، أبي.. أبي..». لماذا تبكين يارهف؟ تعالي لأضمك وأخبرك أن دمعاتك أقسى ما يمكن أن أرى، تعالي أضمك وأخبرك أن دمعاتك أغلى على قلبي من لؤلؤات الدنيا..

- بابا.. حبيبي يابابا، أرجوك لا تتركني، بابا.. لا أسامحك، أقسم أنني لا أسامحك.. أنت قد حركت إصبعك، رأتك رهف، قلبي.. لا يحتمل أن يفقدك مرّتين!

حينها بدأت أشعر بقطراتك الساخنة تهطل في توالٍ، هذا دمعك يا ماسّة، سألت نفسي ماذا تفعل ماسة أيضًا هنا في هذا العالم الذي حُشِرت فيه أنا وصوت أختك؟

- أبي، أنت تسمعني، أعرف.. نحن في المشفى، افتح عينيك أرجوك، لأجلي!

في المشفى؟ يا الله ياعظيم النعم، يا واهب الحيوات، يا مغيث الضعيف، يا جبار القلوب. أخذت أبكي حبًا في الله، ورغبةً للقائه، كأن هذه الفرصة التي منحنيها ما زادتني إلا شوقًا إليه. الأصوات حولي تتداخل، هذا صوت أحمد، سليم ماذا يفعل هنا؟ هل أمضيت الكثير من الوقت راقدًا؟ وفجأة شعرت بصداع قوي، عيني تؤلمني، أرى كرة حمراء من بعيد، تقترب قليلًا، يبهت الأحمر، ويبهت.. ويبهت.. الرؤية ضبابية، كل ما أراه أبيض. يتقلص الأبيض، تحيطه دوائر رفيعة كمدارات الكواكب. أغلق عيني بقوة ثم أفتحها، هذا السقف، هذه

الرائحة.. الحمد لله، الحمد لله..

توالى الحمد، سجد هارون وسليم شكرًا، رأيتك عن يميني، رهف وهارون يحيط كتفها، عن يساري سليم أخي، ورفيق عمري. ثم من بين دموع الجميع بحثت عنها، أين هي؟

- ر.. رحمة.

ناديتها ثم سمعتك تضحكين من بين بكائك، بينما رهف تمسك يدي. أحرك سبابتي في يدها لتطمئن، تقبل باطن كفي قبلات متعددة، وتهمس بالحمد كثيرًا. أتساءل ثانيةً:

- رحمة..

- في المنزل، تعد ثيابك كما تفعل كل يوم، كانت توقن أنك ستنهض لأجل خاطرها، تقول أنك لن تكسر ظهرها برحيلك. مضى وقت طويل يا أبي، هذا العالم قاسٍ جدًا بدونك!

أبعدكم أحمد، قام بإجراءاتٍ ليتأكد من أنني أستطيع الحراك. قدمي اليمنى معلقة في الهواء. لم أهتم طالما أستطيع أن أضم بناتي بكلتا ذراعاي، الصداع لا ينفك من رأسي. لم أهتم طالما رحمة ستأتي، ستمسح على رأسي، وتدلكها ليهدأ. أشعر بوخزات في بطني، وأحمد الله الذي جعلني أشعر بكل شيء. هناك دائمًا فرصةٌ أخرى يمنحها الرَّب العظيم لنا يا ابنتي، لقد زاد يقيني بعد هذه التجربة بأن الله لا يكتب أجل الإنسان إلا وقد منحه فرصًا للتوبة، والقرب منه بقدر مرات ذنبه -على الأقل-.

ثم شعرت بحاجتي للنوم، حاولت أن أقاوم، أرى يد الممرضة،

أعـرف هـذا الـدواء، الحمـد للـه أنـه لم يحرمنـي ذاكـرتي. وقبـل أن أغفـو -مرغـمًا-، فُتِـح البـاب، ومـن بـين جفنـي الثقيلـين رأيتهـا تدخـل.. رحمـة، تحمـل حقيبـة في يدهـا، بهيئتهـا الهادئـة دومًـا، كـما كانـت، ثابتـة كالجبـال الـرواسي، تواجـه بصبرهـا النوائـب، ولا تتقلـب بتقلـب الدهـر. وقتهـا شـعرت أننـي بخـير. وقلـت لنفـسي: أتـت رحمـة يـا صالـح، أنـت الآن قـد ذقـت كل نعيـم الدنيـا في دقائـق معـدودة، سـتنام الآن، وحـين تصحـو.. لن يهمـك شيء سـوى أن تمـلي عينيـك منهـا، ولـن تبـالي بمـا ألمّ بـك، لا بمـرض جسـدك، ولا مرضـك النفـسي، ولا بمشـفاك هـذه. أنـت تـدرك في قـرارة نفسـك أن رحمـة والملاكـين الصغيريـن لـن يـتركاك. أنـت لـن تبـالي بالدنيـا ومـا فيهـا، لـن تبـالي بمـا فاتـك، لأنـك تؤمـن بـأن الخسـارة الحـقّ هـي خسـارة الأحِبّـة. أنـت لم تخـسر شـيئا، أحبابـك كلهـم حولـك.. مـاذا تريـد أيضًـا؟ لا شيء أبـدًا سـوى أن تسـجد للـه شـاكرًا. سـيهتم الأطباءبعلاجـك، وتعتنـي بهيئتـك رحمـة، ويمـلأ فـراغ وقتـك بناتـك، ويديـر المشـفى سـليم، وأنـت سـتكون المدلـل هنـا. الآن تنـام قريـر العـين، وتحلـم بـكل مـا هـو آتٍ».

***

انتهـى أبي وهـو لا يـزال يمسـح عـلى شـعري، قلـت وأنـا بـين النـوم والصحـو:

- ونمت قرير العين؟

- وحلمتُ بما هو آت..

- بم حلمت؟

-بـأن يمـد اللـه في عمـري، فأحملكـم في قلبـي عمـري الطويـل كـما

حملتمـوني، ولا أتعـب.

- ينتظرك الكثير، لا تقلق.

- لا تنامي بهذه الطريقة، هيا إلى البيت.

- أنا في البيت.

- تسمين المشفى بيتًا يابابا؟

- لقـد مكثـت هنـا أشـهرًا يـا حبيبـي، يمكـن أن أتخذهـا نـزلًا بعـد الآن. لكننـي لم أعنهـا بيتـي.

رفع حاجبه فقلت:

- حيثما أنت يا أبي، فأنا في بيتي. الآن دعني أنام.

أصر على رحيلي، رفضت.

- سأصعد لوالدة كنان، تنيمني جوارها دون أن تقول لا.

تبـدل شيء مـن ملامحـه حـاول أن يخفيـه، ثـم سـأل عنـه. قلـت أنـه لا زال في العنايـة، وسـيخضع لجراحـة غـدًا.

- يمكنك فقط الاطمئنان عليها. لن تبيتي الليل هنا.

قلت بمزاح:

- إنهـا تحبنـي جـدًا يـا أبي، هـل تظنهـا تفعـل كـما السـيدات اللـواتي يحبـبن فتـاة مـا؟

- وماذا يفعلن؟

قلت وأنا أنسحب إلى الباب:

- تزوّج ولدها للفتاة التي تحب.

وأغلقـت البـاب خلفـي ضاحكـة، وأنـا أرى أبي يعقـد حاجبيـه في غضـب مصطنـع. لملمـت أشـيائي وعـدت للبيـت. لا أحـد سـينام اليـوم قريـر العـين

غـيري. لأننـي، بعدمـا رأيـت الدنيـا بعـين أبي، استشـعرت لطـف اللـه ومعيّتـه لي، في كل نفَـس آخـذه لا كُل سـاعة أحياهـا.

## (٩)

أجلس أرضًا، أمام حجرة كنان، أضم إليّ ركبتيّ، وأغرس بينهما رأسي، رأسي المتعب، رأسي المعبأ بالقنابل التي تنفجر فيّ بصمت، أفكر في حكمة الله في أن يرسل إليّ إنسانًا يخبرني كليمات بسيطة في دقائق، ثم يتركني بأبشع طريقة. هل أنا مغناطيس لطرق الرحيل المفجعة؟ هل يبحث عني من بين كلّ البشر؟ هل يجدون على ظهري لوحة تحمل شعار الفقد والهلع حبيباي، لا تقل وداعًا.. اكسر قلبي؟ ماذا يجري حولي؟ يفجعني أبي مرّة، وجهاد مرّة، وهذا الذي حلّ ضيفًا على حياتي لدقائق.. هل استكثر عليّ أن يقول وداعًا بطريقة خفيفة كالتي أتاني بها؟

تذكرت هاتفه المغلق، أخرجته وأعدت فتحه. ربما يتصلون به لأجل «عمله الشاق» الذي لم ينجزه، عليهم أن يعلموا أن تأخيره ليس بيده.

«إذًا بيد من ياهتون؟ هل بيدك؟ أجل، بيدك. أنت السبب.. لو لم يرك ، لو لم يمكث هذه الدقائق، لو لم يستدر لك، لما حدث كل هذا». هاجمني صوت وساوسي قويًا، يدوي داخلي كإعصار، يحاول اقتلاع بذرة في تراب قلبي تحمل إنسانةً أفضل، وهتون أفضل، و..

استعذت بالله، وقلت أنه قدره.

- قدره؟ هل تبعدين نفسك عن الشبهات؟
- لا أفعل، كل شيء خلق بقدر..

- وقدره أن يصدم بسببك.
- وقدري أن أرد له الدين، أضعافًا.

نفضت عني هذه الأحاديث، وتفحصت محفظته.. إنه محامٍ. سيد العدالة قد حاول أن يردّ إليّ حقي في البكاء الذي حرمت نفسي منه. أنت بارع أيها الأستاذ النبيل، تكسب بجدارة، وفي أول مرافعة. ابتسمت لعجائب القدر، فتحت هاتفه، هل هناك أناس تحظى بهذا السلام الداخلي حد ألا يضعوا رموزًا لقفل الهاتف؟ هذا الرجل إما أنه حالم ويهدي الجميع أمانه، أو أنه حقًا لا يبالي لشيء، رغم أسرار عمله التي يدرك أن هاتفه يضمها، رغم أحاديثه الخاصة التي سيسهل العثور عليها، رغم خصوصيات نفسه، رغم.. من هذه الحسناء؟

بينما أرد على الرسائل معتذرة، شارحة الوضع بإيجاز.. وجدت هذه الـ.»نوّارة»؟ يالهذا الاسم، سبحان الله، يهدي كل امريء نصيب من اسمه، إنها.. حقًا.. نوّارة. فتحت رسالتها، كانت رسالة صوتية، قالت فيها بصوت يشبه الحزن: «كنان.. صدّق قلبك، أنا آسفة حقًا، قلبك الكبير سيعفو، لن تدرك كم الضغط الذي ألحقه بي أبي، حرمني سيارتي، وبطاقة ائتماني، وسحب مني تراخيص العمل لأجل أن أمنحه هذه الأوراق يمكنك أن تفكر جيّدًا، إنها قضية مغلقة، ماذا يعني أخ يبحث عن أخت له لا يعرف إن كانت حيّة أم لا؟ هذه القضية منذ سنوات، وأنت لا تفقد الأمل فقط لأنه صديقك؟ فكر معي، الاحتمال صفر، والأمل مستحيل. أرجوك سامحني، وردني إليك..أنا أحبّك، ولأنني أحبّك، عقابك مهما كان فظيعًا سيكون أهون من أن تجعلني كالمنبوذة، مستعدة أن أقدم تنازلات عن كل ما أملك، أن أبذل ضعف

ما بذلت لأجل أن تعيدني إليك، مستعدة لكلّ شيء.. إلا أن تتركني!».

الأمر لا يحتاج ذرة تفكير لماذا نادمة هذه الـ «نوّارة»، أعدت الاستماع للرسالة مرّات، ومرّات. ماذا يعني أخ يبحث عن أخته منذ سنوات؟ لا شيء. قضية مغلقة. سيحزن صاحبها ثم يفقد الأمل، ويعاود حياته كما كانت. ماذا يعني المبتور لك يا نوّارة؟ لا شيء. عملية سهلة، بطرف اصطناعيّ، سيعود كلّ شيء كما كان. هل هذا ما وددتِ قوله؟

حمقاء أنت يا نوارة، لا تعرفين أيّ شيء، أنت المدللة بين أحضان أبيك، صاحبة الحياة المترفة الخالية من دفء الأسرة، وسائل الضغط بالنسبة إليك تتمثل في السيارة والنقود، وأمر يصدره والدك بلا نقاش، لا تعرفين شيئًا عن الحرمان الحقيقي يا نوّارة. أنت التي تغدرين بحبيبك، بمالك قلبك، وتهدين أوراقًا على طبق من ذهب لطرف معادٍ لزوجك -مهما كان شخصه، ومهما بدت دوافعه- لا تعرفين شيئًا عن الحبّ يا نوّارة.

كان يمكن لوالدك صاحب النفوذ أن يستخدم طرقًا رخيصة لينال ما يريد، بأجر بسيط، يبدو أنه مترفٌ أيضًا، لا يحب التعب، فاستخدم أكثر الطرق رخصًا، بأن جعلك تخونين من تحبين. هل بفعلتك هذه.. كنت تحبينه فعلًا؟ ياحمقاء؛ هل يجد المرء كل يومٍ من يحبّه؟ هذا المتمسك بالأمل لا تعرفين عنه شيئًا أيضًا، عيب عليه أن تكوني حبيبته ولا تفهمين داخله، عيب عليه أن يطمئن لأحدٍ بهذه الطريقة.. لكنه يحبّك، كان يجب أن يطمئن ليحبّك حقًا، ماذا ستكون علة الحب لو أنه لم يأمن جوارك؟

مـن ألـوم أنـا؟ هـذا المسـجى خلفـي الـذي لا يملـك مـن نفسـه حـولًا ولا قـوّة؟ أم ألـوم نفـسي؟ ألم تسـقطي في فـخ مشـابه يـا سـاذجة؟ ألم يتـزوج جهـاد -ولـو صوريًـا كـما علـل لوالـده- لأجـل أن يقطـع شـوطًا في عملـه؟ ألم يـتركك جهـاد، واثقًـا أن قلبـك.. سـيغفر؟ كـما تفعـل نـوّارة الآن بكنـان، واثقـة أن حديثهـا ونبرتهـا الحزينـة وكلـمات النـدم هـذه سـتجعله يغفـر! وإن غفـرتِ أنـتِ -يـا سـاذجة-، هـل يغفـر الرجـل النبيـل مـن مـسّ شرف مهنتـه؟ ومـن ولّاه ظهـره بأمـان، فأهـداه رصاصـةً تقعـده؟ هـل يغفـر النبيـل رصاصـةً غـادرة؟ لا يفعـل..

- سيدتي، لقد استيقظ، يريد أن يراك.

لملمـت متعلقاتـه داخـل جيبـي بعشـوائية، ودخلـت إليـه، كان يطالـع السـقف بصمـت تـام إلا مـن زفـيره، يتنفـس بهـدوء مخيـف، كأنـه تائـه، كأنـه شريـد يـصرّ أن يحتـلّ أرضًـا غـير التـي نبـذوه منهـا.

- حمدًا لله على السلامة.

نظـر إليّ نظـرة مبهمـة، بهـا شيء مـن الغضـب، ابتعـدت خطـوةً للـوراء كـرد فعـل يـشي بالخـوف.

- من أنتِ؟

- هتون.

- ماذا تفعلين هنا؟

تلعثمت:

- أنا من..أتى ..هنا بك.

- وماذا حدث لي؟

- لم يخبرني الأطباء بعد بشيء، أنا كنـ..

- ما سبب الحادث؟

لماذا يتحدث بهذه النبرة المزعجة؟ هل هو تحقيق شرطة؟ أهذا كنان الذي هدّأ من روعي بحديثه منذ ساعات؟

- كنت تعبر الطريق يا كنان، ألا تذكر؟

- من كنان؟

قلت بتروٍ، محاولةً إخفاء دهشتي:

- كنان.. هو أنت، هذا اسمك.

- لا أتذكره.

- إذًا ما اسمك؟

أصدر زفيرًا قويًا ينمّ عن ضيق صدره:

- لا أتذكره..

ما الذي لا تتذكره؟ ماذا يحدث؟

- لا يهم، ما آخر شيء تذكره؟

- المظلة، وأوراق متناثرة، شتاء ماطر.

ضغطت على الجرس فأتت الممرضة، أخبرتها أن تنادي الطبيب للفحص.

- كنان.. في أي سنة نحن؟

- الخامسة عشر بعد الألفين.

- لا، نحن في العام العشرين، ماذا تعمل؟

- محامٍ.

- صحيح، ومحامٍ بارع.. لقد حللت قضيتي في مرافعتك الأولى، أهنئك، وأشكرك أن أنقذتني.

رفع حاجبيه في تعجب ساخر، وقال بلا مبالاة:

- لا شكر على واجب.

- هـل أنـت وحيـد؟ أليـس لديـك إخـوة؟ والديـك.. هـل هـما عـلى قيـد الحيـاة؟

وجدته قد عقد حاجبيه، وقبض كفه بعنف، وقال بنبرة غاضبة:

- لا أتذكر.

- كم عمرك؟

- أربعة وعشرون.

أسـندت رأسي بكلتـا يـديّ، أتنفـس بصعوبـة، كأن الهـواء بـات ثقيـلًا عـليّ، كأن كنـان بإجاباتـه الخاطئـة هـذه يسـحب الهـواء في دوامتـه ويتركنـي للفـراغ أختنـق. أعـرف جـزءًا مـما سـيقوله الطبيـب.. «فقـدان جـزئي للذاكـرة»، مـاذا يحـدث حـولي؟

- ماذا يجري؟

أخـذت نفسًـا عميقًـا، وقلـت لـه أن ننتظـر الطبيـب، لم يعلّـق، أعـاد نظـره للسـقف، وأنـا أعـدت شريـط اليـوم كامـلًا. مـا هـذه الصاعقـة التـي أحلّـت بي؟ أيقنـت أننـي غـراء، أو إغـراء لـكل مـا هـو غـير طبيعـي في هـذه الدنيـا. أتى الطبيـب، وكعـادة سـكان مدينـة المـوتى، فحـص جسـده بروتينية تامـة، ينعقـد حاجبيـه قليـلًا ثـم يسـتعيد هيئـة الروبـوت البشـوش، سـأله أسـئلةً دقيقـة تشـبه التـي سـألته إياهـا، غـير أننـي لم أتعلـم هـذا في الجامعـة، منـذ إصابـة أبي، لم أعـد أهتـم بالطـب ولا بجامعتـي.. لكـن موسـمًا واحـدًا للمحقـق كونـان يمكنـه أن يعلمـك الكثـير.

- بالنسـبة لجسـدك، الأمـر لا يـزال مبهـمًا.. ولكـن كتشـخيص

مبـدئي، توجـد مشـكلة في مفصـل الركبـة، ذراعـك الأيمـن لم يسـلم مـن الكـسر، سـتخضع للأشـعة، وبعـض التحاليـل، لنتأكـد مـن أن كلّ شيء سيسـير عـلى مـا يـرام.

- مـاذا تقصـد بقولـك بالنسـبة لجسـدك يـا دكتـور؟ أسـتطيع أن أفهـم أن هنـاك مـا لا يتذكـره.. لكـن، هـل هنـاك شيء آخـر؟

- سـأحادث والـدك في هـذا الأمـر ، إن أردت مزيـدا مـن التوضيـح، يمكنـك أن ترافقينـي.

كـدت أخـرج، لكننـي التفـتّ وألقيـت نظـرة عليـه، لازال ينظـر للسـقف بـذات الهـدوء المزعـج، فقـررت أن أبقـى.

- لم تخبريني، من أنت.

- كما قلت لك.. اسمي هتون.

- كم حزينة أنت.

- وكم تئن أنت..

نقل بصره إليّ بسرعة، تداركت الأمر:

- من جروح جسدك.. كثيرة، أتم الله شفاءك على خير.

- بم تهامست مع الطبيب؟

أنكـرت أني فعلـت، لم يصـدّق، ولم يعلّـق مجـددًا. سـاد الصمـت دقائـق، سـألته:

- هل تعرفُ..

- أنا من سيسأل.

فتحت له راحتي يدي باستسلام، استغرب حركتي، قلت:

- في مـصر نقـول «مـن إيـدك دي، لإيـدك التانيـة».. تعنـي أننـي

رهـن إشـارتك..فقط اسـأل.

طالـع عينـي بنظـرة حائـرة، بهـا شيء مـن العجـز يـكاد يخفيـه، وكثـيرٌ مـن الرّجـاء مـن ألّا يكـون جـواري لـه شـفقة. ابتسـمت لـه بـودٍّ، مؤكـدة أن مـا يتطاحـن في رأسـه سـيمرّ، مجـرّد وقـت، وأنـا سـأرد لـه الدّيـن أضعافـا. الذيـن ينتشـلون الآخريـن مـن فوهـة ظلامهـم، ولـو بكلمـة، لا تكفيهـم أنفاسـنا لـرد معروفهـم؛ الذيـن تحمينـا أياديهـم الممتـدة لنجدتنـا -ولـو عـن غـير قصـد-، لا يسـعهم امتنـانٌ بحجـم الدنيـا.

- كنـان، قبـل أن يـأتي الطبيـب، لنتفـق أن نكـون أصدقـاء حتـى تتعافى.
- أنا لا أعرفك.
- أنـا أعرفـك، حتـى لـو لم يكـن بالقـدر الـكافي، أعـدك وعـد الحـرّة أن إجابـات أسـئلتك كلهـا عنـدي، ولـو اسـتغرقت وقتًـا.. هـل نتفق؟

فكر لثوان وقال بسخرية:

- وكأنني أملك خيارًا.. موافق، ياهتون الحزينة.

حـاول أن يمـدّ لي يـده السـليمة لي، كعلامـة اتفـاق. ابتسـمت لـه، وكـررت فعلتـه نهـارًا، بـأن وضعـت كفـي الأيمـن فـوق قلبـي مجيبـة:

- اتفقنا.
- هل أنا ملوّث؟

ضحكت.

- أنـا لا أصافـح الرجـال، لقـد علمتنـي أنـت هـذه الطريقـة للسـلام.

- هكذا؟

وضع يده السليمة فوق صدره، فهززت رأسي مؤكدة.

- لنبدأ يا سيدي، هذه الحزينة كتاب مفتوح أمامك.

وانقضت ساعتان، أو أكثر، يسأل وأجيب بما أعرف. كنت أجيبُ إجاباتٍ صادقة، وأضيف ما أعرفه، لم يسأل عن حياته الشخصية إلا أقل القليل، كان يسأل عن الدنيا، تاريخ اليوم، عن بعض موكليه، لم أعرفهم، بحثت عنهم في هاتفه، وأخبرته ما أستطيع. تحاشيت الحديث عن نوّارة، وهو بدوره لم يسألني، حتى ظننت أن فقدانه لذاكرته ليس لشيء سوى أن ينساها. هل لأن أساعده في أن يتذكّر كلّ شيء، ليعود لنقطة الصّفر.. مجددًا؟ لم أكذب بقولي أنني كتاب مفتوح، لكنني ثنيت صفحة نوّارة.. إلى حين إشعارٍ آخر.

سألني عني، وأين التقينا، أجبته إجابتي الأولى، أنه قد حلّ أمر قضيتي بسهولة، لم يقتنع، ولم أرد إخباره أكثر. أنا محضُ محطة ينتظر فيها قطار حياته، لا مكان لي بين ثنايا ذاكرته أبدًا، ولا أريد أن أعلق أنا بحياة معقدين آخرين مثلي، أكتفي بكوني إنسانًا لا يستطيعُ النجاة من نفسه، ولا أظن أنني بحاجة لإدخال المزيد من العُقَد لأيامي.

- هل لهذا تساعدينني؟ ألا تربطني بك أيّة علاقة أخرى؟ أنا أراك للمرة الأولى.

- أساعدك لأنك لا تعرف كم كانت معقدة قضيتي.

- ماذا كانت قضيتك؟

بماذا أجيبه؟ أنني ظلمت نفسي، وحكم هو بيني وبيني بالعدل؟ أنه ردني إليّ بعدما أهلكتُني بين ثنايا الفقد؟ هل يمكن لكلمةٍ.. لا

يقصدها صاحبها، أن تزرع فينا ريحانًا بسرعةِ ذوبان قطعة شيكولاه في الفم؟ هل أتذوق أنا هذه الشيكولاه للمرّة الأولى؟ هل يمكن لإنسانٍ أن يمد يده لإنسانٍ لا يعرفه، في وقت لم يحسب أنه يومًا سيكون، ويبقى هذا الإنسانُ يحملُ العرفان لهم للأبد؟ هل أخبره كل هذا؟ كيف أخبره كلّ هذا؟ هل سيفهمني؟ هل سيفهم صعوبة موقفي؟ أو كم كانت معقدة قضيتي؟ هل أخبره.. أنه بسهولة.. ردني إليّ؟! هل سيفهم؟ كيف سيفهم؟

- رددت إليّ شيئًا سُرق مني، شيئًا لا يقدر بمال الدنيا.

اكتفيت بها، وظللت أفتش في هاتفه عن شيء جديد عنه لأريه إياه، والتزمت الصمت ليحظى بوقت في التفكير فيما يحدث حوله، إنه جَلِد، قوى الجأش، حين قلت له أنه لا يذكر أعوامًا من حياته، قال ببساطة شديدة أنه يريد أن يعرف ما حدث في هذه الأعوام.. من أين له هذا الرضا؟

- هارون.

رفعت عيني إليه متسائلة:

- من هارون؟

- هارون.. صديقي.. كان آخر من أذكر قبل الحادث، أتاني لأجل قضية معقدة، ولم يثق بغيري ليحلها.

- جيد جدًا..نستطيع أن نصل إليه، هل رقمه هنا؟

أشار أن نعم، بحثت عنه، كان قد حادثه في وقت قريب، قبيل الحادث بأيام بسيطة. ضغطت على زر الاتصال، قربت الهاتف لأذنه.

- مرحبًا، أحتاجك أن تأتيني في مشفى..

ثم استدار وسألني عن اسمها، قلت» الحياة»

- مشفى الحياة، أخبرك حين تأتي، أنا في الغرفة رقم..

أشرت له أنها مائة واثنين.

- مائة واثنين. أنتظرك، لا تتأخر أرجوك.. وداعًا.

أغلقت المكالمة، وانتظرنا دقائق. سألني:

- كم عمرك؟

- حتى لو كنت فاقدًا للذاكرة، لا يمكنك أن تنسى أن الأنثى لا تُسأَل عن عمرها.

- ولا يمكنني أن أنسى أن أثني عليها بأنها تبدو أصغر، حتى لو كان عمرها يوم.

أعرف أنني اقتحمت زمنًا لم أكن موجودةً فيه، أنا لست موجودةً أصلًا، ولا يجب أن أكون. ربما كان يجب عليّ أن أطمئن عليه من بعيد فقط، وأترك زمام الأمور لإدارة المشفى لتتولى أمره، ربما من يجب أن تكون مكاني الآن هي والدته، أولى الناس به، ولا أستطيع أن أخبره الآن أنها مريضة.. والدته!

والدته التي أوصاني عليها، وأخلفت وعدي من اليوم الأول، لم أمر عليها ثانيةً. هل سأذهب الآن وأفطر فؤادها مرتين؟ مرة في إصابته ومرة في نسيانه؟ هل سأقتلها بيديّ؟ لن أفعل. من الأفضل أن تبقى الأمور كما هي، حتى يسأل كنان نفسه عن حياته -التي لا أجد مبررًا لنسيانها سوى أنه يتناساها-، أو ربما من الأفضل أن أنتظر حتى نفهم من الأطباء إلامَ ستؤول حالته.

هل قلت..من الأفضل أن أنتظر؟ عدوة الانتظارات الأولى، سترضخ،

وتحني رأسها للرياح، لتمر بسلام.. وتنتظر! قررت بيني وبين نفسي أن كل ما أستطيع تقديمه له، هو أن أضعه على أول الطريق الذي يزيح عنه غمامة السنين الفائتة منه، ثم أعود أدراجي، وأنسحب بنفس السرعة التي دخل هو بها حياتي، سأساعده بأنني فقط سأجيب ما يسأل، وألتزم الصمت وقتما يفكّر.

- تبدين وحيدة.
- أنا بخير.
- بخير، وداخلك وحيد.
- كنت لأكون كذلك، لولا أن منّ الله عليّ بمن يفرق وحدتي.
- حبيبك؟
- هل كل من يمحو الوحدة حبيب؟
- كل من يزرع الوحشة حين يبتعد، هو حبيب.
- نستأصلُ الزرعة وزارعها.
- لا تبدين بهذه القوة.
- هذه القوة، زرعها أحدهم فيّ بكلمة.
- أي زرعة تستأصلين؟ أشك أنك تريدين ترك وحدتك.
- لا أريد، لكنني سأفعل.
- ستؤذين نفسك.
- أفضلُ من أن أكون مشوّهة.
- ستبترين جزءًا منك.
- خير من أن أسير عرجاءَ تتكأُ على السرابِ لتمشي.

تنهد:

- شغوف لأعرف قصتك.
- شغوفة لتعرف أنت قصتك الصغيرة جدا معي.
- مشوقة للحد الذي يجعلك مهتمة هكذا؟
- مشوقة للحد الذي يجعلني أتشبث بها كنجاة.
- رغم ذلك، سأنتظر أن تخبريني يومًا من أنت.
- سأنتظر أن تخبرني يومًا، من أنا.

قمت من مجلسي، لملمت حاجياته ووضعتها في درج جوار السرير.

- حمدًا لله على السلامة، وتصبح على خير.

نظر لقدمه التي لا يشعر بها، ولجسده المرهق، ثم سألني بخفوت:

- سأصبح على خير؟

شيء ما بقلبي أراد أن يبكي هيئته المزرية ويبكي عجزي. بضعف أجبته:

- يقول أبي أن الرضا هو أصل الخير؛ وإنسان يمتلك حجم الرضا الذي بداخلك، لا يمكن أن يصبح إلا على كل خير.
- ستأتين إليّ ثانيةً؟

قلت مؤكدة، قبل أن أغلق الباب خلفي:

- حتى تضع قدمك على أول السلم وحدك، سأحتاج أن أعود إليك ثانيةً.

## (١٠)

- بابا.. أنت تعرف هذا الشاب.
- أعرفه.
- وهارون يعرفه، وأمي.. تقول أنها رأته غير مرّة، لماذا يتعمد الكلّ ألا يخبرني؟
- لماذا تهتمين أنت به لهذا الحدّ؟
- أريد، بكل ما فيّ من إنسانية، ومن كل ما تبقى مني من قلب، أن أساعده ليتذكر، ليواجه ماضيه، أريدك أن تساعدني.. نضعه على أول درجة من السُلّم، ثم أنسحب أنا، وتكمل أنت رحلة علاجه.
- ماسة!
- ماسة ماذا يا أبي؟ ألم أخبرك بحديثنا الذي واريته عنك؟ ألست خير من يعرف أن الكلمة نور.. أقسم لك أنني مدينة له بكل ما يأتي من حياتي، هل سأغض الطرف عن شكر الله لليد التي أرسلها لتمد إليّ وتساعدني؟
- أخبري الممرضة أن تحضر إليّ ملفه.

هرعت لاحتضانه، واستدرت مسرعة. قبل أن أخرج أخبرني:

- ستكتفين بالإشراف فقط من بعيد، هل يرضي هذا حضرة المديرة؟
- أريد فقط.. أن أكون يدًا ممدودة للعون دومًا.

تركته وخرجت، عند الباب وجدت هارون يسأل:

- بأي صفة تساعدينه؟
- تعبيرًا عن جزء من امتنان دائم، كأول خطوة في غدي الذي سأرسمه بنفسي، ورجاءً بأن يوافق بأن أكون أول من أمد له يدي.
- وبعد؟
- لا شيء، سألغي قراننا أنا وجهاد، وسأترك الطب بلا رجعة، وما بعده.. لم أفكر به.
- وما فاتك من عُمر، من شعور، من كل شيء؟
- لم يكن لي كي أعيشه، كان درسًا، وقد تفوقت في تطبيقه.

***

اعتدلت في جلستي، وسألته:

- هل أشوش تركيزك إن أخبرتك؟
- رأسي فارغ، هل هناك من يتشتت في الفراغ؟

قلت بيني وبين نفسي: «لو لم أتشتت أنا في هذا الفراغ لما حدث كل هذا؟». سألني ماذا أقول، قلت لاشيء. طلب أن أحكي باستفاضة، فلبّيت.. وحكيت له الحكاية، منذ يومي الأول في الدنيا..كما أخبرنيها أبي تمامًا، بلا نقصان، بلا أي شبهة، حتى يومنا هذا. ثم سألني عن جهاد الذي اتيت باسمه مرارًا، حكيت له عن لقائنا الأول، وعن خطبتنا، وأنها انتهت لأنه آثر عمله على الاستقرار مع أسرته، وأنني الآن جوار أبي، هنا، في غرفته، منتظرةً شفاؤه.

- أنت مسكينة.

- أنا الأكثر حظًا في هذا العالم.. لو لم يكن أبي هنا، لكنت مسكينةً بحق.
- ألم تتسرعي في أن تقصي عليّ قصتك؟

قلت ببسمة مرتاحة:

- أبدًا..منذ وقت طويل كنت أريد أن أخبر أحدًا عن سرّي هذا، لكنني لم أجد من يستحقّ أن يعرف.
- أتفهم قلة ثقتك في الآخرين.
- ليس كذلك.. لا أعرف لِمَا لم أفعل من قبل، حتى جهاد، رغم قربنا الشديد، وحبي الكبير له، لم أفكر في إخباره أي شيء أبدًا، لم أفكر حتى إن كان يعرف؛ كتمت السرّ في قلبي، مذ علمت الحقيقة، ثلاثة عشر سنة أحمله بهمٍّ ووهن فكبُر معي. كنت أشعر أنه يأخذ في النمو حتى بات كحدب في ظهري، حين قررت أنني يجب أن أخبر أحدًا بهذا، لم أرد لهذا الأحد أن يكون دائمًا، أردته أن يكون مجرد عابر.. ويالكرمك أيها الغريب، تساعدني وأنت راقد في فراشك، وتهديني جزءًا من ذاكرتك؟ أنا حقًا ممتنة لك.. إذا حفظت السرّ.
- أعدك بشرفي، وشرف مهنتي يا موكلتي.
- ممتنة لك يا أستاذ.

أذّن الفجر، استأذنته أن أخرج، قال أن أبقى.

- أحتاج أن أصلي، وأن أرى أبي، وأحتاج أن أنام.

سأل ثانيةً:

- ستعودين؟

- أحتاج أن أعود، حتى تكون بخير، سأعود دائمًا.

تنهد وشكرني، قال أن أبقي هاتفه معي، إذا ما اتصل صديقه أجيبه؛ ودّعته وحثثتُ الخُطَى للخارج. كان الباب مفتوحا، حين أدخل صديقه رأسه وقال بصوتٍ قلق:

- أخبرتني الممرضة ما حدث، هل أنت بخير؟

- هارون؟

كنت أنا صاحبة النداء، صديقه «هارون»، الذي حادثه في الهاتف أماي قبل أيام، لم يكن شخصًا غريبًا عني. كان هارونَ آخر غير الذي حسِبته، أخُ جهاد، وخاطبُ رهف، وابن عمّي.. هارون سليم.

## (١١)

هبطت الطائرة وهبط معها جسدي كله، وتولت عني القوة الزائفة التي تحليت بها، وحطت فوق رأسي وصايا كنان بأن أكون على ما يرام، وأنه يؤمن بأن الحبّ أولًا، وأن الندم للصادقين، وأنه يؤيد منح علاقتنا فرصةً أخرى. حشت الجميع على فكرة استقباله، وداخلي هدف واحد؛ أن يشهدوا أنني تعافيت تمامًا منه، أن الأمر أهون من حديثهم الحذر عنه، وتعاطفهم الزائد معي. كنت أخشى شيئًا واحدًا فقط، أن أحنّ.. أو أشتاق.

كان والدُه المسكين يمشي أمامنا بتوتر، متلهف لرؤية صغيره المتمرد؛ وهارون متوتر حذر، ينظر إليّ تارّة فأبتسم وأشير له بإبهامي أن كل شيء على ما يرام، ويمسك يد رهف بقلق فتضغط عليها بحنوّ يشد من أزره. جلست حذاء أبي، أسندت رأسي على كرسيه المتحرك، وأغمضت عيني وأنا أتخيّل ما سيحدث. داخلي مضطرب، يتصارع، تتقاذفني المشاعر ما بين طرف يوقنُ أنني أفتقده، وأنني في حبّه مسكينة لا حول لي ولا قوة، وطرف صغير أقنع نفسي به أنني لن أشعر بشيء جديد، فقط سأرغب بأن أضايقه بتروٍ، وهدوء لا يتناسب مع طاحونة الأفكار التي تعمل في جمجمتي.

وضع أبي يده على رأسي ومسد عليها برفق، مضت دقائق قليلة وهو يمسح على حجابي، شعرت فيها بهدوء وتوقف الصراع داخلي، علمت أنه كان يتلو آيات من القرآن، فتصنعت أنني غفوت ليكمل. حين

يرقيني أبي، أسافر في رحلة صغيرة هادئة هانئة، بعيدًا عن الدنيا، عن جهاد وعن العمل وعن الجامعة وعن أي مشكلة يمكنها أن تؤرقني، كثيرًا ما كنت أصرخ وأتضايق وأبكي بلا سبب، وبلا نية مسبقة لهذا، كان يحتضنني ويضع رأسي موضع قلبه، ثم يتلو الفاتحة، بعدها آية الكرسي، ثم خواتيم البقرة، ثم المعوذتين ويكررهما ثلاثًا.. كانت تفيدني أكثر مما أفادتني المهدئات، أكثر مما قد تنفعني أحاديث الأحباب، كانت ضمة أبي وصوت تلاوته تغنيني عن الدنيا.

- لم أصررت أن نأتي؟

قلت بِرَاحة:

- مهما حدث، نحن عائلة، نتصارع كأمعاء الإنسان لكن لا نفترق، أليس هذا قولك؟ لا يجب أن نترك فردًا منا وحيدًا، مهما أخطأ في حق أحدنا، كلنا نخطئ.

- وهل أسامحه أنا؟ أسامح من أحزنك؟

- لا أحد يجرؤ.

- ولكنه تجرّأ يا ابنتي!

أمسكت يده بين يدي وقلت:

- سيحزن، وسيعرف خطأه، حتى أنه سيشعر بفداحة هذا الخطأ كما لم يشعر من قبل، لكننا عائلة، يجب أن نكون هنا. أعلَم، قدري تشابك بقدر جهاد، وأنا اخترت ألا يلتقيا، أن أنفصل.

أحس أبي في صوتي نبرة انتقام فطمأنته:

- أنا لا أحاربه يا أبي، ولكن إن ظنناها حربًا، ألم تسمع

مقولـة أن الهزيمـة أحيانـا بدايـة نـصر؟

قبلـت رأسـه، وذهبـت جـوار هـارون، لـن أواجـه أمـي الآن، إنهـا غضبـى، تفهـم لمـاذا جئـت، ولمـاذا أصررت عـلى أن نذهـب جميعًـا، لكنهـا لم تسـتطع المعارضـة لأن حديثـي بـدا منطقيًـا جـدًا ولأن هـارون لم يقـل لا، ولم يعـترض، عـلى الأقـل أمامهـم. رأوني قـد جئـت فتركـت رهـف يـده حيـاءً، قـال هـارون:

- مفسدة اللحظات السعيدة.

- مصائب قوم عند قوم فوائد.. قولوا لي، كيف تشعرون؟

قال هارون:

- أنا أنتظر مفاجأة.

وقالت رهف:

- أن لا أتوقع شيئًا، لأنك فوق كل التوقعات.

قلت:

- لا أقصـدني وحـدي، أعنـي كيـف تشـعرون في هـذا المـكان الجميـل، ملتقـى الأفئـدة ومفرّقهـا، وليـد الشـوق ومميتـه، هـذا المطـار أكـثر مـن كونـه مكانًـا، هـو منبـع مشـاعرنا الصادقـة كلّهـا، مـا يميـزه أن مشـاعره ليسـت مفتعلـة. مثـلًا، إن اسـتثنيت حالتكـما الولهـة، فإنـه يمكننـي القـول بـأن والدكَ يقـف عـلى جمـر، ولا يتحمّـل لهفتـه، ويـده متكـورة ليمسـك غضبـه مـن طريقـة رحيلـه، وعينـه مضطربـة مـا بينـي وبـين بـاب خـروج الـركاب لـيرى مـاذا أفعـل. وأنـت تشـتاق أخيـك وتقلـق لأجـلي، وأنـا قلـت أن الأمـر لا يسـتدعي القلـق لكنـك

لا تستمع إليّ، وداخلك دافئ لأن قلبك متمثل كإنسان جوارك، يمسك يدك ويطمئنك. ثم.. إن نظرنا حولنا..

وأشرت إلى عائلة صغيرة:

- هذه الصغيرة تنتظر أباها، أو لنقل هدايا الأب وهذه الأم التي تحمل رضيعًا، كأنها تجلس على الشوك، يتشقق جلدها من الوجد والانتظار، وهذه المسنة خلفها تضايقها.

سألت رهف لِمَا؟ قلت بضحك:

- شغل الحموات.

ضحك ثلاثتنا فسألتني مرة أخرى:

- ماذا عنك؟ أعني، إن لم تكوني ستقذفينني بالحجارة، أسألك..بم تشعرين؟

- كنت متصارعة الداخل منذ قليل، حتى قلت أنني أدعي الثبات ولن أفلح، لكن أبي مسح على رأسي وتلا تلاوته الهامسة، فصرت بخير كثيراً.

- أتساءل كثيراً عن هذه الـ «بخير».

- والله يا صديقي، لا أكذّبك، ينتابني الفضول حول ما سيحدث، أحيانًا أندهش مني.

قطعنا الحديث حين نادت أمي «لقد أتى». التفتُ حيث أشارت، فرأيته من بعيد، يمر المشهد ببطء، يتقدم بتؤدة، ويستيقظ قلبي النائم منذ عامين، يصحو كطفلٍ يشعر بالبرد رأى مدفئته، أو سائر في الفيافي قد وجد شجرة يستظل بها. من بعيدٍ أتى، مشعلًا قدر الذكريات داخلي حد الغليان، جارًّا أشواقَ قلبي بضعف، بوهن ثكلى

لا تملك من الدنيا غير ولدها الذي فقدته تحرّكت خطوة لأصدق أنه هو، وأنني لا أحلم.

من بعيد اقترب.. بهدوء، كتجمع السحب قبل المطر، عكس ما رحل بسرعة كالبرق، يسير بتروٍ ويجر حقائبه، يضرب بخطواته لحنًا يعلو صوته كلما دنى؛ يقترب فألمح تفاصيل وجهه الجميل، بسمته الرزينة، عينيه الحادتين، ذقنه المهندمة. شعرت وكأنه.. طوال هذه السنوات.. يقف على حافة عيني وأنا أخشى سقوطه! تتجمع قطرات الدمع في مقلتي، تتزاحم لتسقط وأنا أجاهد ألا أفعل، ثم مرّ أمامي شريط الماضي، كأنني أحتضر، مرّ كاملًا، في ثوانٍ. رأيتني يوم استيقظت ولم أجده، رأيتني يوم قال أحفظ دهاليز قلبك، وستغفرين، رأيت بكائي يوم استعطف قلبي في رسالة قديمة لأجل اليوم، تذكرت أنني بالنسبة له أحد النجاحات لا شريك حياة، فسقط من عيني مع حجارة الدمع الأولى.

توالى الدمع بهدوء، بصمتٍ جميل، وحزن خفيف..

*«أبقيك في عيني كأنك واقفٌ*

*في طرفها حتى أخافُ لأدمعك*

*وإذا سقطت مع الدمُوع فإنني*

*والقلبُ بعثرنا سُدىً كي نجمعك.»*

ألم أقل أنني أندهش بنفسي أحيانًا؟ كان الأمر يحتاجُ بكاءً ضنّ عليَّ به كبريائي من أن أبكيه خلفه، فبقي.. وذرفته أمامه. لا يهم، المهم أنه انتهى. بهذه البساطة؟ سقط من طرف جفوني، وانتهى الأمر.. وقفت خلف كرسي أبي ودفعته لنسير للأمام قليلًا معهم. كان جهاد

يمـرر ناظريـه بيننـا حتـى اسـتقرت عينـه عـليّ فابتسـم كطفـل مذنـب، مشـتاق، ونظـرت إليـه كأم معاقبـة.. لكنهـا عـلى كل حـال.. أمّ. كان وحـده، لم تـأت زوجـه معـه، أخفيـت دهشـتي والتزمـت جـوار أبي، اقـترب مبتهجًـا، تقدمـت خطـوة فقبـض أبي عـلى يـدي لألا أقـترب، قبلـت يـده وقلـت:

- ألم أقـل لـك أن الهزيمـة أحيانًـا بدايـة النـصر؟ لا تغضـب مثـل أمي.. حسـنًا؟

أومـأ برأسـه وتقدمـت، سـلّم عـلى الجميـع وعينـه متعلقـة بي، لم أخيـب ظنـه، علقـت عينـي بـه كـما ينتظـر. وقـف أمامـي مبتهجًـا، يتنفـس بعمق. قدمـت أبي عنـي، فانحنـى وقبـل يـده، لم ينظـر أبي إليـه، فقبـل رأسـه. رفـع رأسـه لجهـاد بنظـرة جعلـت وجهـه يـضرب ألوانًـا فابتسـمت داخـلي بفخـر وقـوة. إن حبيبـي الأول، الأبـديّ، والوحيـد يمنـع أن يصيبنـي السـوء. شـتت جهـاد عينيـه بيننـا. ابتعـدت خطـوات صغـيرة، وقلـت لأزيـل التوتـر:

- عدت سالمًا، مرحبًا بك!

نقـل بـصره بينـي وبـين أبي، وجـدني أبتسـم لـه بهـدوء لا عفويـة، بتـأنٍ لا بشـوق، منتظـرة أن يخطـو خطوتـه الأولى ويمـد يـده بالسـلام عـليّ. تقـدم بسرعـة إليّ.. وعانقنـي، أمامهـم جميعًـا بـلا خجـل، ولا اسـتحياء، لا أعنـي أمـام النـاس فقـط، بـل أمـام ندبـاتي، وحـسراتي، وخيبـاتي، وسـوءاته. هـذه المـرّة الأولى التـي أتـذوق فيهـا عناقـه، هـل كان عليـه أن يبتعـد، وأن ألقينـي وإيـاه بعيـدًا ليرينـي أنـه يحبنـي، وأنـه نـادم؟ هـل كان عـلى الدنيـا أن تقصينـي بيديـه وتحرمنـي هـذا القفـص الناعـم الوثـير؟ هـل كان يجـب أن أخـسر فطـرتي، وسـهولة حيـاتي، وألوانهـا الزاهيـة، ليشـعر حقًـا أنـه يحبنـي؟ هـل يسـتحق الأمـر كلّ هـذا؟

كستني الصدمة، كسرتني الصدمة؛ لم أعرف.. كيف يجرؤ ويعانقني؟ نعم، وافق والدانا على عقد القران لأنه ابن عمي، ولأننا تعرفنا على بعضنا البعض بما يكفي، ولأن العادات لا تجيز له أن يدخل بيتنا بلا اسم. صحيح أنني أعلنت انفصالنا -الذي حدده هو بالطبع-، لكنه أبى أن يلغي قراني به.. وللآن لم أفهم هل يعبث معي؟ أم أن زيجة عمله كانت لا شيء؟! فيم أفكر الآن؟ هل هذه هي المشكلة؟ المشكلة هنا.. في هذه اللحظة، تتمثل في سؤال واحد: كيف يجرؤ أن يعانقنتي رغم فعلته؟ وما الذي سقط فوق حجابي؟ هل هذه دمعته؟ هل أستحق هذا التشتت يا الله؟ ماذا أفعل؟ هل أمد يدي لأضمه؟ أتشبث بقميصه وأهنأ بعناقه؟ أم أفكر بما فعل وألفظه بعيدًا؟

لقد كنت حقًا بين ذراعيه، يمكنني أن أجزم أنني لوهلة شعرت بعالم آخر أدخله، بدنيا غير هذه الدنيا، بحياة ساكنة أكثر، ومليئة بالحب والشوق.. الحب والشوق اللذان أفسدهما برودي وثباتي. لو كان قبل هذا، لأردت أن تتوقف الدنيا هنا، لو يسكن الكون، لو تتجمع الفراشات حولنا، تحيط بنا، ترفعنا حيث غيمة، ننظر منها بزهد للأرض، لا نبغي شيئًا، كنت لأقسم أن فرسًا طموحً سيتوقف هنا.. لأننا معًا، أو كنت سأتمنى لو تحيطنا النجمات، لو تُصنع الألحان من نبضاتي، ونأخذ الكلمات النادمة من عينيه، لو تستمر هذه الحقيقة، كانت لتكون أجمل حقيقة لمستها منذ ولدت.

أنفاسه التي تتبعثر داخل حجابي كانت تقتلني، رفعت ذراعي خلف ظهره، لا لأعانقه، كنت أقبض يدي لتمسك برائحته ولا تهرب منها، وددت لو مسحت على شعره الأسود بلطف، كاعتذار أن ماسة

لم تعد ماسة، هي فقط هتون. لم أفعل. أبعدت رأسي عنه مسرعة، فحررني. قال وليته ما قال:

- اشتقت كثيراً، كثيراً جدًا.. بقدر قسوة رحيلي وشقاء الأيام بدونك.

بكيت.. وجعلت شهيقي كله من رائحته، لم يغير عطره أبدًا، لكن قلبي تغيّر، لم تسرِ رجفة الليالي الباردة فيّ حين التقطته أنفي، لم أبتسم، لم.. لماذا؟ ألم أقل أنني نظرت إليه كالأم؟ ليفهم عقلي إذًا أن الأم أم.. لا تحرم وليدها من عناق اللقيا وإن أذنب بحقها، بعد اللقاء أعاقبه. لحظة، أي أم؟ لا، أنا لست أمًّا لأحد، لا لقاء بعد هذا اللقاء، أنا استأصلته مني، وأثبتت أنني بدأت أتعافى، انتهى! لا أنا أم له، ولا هو ابن لي. قلبي لم يعد يؤمن بالمغفرة الدائمة لمن لا يستحقها.

قلت وأنا أقف قبالته، بجسارة لم أعهدها:

- الجميع اشتاق إليك.

- تعنين بالجميع أنتِ؟

قلت بضحك:

- لا، نحن، العائلة كلها، اشتقنا كثيراً.. لكسرك قلوبنا.

بهت وجهه، فاستمر حديثي بنفس اللهجة المازحة:

- يا الله ياجهاد، ألا أستطيع أن أمزح معك أبدًا؟ علاوةً على أنني لم أقل شيئًا خاطئًا، لكنني قلتها بمزاح كي تخف وطئته.

تدخل هارون ليصلح الموقف:

- هي التي أصرت أن نأتي جميعًا، وقلتُ لها أنك لم..

- لم أرد أن يعرف أحد.. صحيح، لكنني كنت سأحزن لو لم أر هذا الاستقبال الرائع!

رن هاتفي والجميع منشغل، حمدت الله كثيرًا على المتصل اللطيف، قد أنقذني من موقف لا أحسد عليه. بعثت رسالة بأنني سألحق به خلال نصف ساعة، واعتذرت متعللة بعمل قد طرأ، يجب أن أتركهم وأغادر، ووقف جهاد حائرًا. جيد، وصلته الرسالة الأولى، لن تتشبث الطفلة بذراعك، ولن تحط الفراشة فوق كتفك ثانيةً. كُسِرَ جناح الفراشة، وستقضي وقتًا تعالج كسره، ثم تحاول الطيران ما بقي لها من عمر. قال هارون:

- أي عمل الآن؟ الرجل قد وصل لتوه وأنت تقولين عمل، ألم ترتبي مواعيدك؟

قال جهاد مؤكدًا:

- إنه محق، كما أنني اشتقت لـ»جميع» وأود أن أجالسهم.

تجاهلت الأخير وقلت لهارون بسخرية:

- نسيت أن أعينك مديرًا لأعمالي، ربما تخصص من وقتك لي ساعة في اليوم لتتدبر شئوني فيها!

اقتربت من جهاد وهمست في أذنه:

- سأخبرك سرًّا صغيرًا، الجميع الذين اشتاقوا لك، لست منهم.. أنا أنتظر إلغاء القران.. رغمًا عن قلبي، وعنك.

قبلت رأس أبي، وهمست في أذنه:

- ابنتك لا تترك حقها أبدًا، أحبك.

وغادرت مسرعة ما استطعت. في الطريق أرسلت لهارون:

- آسفة لأسلوبي الفظ، كنت متوترة بما يكفي، حدد العقاب الذي شئت.. غير أن آكل البازلاء.

ومضيت متشبثة بثوبي، أقبض على يدي كي لا تطير رائحته، أتذكر عناقه المُسكِرَ -الذي كان ليكون مُسكِرًا- في وقتٍ سابق. مضيت راضية ولو بقلب منفطر، أتمتم من بين شهقاتي الباكية أنه لا خير في امرئ إذا خاصم.. هجر، وإذا أحبّ.. استكبر.

## (١٢)

- ماما، لم أتيت وحدك؟ ألم تصحبك شوق؟
- لم تتحمل أن تتركني وحيدة حين علمت أنك ستغادرين.
- أين شوق؟

غمز كنان بعينيه بخبث وقال:

- يوصلها الهوى حيث تهوى.

ضحكت كثيراً، وقد عني أن يقين سيوصلها.

- هل أترك الفتاة أمانة عندكم لتسلموها للشاب بهذه البساطة؟
- هو الذي عرض أن يوصلها متعللًا بأتفه الأسباب، قال إنها فتنة يجب أن يتقيها الناس.

استغرقت في الضحك، شوق ستقتله لو سمعته.

- هل وضعت البنزين مع النار؟

قالت والدته:

- إنه محب أحمق يا ابنتي، وكتلة الـ«شوق» هذه تخطف لبّه.
- لكن يا أمي، يقول أنه يكره النساء، ويسير وراء شعارات تافهة بأنهن فتنة وأن حواء من أخرجت آدم من الجنة.
- قدر آدم عليه السلام قد كتب قبل خلقه، كان سيخرج لا محالة، مهما كان الدافع، خلق لأجل رسالة في الأرض، وقد

خـرج مـن الجنـة ليتمهـا. وسـبب خروجـه مـن الجنـة موضـع الجـدل بـين النـاس وهـذا ليـس شـأننا؛ أمـا مـا لا شـكّ فيـه، أن حـواء مـن آدم، حـواء بعـضُ آدم.. بـلا حـواء، آدم ليـس كامـلًا، وبـلا آدم لا توجـد حـوّاء!

- وهل كل آدم يعرف أنه بلا حواءه ناقص؟

- كل آدم في قـرارة نفسـه يعـرف أنـه ليـس آدم.. بـلا حـواء، هنـاك مـن يقـر بهـذا، وعندمـا يحـين وقـت اجتماعـه ببعضـه التـي تتمـه يحسـن إليهـا كـما يحسـن لنفسـه، وهـذا أكـرم الرجـال، وهنـاك مـن يؤمـن بهـذا لكـن إيمانـه لا يخـرج منه، لا ينفـذه لأسـباب لا تسـتطيعين الاقتنـاع بهـا، وهنـاك مـن ينكـر أن حـواء مـن آدم، فيوليهـا ظهره..ويتبـع غـير سـبيل البشريـة الحـقّ.

قبلت رأسها وتنهدت في هدوء، سألني كنان:

- ما الأخبار؟

- سيحدث ما أريد.. وأنت؟

أمسك بطرفه الصناعي، مسح عليه:

- أحـاول أن تنشـأ بيننـا صداقـة، لكنـه غريـب، وغـير مفهـوم.. إنـه مثلـك تمامًا.

- سيحاسبك الله على هذا الظلم يا أستاذ، أنا بريئة.

أخذته من يده، وأريته كيف يعمل.

- أرأيـت كـم سـيكون الأمـر سـهلًا ؟ وستسـير بأريحيـة، تصادقـه نهـارًا، وتفترقـان ليـلًا.. بهـذه البسـاطة.

سألت والدته:

- هل أنت بخير يا ابنتي؟ لم أعتد طول غيابك.
- بخير جدًا يا أمي، سعيدة لأن كنان سيخرج أخيراً من هذه المدينة القاتمة.
- ألا تحبين عملك؟
- عملي ليس هنا، أنا لا أحب هذه المقبرة منذ مرض أبي، أجلت العام الأخير في الجامعة مرتين متتاليتين لأنني بت أمقت المؤسسات الطبية كلها، أظنني سأبحث عن شيء غير الطب..
- فيم تفكرين؟

لبثت دقائق، خطرت ببالي فكرة، أخبرته بها ووافق أن يساعدني.

- أنت نبيل حقًا، ينقصك خيل وزي فارس.
- والسيف؟
- لا يلزمك، استردادك حقوق المظلومين يكفي.

قلتها وأنا أعنيها تمامًا، من غيره أرسله الله لي ليرد لي مظلمتي مني؟ من جعلتني كلماته أفيق؟

- أنا سأذهب لغرفتي يا هتون، متى تذكر هذا المدلل شيئًا أعلميني.

ورحلت. لن أنسى صبرها واستراجعها يوم أخبرتها عما ألمّ بكنان. كان قد مضى أسبوع حين رأته آخر مرة. سألتها:

- هل تؤمنين بقدر الله خيره، وشره؟

أجابتني بنعم، مستغربة سؤالي.

- ألا تتسائلين أين كنان؟

- هو في رعاية الله، وفي قلبي.

تجاسرت وقلت:

- إذن، أريد إخبارك شيئًا.

وأخبرتها بما حدث، لم أخف شيئًا. حين انتهيت أخفضت رأسي خجلًا، لأنني من تسبب في هذا الحدث، ولو لم أكن من أطاح به.

- لا يضيّع الله عباده، سيردّه إليّ، وسيجبرني فيه، كما يفعل في كلّ مرّة.

أمسكت كفي وأخبرتني بإيمانٍ قويّ أن الحذر لا يُغني من وقوع القدر، هذا ما كتبه الله عليه، وما علينا إلا الرضا.

سألت كنان:

- هل تذكرتَ والدتك؟

- وأخي المتوفى، وأبي..أشعر أنني أكرهه. حين سألت أمي، لم تجبني إجابة شافية.

قلت مباغتة:

- ونوّارة؟

- لا أعرف. اسمها يثير فيّ مشاعر متناقضة، تارة حبّ، تارة أحسّ بغصّة في حلقي كلما استمعت لرسالتها، ملامح وجهها تزورني بين حين وآخر، تحملُ معانٍ غريبة، داخلي يتصارع.

- لا بأس، الوقت كله معك، لا تتعجل شيئًا، هارون يتولى تأجيل القضايا التي أصر أصحابها أن تديرها أنت، ووكل

أحـد رفقتـه بالبقيـة.

- مضــت أشــهر عــلى هــذه الراحــة، أخــشى أن آكل حقــوق النــاس.
- لن يحدث، كل شيء سيصبح بخير.
- الحمد لله ياهتون، أين كنت وأين أصبحت.. الحمد لله.
- تعجبني نبرتك الراضية، لقد أزلت خوفي منك.

ضحك.

- أكانت نظرتي مخيفة لهذه الدرجة؟

قلت بتلقائية:

- كانـت نظـرة انتقـام ياكنـان، لقـد خفـت أن تظننـي هـي، أن تكرهنـي أنا، وليــســ...
- من هي؟

تنبهت لما سقط به لساني، فقلت مرتبكة:

- أعني، السيدة سائقة.. الدراجة النارية.
- متأكدة؟

قلت وأنا أشتت عيني:

- أجل.. متأكدة.. تمامًا.

لزم الصمت طويلًا، وقال بنبرة مغايرة:

- لم أعهدك مراوغة يا هتون.

رفعت عيني إليه بصدمة:

- فيم أراوغ؟ أنا لا أخفي شيئًا.

- منذ عشرة أيام، تحديدًا يوم عودة جهاد، وأنت لا تغادرين غرفتك، ولا تأتين لزيارة والدك حتى. وهذا المسكين المبتور-وأشار لنفسِه- الذي تعهدت أن تساعديه حتى يكون بخير، تجيبينه بأنك مشغولة ولا تستطيعين أن تأتي، حججك باطلة.
- كنت أحتاج أن أكون وحدي، أن أستجمع نفسي مجددًا، كان يمكنني أن أكون أكثر قوة. لا أعرف يا كنان، الأمر يحتاج وقتًا لأتخطاه، ليس جهاد، لأتخطى يوم المطار تحديدًا، لم تر نظرته النادمة، ولم تر كيف تخطاهم وعانقني، شعرت أنه يفعل هذا فقط حبًّا.. وحين عدت أفكر، كان لشيء آخر داخله، غير الحبّ. أنا سعيدة لأنني صرت امرأة حرّة، سعيدةٌ جدًا لأنني تخطّيت قلبي، وسرت فوق رغبته، لكن أثر قدمي فوق قلبي لا يزال يؤلم. ولن أخفي عليك، أشعر أنني أتنفس، ولو بتعب، أنا أتنفس، وأحتاج وقتًا فقط..
- وقتًا لماذا؟
- لأن يلتئم جناح الفراشة داخلي، لأن يكون سعيي الوحيد هو أن أطير.
- فيم تفكرين؟

قلت وأنا ألف ذراع حقيبتي حول يدي بقوة:

- أخشى من تفكيري بأن يشرب جهاد من ذات الكأس، أن أضعه في عقلي، وأن أنسى إلام سيكون سعيي، أخشى أن

يتبـدل معـدني وتسـتحيل كل أفعـالي انتقامـا.

ابتسم مشجعًا:

- لا تخـافي. الإنسـان الحـرّ أبـدًا لا ينـسى مسـعاه، لا ينـسى، مهـما سـار بـه قـدره في اتجـاه مغايـر.
- أخاف ألّا أعود كما كنت.
- سـيبرأ قلبـك مـن جديـد، مـن مثلـك لا يسـتطيع أن يحيـا معترفًـا بهزيمـة قلبـه، سـيبحث عنـك الحـبّ، الحـبّ الـذي تحلّقـين في سـمائه حـرّة، وتكملـين سـعيكِ، لا الـذي تحيطـكِ فيـه جـدران مـن زجـاج.

عبثت بحقيبتي مجددًا في توتر، فقال مشاكسًا:

- هـل أتيـت لتطمئنـي عـليّ فقـط؟ أم أن العابـر كنـان لـه سرّ آخـر سـيصحبه معـه وقـت رحيلـه؟

تعجبت قراءته لي بهذه السهولة.

- أنت ..لست طبيعيًا.
- انظري لما فعلت بيدك، هات ما لديك.

أخرجت ورقة ومددتها إليه، نظر إليها طويلًا وقال:

- أنت غالية، ونادرةً، مهما حدث، يا ماسّة.
- ماسّة؟ تقصد الحزينة هتون.
- مـن يلعـق جرحـه ليطببـه بنفسـه، ويـداوي كـسر جناحـه بنفسـه، مـن يرمـم خرابـه بنفسـه، لا يمكنـه أن يكـون حزينًـا أبـدًا.

تجاهـل سـخريتي، ولم أعلـق لتعقيبـه.. إنـه محـق، محـق تمامًـا. سـألني

بصوت خفيض، كأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- هل نأكل المثلجات؟
- في هذا البرد؟أنت مريض.
- بنكهة الليمون.

تذكرت عهدنا الماضي-الذي لم أذكره به بالطبع-، لن يهمه في شيء إن تذكر أو لَا، الفارق أنني من اقترح النكهة، الآن هو يعلم ما أفضل لطول زياراتي مع والدته إليه.

أجبت مازحة:

- والليمون مفيد للمرضى أيضًا، سأمر على بابا، وآتيك به.
- وأغلقي الباب الذي تنسينه دائمًا.

استدرت قائلة ببسمة صغيرة:

- أنا اتعمد تركه مفتوحًا.
- لماذا؟
- هكذا أفضل.

تركته وغادرت. سألت الممرضة إن كان أبي موجودًا، قالت في جلسة التمارين لأجل ساقه. ذهبت إليه، وجدت جهاد جواره، لا يفارقه مذ عاد. إنه شخص عمليّ، يتدبر أمره بنفسه، يستطيع أن يواكب حياته، وأستطيع القول انني ألحظ تغيرًا طيّبًا في نظرته، وكأنها أصبحت أكثر لينًا، إن هناك شيئًا ما به.. قد أحسَّ به حين افترقنا، أعتقد أنه الرفق بنفسه.

«كلنا بحاجة لأن نتعلم الدرس». قلتها براحة ومضيت. وضعت كلتا يديّ في جيب معطفي وسرت نحوهم، ألقيت التحية، أومأ برأسه

ولم يجب، اطمأننت على صحة أبي، وسألته:

- بابا، قلت أنك سترى كنان اليوم.. أردت أن أذكرك بالموعد.
- نصف ساعة يا بابا..وننتهي.

قال جهاد بنبرة فيها شيء من ضيق:

- يجب أن ترتاح قليلًا بعدها يا عمي، يمكنه الانتظار ساعة أخرى.

تجاهلت نبرته.

- كما تشاؤون..هل تناولت طعامك؟
- جهاد لا يتركني قبل أن يطمئن عليّ.
- تقول أنني المقصرة طبعًا! هل لأنني تغيبت أيامًا قليلة؟
- الأيام القليلة في انتظارك عمر يا بابا.

احتضنت رأسه، قبلته وهمست في أذنه كالمعتاد بيننا:

- أنا بخير كثيرًا. أستطيع أن أتنفس، كن أنت بخير لأجلي.. هل اتفقنا؟

أومأ مبتسمًا، بادلته البسمة، وغادرت.

- ماسة.

على بعد خطوات سمعته يناديني، استدرت، مواجهة إياه ببسمة صغيرة مجاملة، منتظرة حديثه.

- أنت.. بخير؟
- كثيرًا جدًا.
- أردت الاطمئنان عليك، على كل حال، كوني بخير دائمًا.
- وأنت أيضًا.. كن بخير دائمًا.

- لستِ غاضبة؟
- أبـدًا.. لقـد هـدأ كل شيء منـذ تحـررت مـن كل مـا حـولي مـن ضغوطـات، مثلًا..قلبـي، وأنـت، وحـزن أبي، ونفـسي اللوامـة، وقـررت أن تسـير حيـاتي بتناغـم بسـيط، لا يلقـى فيـه بحيراتهـا أحجـار، بـل وريقـات شـجر تسـقط بهـدوء.

سأل برجاء:

- وقلبك ياماسة؟
- وقلبـي ياجهـاد. مـن الآن سـتناديني باسـمي» هتـون»، مثـل سـائر النـاس.
- سائرِ الناس؟
- أجـل، لـن أسـمح لـك أن تناديـني بـه؛ منحـت هـذا الاسـم تدليـلًا. وأنـت لم تعـد مـن أهـلي، ولا مـن أهـل قلبـي، لـذا لا تحـاول مجـددًا أن تنـال مـا ليـس لـك، ولـو كان محـض تدليـل لي.
- لكن..قلبك..لازال حبيبي.
- وأنـا.. تحـررت مـن حبيبـك، حتـى لـو دام فيّ، واعتـصرت بسـببه الألم كل ليلـة.
- أنا كنت أفكر، كنت سأتركها بعد..
- تترك أخرى لا ذنب لها؟ هذا حمق.

هـل تعـرف الكلـمات التـي تـأتي متأخـرة جـدًا؟ كأن يهلـكك المـرض، وبعـد أن تتعـافى، يأتيـك مـن يخـبرك أنـه لم يفهـم أنـك كنـت مريضًـا. كأن تلهـث مـن السـير حافيًـا، وحـين يـرى أحـد تشـققات قدمـك يقـول أنـه

ظنها محض شوكة، وأن لهاثك كان من حرّ الشمس. هل تعرف كم شمسًا زارتنا من المشرق، وأبيتُ أن أحسن ضيافتها ولم تسطُع على وجهي؟ هل يمكنك أن تخمّن حجم العادية التي تحوّل لها قلبي؟ ربما بحجم ما أحببتك، لا، لن أكذب.. لا زلت أحبّك، لكنه حبّ ناضج لم أودّ أن أعيشه. أحب أن أراك بخير، وألا أرى فيك سوءًا، لكن لا أريد أن يمسني من خيرك أو سوئك شيء. أحب أن أراك سعيدًا، فرحًا، قليل الغضب، كثير الصبر، أحب أن أراك تصيبك نسمات الرضا، وأن تتجنب سخط الدنيا، أحب أن أراك رحيمًا بالناس، وبنفسك أولًا. أحبّك كثيرًا، لكن لا أحبّ أن أكمل حياتي معك. أحبّك جدًا، لكنني أنفر من هذا الحب، قد أضرني أكثر ما نفعني فوجب بتره.

لم أكن أحسب أن قلبي سيشيخ من شيء اسمه حبّ، كيف يمكن أن يهلكني ويرممني حبّ ذات الرجل؟ رجل كان الكون بالنسبة إليّ. أول من عميت به عيني، وتمنيت أن أتشارك كل شيء معه ولأجله، أحقق أحلامي معه، أبكي وأضحك، أصلي وأصوم، أمشي وأجلس، رجل حاز من قلبي أول كل شيء. أول نظرة، وأول لفتة عين بحياء، وأول من واريت له ستار فؤادي ببطء.

رن هاتفي، كان هارون.

- كنت أريد الحديث إليك.
- عن جهاد بالطبع. تسلمت ورقة إلغاء القران أمس، متأكدة أنك تريدين هذا؟

تجاهلت سؤاله.

- كنت أريد الحديث إليك بشأن كنان، ما القضية التي

ذهبت إليه فيها منذ سنوات؟

- أنت غريبة، أنت حقًا غريبة.
- هارون، من نوّارة التي تركته؟
- زوجه.
- لم تركته؟
- لم تركتِ جهاد؟
- لماذا تركل الكرة في بطني؟
- لم تفعلين بجهاد هذا؟ إنه نادم.
- لم فعلت نوّارة بكنان هذا؟ إنها أيضًا نادمة.

زفر بضيق وهو يخبرني أن نوارة لا تعيش مع والدها، بل مع أمها، وزوج أمها، بعد انفصال أبويها وهي طفلة. التقت بكنان في الجامعة، وأحبها وأحبته. قال:

- لكنك تعرفين، الفرق المادي في المعيشة جعل والدة نوارة تفكر مليًا بأنها لن تستطيع التباهي بزوج ابنتها الوحيدة، ومكانته أو عائلته المرموقة، و غيره من هذا الهراء. وبدأت تدخل هذه الفكرة في عقل ابنتها لكنها لم تأبه، اضطرت للجوء لزوجها ليساعدها، ولما عرف هوية كنان هددها بأنه سيؤذيه، وبأنه آخر إنسان يمكن أن تتزوجه.
- لماذا؟
- لأن زوج والدتها، هو والد كنان نفسه، لقد ترك كنان وأمه، بعد أن كانت حياته معهما مخزية، وعمل لدى والد نوارة حتى وافته المنية، ثم تزوج والدتها، كي يستطيع أن

ينـال نصيـب الأسـد مـن كل شيء.

شـخِصَ بـصري، وكممـت الصدمـة فمـي مـن غرابـة مـا سـمعت، ومـن مجـرد تخيـل مـا يحملـه كنـان في ماضيـه. حثثتـه أن يتابـع.

- بعـد فـترة وافـق والـد كنـان وأقنـع زوجـه بإتمـام الـزواج، وتزوجـا أشـهرا قليلـة، حتـى حـدث مـا حـدث. سرقـت نـوارة ملـف قضيـة تعـد الأهـم في حيـاة كنـان المهنيـة، وأعطتهـا لـزوج أمهـا.
- بأمر من هذا الرجل؟

لـزم الصمـت ففهمـت أن نيـة والـده في تزويجهـما لم تكـن سـليمة. قـال كنـان أن الملـف كان يديـن أناسـا ثقيلـة مـن رجـال الأعـمال، وأن أحدهـم لـو اشـتبه بـه، فسـيقدم والـد كنـان ككبـش فـداء. لم يتكلـم أحدنـا لفـترة. تذكـرت رسـالة نـوارة، فهمـت أسـبابها، هـي لم تهـدد بالحرمـان مـن المـال فقـط، الأمـر أكـبر مـن هـذا. قلـت وأنـا أنهـض بثقـل:

- هــذه الدنيــا، متــاع الغــرور. لا تســتحق كل هــذا الركــض خلفهــا.
- صدقـتِ، لـذا أقـول لـكِ.. لا تعـذبي نفسـك، امنحـي نفسـك وجهـاد فرصـة.

رددت بهدوء:

- أنــا لا أفلــح إلا في عــذاب نفسي،أعنــي ســابقًا لم أفلــح إلا في هـذا. الآن أنـا متيقنـة تمامًـا أننـي أريـد خـوض هـذا العـذاب للنهايـة.

صمت قليلًا وأعاد سؤاله:

- هل يمكنك..المحاولة؟
- لا. مـا بقـي لي مـن محـاولات سأسـتخدمه لأعـود إنسـانة متزنـة، طبيعيـة بـلا وسـاوس فقـد، وهلـع للرحيـل، مـا بقـي لي منـي سـأبذله للمحتاجـين وأولهـم أنـا.. أريـد أن أبحـث عـن ذاتي.

وقلت بعد تنهيدة طويلة:

- وعن..والديّ.
- ما الذي أعاد هذا الكلام لرأسك؟
- أريـد أن أعرفهـم، لـن أقـول أننـي أسـامحهم، لكننـي أود أن أعـرف حالهـم، ولمـاذا ألقيـت هنـاك.
- أنت تنبشين قلبك.
- أنـا أريـد أن أعـرف مـن أنـا حقًـا. ربمـا يسـاعدني كنـان. و.. لم تخـبرني، مـا القضيـة التـي أتيـت لكنـان فيهـا؟
- لي صديـق يريـد البحـث عـن أختـه، والـده تـوفي ولم يحـك لـه عنهـا، وعـرف بمحـض الصدفـة.
- وما هي هذه الصدفة؟
- حديث صديقين.
- من هو صديقك؟ يمكننا البحث سويًا.
- لاحقًا أعرّفُك عليه.

## (١٢)

- هل تشردين أثناء الكلام كثيرًا؟
- مؤخرًا.
- تشعرين بالصداع؟
- أهدأ بالمسكنات.
- هل أنت مزاجية؟
- بـدأت أضبـط حـدة أفعـالي أمـام النـاس. عندمـا أكـون وحـدي يمكننـي أن أبتسـم وأنـا أبـكي عمـدًا.
- هل تنتابك مخاوفك وأنت وحدك؟
- أجـل، وقبـل أن أنـام، وحـين أكـون مشـتتة أو أواجـه ضغطًا مـا، تجتمـع فـوق رأسي، أغطـي جسـدي كامـلًا لكنهـا لا تذهـب، مهما كان خـوفي بسـيطًا فإنـه يتشـكل لي ككائـن مرعـب، أسـتطيع أن أراه بوضـوح، عقـلي يؤمـن أنـه خيـال، لكننـي أخشـاه، وأخـشى ضحكاتـه الشريـرة، وأركـض لأجلـس جـوار أي شـخص في البيـت دون أن أخبرهـم، لأننـي مقتنعـة أن لا أحـد يـراه، وأن هـذا خـوفي أنـا.
- متـى كانـت آخـر مـرّة أصابـك هـذا الخـوف؟ الكائـن المرعـب تحديـدًا؟
- الأسـبوع الفائـت، كنـت سـأركب المصعـد وحـدي، كان الممـر إليـه مظلـمًا، ركضـت حتـى دخلتـه، حاولـت أن أهدأمـن أنفـاسي لكـن

عقـلي لم يتركنـي.

- صفي لي خوفك.
- أنا فاشلة في وصفها، أستطيع الهروب منها.
- ليس بعد الآن.
- لا أستطيع..إنه كائن مرعب.
- بم شعرتِ حين دخلتِ المصعد؟
- كأن خـوفي المتجسـد هـذا يحـوم حـولي، ويتضخـم كلـما ضاقـت أنفـاسي. كنـت أشـهق وأسـتدير كل ثانيـة، عينـي لا تسـتقر لموضـع، مترقبـة لـشيء مـا أن يحـدث، لا أعـرف مـاذا يمكـن أن يحـدث، كنـت أرتعـد حقًـا، حـين فتـح المصعـد رأتنـي صديقتـي، وسـألتني مـا بي، أخبرتهـا أننـي خائفـة، وتعجبـت أنـه يمكننـا أن نخـشى البقـاء وحيديـن ونحـن في هـذا العمـر.
- تخافين الوحدة؟
- هي هاجسي الأكبر، لا أستطيع البقاء وحيدة أكثر من دقائق.

توقفـت أسـئلته، راجـع بعـض حديثـي، ولم يعلـق سـوى بكلـمات بسـيطة.

- لا أسـتطيع التحديـد مـن الجلسـة الأولى، أنـت تعرفـين، أمامـي تشـخيص لأكـثر مـن ثـلاث أمـراض مختلفـة، ولـن أعطيـك إجابـة دقيقـة. يمكننـي مسـاعدتك بتماريـن اسـترخاء بسـيطة، تنفذينهـا مرتـين كل أسـبوع مثـلًا.. ولنـا زيـارة الاسـبوع القـادم.

نهضت وشكرته على مساعدتي. عند الباب ناداني وكأنه تذكر شيئًا:

- يمكنـكِ أن تكـوني سـيئة كثـيرًا، ترتكبـين الأخطـاء كثـيرًا، تهربـين

مـن كل شيء كثـيراً، يمكنـك أن تكـوني كثـيراً كل مـا تشـائين.. رغـم كل هـذا، تسـتحقين أن تنـالي الحـبّ والأمـان كثـيراً كثـيراً. هـل اتفقنـا؟

- رغم أنني لا أحب نفسي وأغضب من تصرفاتي، وأؤنبها دومًا؟

ابتسم بطمأنينة:

- رغم أي شيء..

## (١٣)

*«وأنتِ التي قطّعتِ قلبي حَزَازَةً*
*ورقرَقتِ دمعَ العين فهي سجُوم*
*وأنتِ التي أغضبتِ قومي فكُلُّهم*
*بعِيدُ الرّضَا دانِيَ الصدُودِ كَظِيم*
*وأنت التي أخلفتِنِي ما وعدّتني*
*وأشمتِّ بي من كان فيك يلُوم».*

سقطت ورقةً تحوي تلك الأبيات من إحدى ملفات عمله، قلت له بحماس كبير:

- كنان، أنت.. استثنائي حقًا.

نظر لأبي بصدمة عقب كلمتي:

- أنا لست شاعرًا يا دكتور، ولو كنت كذلك، أنا لست بهذه المهارة.

ضحكت كثيراً لدهشته، وابتسم أبي لأنه يدرك حيرته. قلت:

- بالطبع أنت لم تكتب شيئًا بهذه القوة، إنها أبيات قديمة جدًا. أستثنيك لأن اختياراتك تبهرني.

قال أبي معتذرا عن اندفاعي:

- إنها مهووسة بالشعر العربي يا بني، اعذر تطفل ابنتي.

وزجرني بنظرة قوية التزمت على إثرها الصمت، محتفظة ببقايا ضحكاتي في داخلي حتى شعرت أني سأنفجر، فتركتهم وذهبت خارجًا،

أستنشق الهواء من شباك في نهاية الممر.

- الوقت مع كنان مسلٍ؟

لا أحتاج تأكيدًا لمعرفة صاحب الصوت، ولا أحتاج أن أرد على سؤال طُرح بهذه النبرة. عقله يهيئُ له أنني أستعمل كنان ضده، وأنا أبعد ما يكون عما يظن بي.

- كما كان الوقت مع غيري تمامًا.

قلتها بنبرة انتقام، ثم تراجعت عن هذه النبرة، سأحاول ضبط نفسي.

- إنها زوجتي، أنت ترفعين صوت ضحكتك مع رجل لا يقرب لك، ولا يحل لك، وتقولين لي أنك تستمتعين بالوقت هنا. هل تدركين ماذا يسمون ما تفعلين؟

نزلت صفعتي على وجهه نزول الصاعقة على قوم ظالمين.

- هذه.. لتذكرك من أنا.

عصفت رياحه، قبض على ذراعي بقوة آلمتني، قال بنبرة غاضبة:

- هل يملأ هذا.. الفراغ الذي خلفته أنا؟ هل تتشبثين بمساعدة هذا الـ...

- جهاد!

كان صوت أبي الذي أنجدني، حررت ذراعي منه. قلت متغلبة على الألم موضع قبضته، والألم من كلماته:

- أنت لم تخلّف فراغًا يا جهاد، أنا لست مستودع قمامة لأحتفظ بمخلفاتك في قلبي، جذوري متغلغلة ضد عواصفك خصيصًا، يسقط علي أوراقي التراب وأنفضه جيدًا، لا يتراكم

فوقي إلا الندى؛ أعرف كيف أستأصل الأوراق التي أحسّ أنها ستضعفني، أنزعها مني نزعًا ولو كان ألم النزع مميتًا، لا أتشبث في هذه الدنيا اللعينة إلا بأبي، أما أنت..

لم أكمل، كنت سأخبره أنه كان أسوأ درس تعلمت منه، ولم أقل. لن أودي بنفسي في هذا الوحل؛ وحل الانتقام، أو رد الصفعة بأشد منها، يكفي ما ناله مني وما نلت منه. نظر إليّ نظرةً حانقة. أعرف، داخله غاضب أكثر لأنه أخطأ في حديثه، أعرف أنه لم يقصد ما قاله، أسامحه، أتفهم غضبه، لكنني لن أخبره. يومًا ما كانت الأدوار متبادلة بيننا. أشعر به، لذلك أسامحه.. حتى لو لم أخبره.

- شيءٌ آخر..اسمه كنان، الأستاذ كنان، نحن لا ندعو الناس بـ«هذا»، تذكر أصول مهنتك أيها الطبيب.
- هتون! اذهبي من هنا.
- بابا.. أنا لم..
- اذهبي..

نظرت حولي، كان الناس يتهامسون، وابتعدت. في أي فضيحة تسببت يا جهاد، بل أي فضيحة فعلت أنتِ يا حمقاء؟ من أخبركِ أن فتح الدفاتر القديمة سيحل عقدة؟ هكذا تربطين عقدًا جديدة، الدفاتر القديمة تلقى بعيدًا، وتحرق. هذا خيرٌ لها ولأصحابها. هل كنتِ تودين أن تعبثي بعقله لثانية؟ هل أردتِ استفزازه؟ هل أنت سعيدة الآن؟ إلام تنظرين؟ كل العيون عليك، كل الحديث عليك.. ستتوترين الآن؟ ستقفين كلوح الزجاج منتظرة أن تأتي شوق أو رهف لتنجدانك؟ إلام تنظرين؟

- هتون، فيم تحدقين يا ابنتي؟

كانت والدة كنان، ترافقها ممرضتها.

- أ..أنا..آسفة، علي أن أذهب لأبي.

شققتُ طريق المارة المتهامسين غير عابئة بتعليقاتهم، إلا امرأتين سمعتهما يقولان:

- أراهنك أنهما عاشقان.

- يبدو أنه زوجها، معه حق، عليه أن يقومها للصواب.. إنها امرأة عنيدة.

وقفت أمامهما وعقدت ما بين حاجبيّ فاكفهر وجههما. التزم المارة الصمت مترقبين أن أصرخ فيهم، البشر لا يتغيرون، يحبون الفضائح، يقتاتون على أخبار الناس، يلوكونها في أفواههم كل يوم، وكل ساعة. لم أنطق بحرف، تركتهم وأكملت سيري.

كان باب الغرفة مفتوحًا، لاح أبي وجهاد يتحادثان، بل يتهاجمان.. هل أدخل ليزداد الأمر سوءًا؟ أم أنتظر ريثما ينتهيان؟ لن أنتظر..

- اضبط نفسك ياجهاد، أقول لك إنها شقيقته، وهذا تقرير الفحص، تأكد بنفسك.

- كيف؟ وأنا الذي..

- جهاد، جميعنا نعلم أن هارون ليس شقيقك، وأن والدته ليست والدتك. هل تهدأ حتى أخبرك؟

من جميعنا الذي يعلم يا أبي؟ أنا لا أعرف هذا. كيف لا يكون هارون.. أخًا لجهاد؟

- أعرف أن أبي تزوج والدة هارون، وهارون في الثانية من

عمـره، وأن زوجهـا السـابق قـد استشـهد في القـدس.

- أحسـنت. هـارون ليـس طـرف الخيـط، بـل إن كنـان كان الحلقـة المفقـودة. والـدة هـارون أخبرتـه أن لديـه أختًـا رضيعـة، اختطفوهـا منهـا قبـل أن يعـبروا الحـدود للبنـان. والـدك قـال أنـه تحـرى عـن الأمـر، وفعلـت ذلـك معـه، ورغـم كل هـذا لم أعـرف أن شـقيقته قريبـة منـا لهـذه الدرجة. يأسـنا كثـيرًا، ولمـا كـبر هـارون أراد أن يجدهـا، أن يعـرف حتـى إن كانـت عـلى قيـد الحيـاة، كان كنـان نجاتـه، وكان لـه صديـق مـن الشرطـة يسـاعده في التحـري عـن الأمـر، المهـم أن كنـان توصـل إلى حـل واحـد يؤكـد شـكوكه، غـير تحليـل الحمـض النـووي.

- ماذا؟

- توصـل كنـان لأحـد الأشـخاص الذيـن يسـاعدون في تهريـب الفلسـطينيين إلى حـدود لبنـان والأردن وغيرهـا.. سـاعده في أن يعـرف أخبـار والـدة هـارون ومصـير ابنتهـا، قـال أن هنـاك مـن وجدتهـا ليـلًا تبـكي عـلى مقربـة مـن ركام قريـة هدمـت، وسـافرت بهـا لبلـد أخـرى.

- جيد، من هذه السيدة؟

- كنان لا يتذكر.

صاح جهاد وهو يضرب المكتب بقبضته:

- هل هو فيلم إثارة؟ ماذا يعني لا يتذكر؟

- يعني أننا سنصبر.

- والأوراق التي تثبت أي شيء من قوله؟ واسم الشخص الذي دله على هذه السيدة؟
- لقد مات.

طرقتُ الباب بهدوء ودخلت، قلت لأبي أعتذر، قبلت رأسه، ورحلت. لا أستطيع النظر إليهم، ستكشف عيني أنني استمعت لهم، و.. ماذا يعني أن هارون ليس أخاه؟ إنهما متضادان حد أن يكون أحدهما من مشرق الأرض، والآخر من مغربها.. لكن هذا لا يعني ألا يكونا أخوين. ماذا يعني أيضًا أن والدة هارون ليست والدة جهاد؟ إنهما ليسا نصف أخوين حتى. مشيت أفكر، نسيت نظرات الناس منذ قليل، وتخافتت حولي الأصوات.. مضيت أفكر فقط في كيف لإنسان أن يعيش حياته بطبيعية، بينما هي لا تمت للعادية بِصِلة؟ أخذت طريقي للمختبر. طرقت الباب ودخلت.

- هارون.. لِمَا لم تخبرني.

نظر خلفه وقال ببلاهة.

- أخبرك بماذا؟
- أنكما لستما أخوين.
- ظننتك تعرفين.
- هل رهف تعرف؟
- لا أعلم.. لكنني ظننتك تعرفين.

قصصت ما سمعته، فقال بهدوء:

- الأمر لا يشكل مشكلة بالنسبة إليّ، ولا لجهاد، ولا لأمي وأبي.. أنا لم أفكر يومًا سوى بأن سليم هو أبي، وهو لم

يحاول أن يريني عكس ذلك. كان يغلق كل الأبواب التي يفتحها عقلي، ويدع أمي تخبرني عن أبي المتوفى، وانتهى! جهاد كان له دور كبير في أن يدعمني، ويساعدني في تعليمي. وفي كل شيء.

- حتى عندما..
- لا، حين قررت الهرب، والذهاب لفلسطين.. كان الأمر سرًّا.
- كيف؟
- دائمًا كنت أشعر أن هناك شيئًا يغلي في داخلي، وأنا خانع بالخارج، والأحرار هناك يستشهدون شامخين، لم أكن أريد أن أقف مكتوف اليدين، هذا وطني، هويتي، ومنشأي الذي لا فرار منه.. إلا إليه.
- ولكنك ..كنت صغيراً.
- أربعة عشر سنة ليست عمرًا قليلًا أبدًا، نحن من نزرع هذه الفكرة في عقول الأبناء، أربعة عشر عامًا تعني رجلًا واعيًا بما حوله، رجل يحاسب على أفعاله وكلماته كما يحاسب على صلاته. التلفاز كان مليئًا بالأبطال الذين لم يتجاوزوا السابعة، كان مشهدًا كافيًا لاستفزاز رجولتي، كنت بين نارين أعظمها البقاء هنا.. هل أقتل رجولتي، وأكمل حياتي ناقصًا بيني وبين نفسي؟ لم أفعل، دبرت الأمر مع أشخاص تواصلت معهم، تركت البيت ليلًا، وتركت لأبي رسالة صغيرة على السرير قلت له فيها «إما أن أحيا كالأحرار أو لا أحيا.»

قاطعته:

- ربما كانت رعونة المراهقة.. ألم تحاول أن تخبر قريبًا منك مرّة؟
- طرح الفكرة كان مستحيلًا، أبي كان يعلم غلياني، لا أشاهد الأخبار إلا معه، لكي يعلق بكلمات يظن أنها ستهدأ ثورتي.. حين ذهبت هناك، آوتني عائلة صغيرة، كنا نعيش في بيت صغير، أخبرتهم عن بغيتي ومرادي، حثتني ربة البيت أن أعود، وأن أصحب معي ابنتيها، لم أوافق.. كان الأمر مرهقًا في البداية، مرهقًا جدًا.. بكيت كثيراً يا ماسة، ليس ندمًا، لكن حسرةً وقهرًا.
- صفهم لي.
- هم أفضل منا بكثير، لديهم الرضا الذي نزعم أنه لدينا ولا نملكه، وعزة لم تخلق إلا لهم وفيهم؛ لو رأيت كلّ واحد منهم، لن تستطيعي أبدًا أن تقولي أن القدس محتلة، يستطيع النظر إلى واحد فقط أن يقنعك تمامًا بأن بلادهم حرّة عملًا وليس قولًا، ستقولين أن كل امريء منهم هو القدس يسيرُ على قدمين.. هو فلسطينُ كلّها، بشموخها خلقت في كل رجل وامرأة.
- ألا يحزنون حين يستشهد أهلهم؟
- أول من استشهد أمامي، كان فتى في العشرين،لا زلت أذكره، كان يدافع عن بنت من فتيات القرية، وكوفيء برصاصة في رأسه.. وقتها رأيت والدته تقبل عليه، تقبل رأسه وتبكي

بـكاءً حـارًا، تقـول حبيبـي الشـهيد، حبيبـي الشـهيد.. وتدفعـه للرجـال ليهمـوا بدفنـه. ن قضيتهـم الوحيـدة أن تعـود إليهـم أرضهـم، وفي سـبيل الأرض، كل شيء قابـل للخسـارة، حتـى لـو كان ابنًـا، إنهـم يؤمنـون بلقـاءٍ آخـرَ في الجنـة.

هبطـت دمعـاتي متأثـرة، كان يحـكي مـن أعـماق أعماقـه، لا أذكـر مـا الـذي جـرّ الحديـث بيننـا لأن يخـرج مـارده النائـم، ويحـكي قصتـه التـي، لأول مـرّة، أعـرف تفاصيلهـا الصغـيرة.

- كيف عدت ياهارون؟ كيف عدت؟
- دوهمـت القريـة في ليلـة، وهـدم البيـت فـوق رؤوسـنا، سـقط السـقف فوقـي وأنـا أحـاول المسـاعدة لأخـرج السـيدات والصغـار بعيـدًا عـن الـركام، أفقـت بعـد أيـام وسـمعت صوتًـا يقـول «لازال حيًّـا.. أقنعـوني بالعـودة، لأجـل أهـلي، لـن أخفـي عليـك ياهتـون، أنـا كـدت أنـسى أهـلي وأنـا هنـاك، كل مافكـرت فيـه أن أمـضي عمـري وأنـا أحـاول..
- فيم تحاول؟ إرضاء نفسك؟
- أن أصلي في القدس مرّة.
- وهل نجحت؟
- لم أفلح..

لـزم عـلى إثرهـا صمـت حزيـن، احترمتـه كثيرًا، وتركـت لـه وقتـه كلـه، إن أراد ألا يتكلـم فليفعـل، إن أراد ألا يكمـل فليفعـل، لا أحـد يلـوم النـازف عـلى صراخـه، وصراخ هـارون صامـت كالليـل الطويـل. تابـع بنـبرة متقطعـة:

- دبـروا لي وسـيلة للخـروج، ورافقنـي عيـسى، كان يهتـم بي منـذ ذهبـت، مـن أوائـل مـن عرفـت، ظللنـا معًـا حتـى حـان وقـت رحيـلي، واطـمأن لسـير الإجـراءات بأمـان، وعـدت، هاربًـا في الأنفـاق كـما ذهبـت.
- كيف وجدك عمي؟
- لم يجـدني هـو، وجـدني صديـق لجهـاد. كنـت أسـير في أحـد الشـوارع، مرهقًـا، ومتعبًـا مـن إصابـة سـاقي التـي لم تـبرأ، دلفـت متجـرًا لخدمـات المحمـول، وطلبـت أن أجـري مكالمـة.. لم أكمـل الرقـم وسـقطت مغشـيًا عـليّ، أيقظنـي مـن هنـاك وسـألني عـن اسـمي فأخبرتـه، ثـم سـألني مـاذا تفعـل هنـا، ألم تتركـوا هـذه المدينـة منـذ ثلاثـة أعـوام؟ لم أعـرف بـم أجيبـه، قلـت لـه أننـي كنـت في سـفر مـع أحـد أقاربنـا، وطلبـت منـه أن يخـبر جهـاد أننـي هنـا.. أخـذني لبيتـه وتركنـي أنـام. أتى جهـاد ليـلًا، لم يصـدق أنـه أنـا حـين رآني، وجهـي وجـه رجـل، لا الطفـل الـذي كان يتبعـه في كل خطـوة، ملامحـي ثوريـة، وقـد صرت طولـه، أول مـا فعـل أنـه صفعنـي.
- ماذا؟

ابتسم.

- صفعـة أصابتنـي بالـدوار، لا زال أثرهـا هنـا، انظـري إلى هـذه الندبـة، إنهـا موضـع ظفـره، لم أحـاول أن أعالجهـا، ثـم حـين رآني سـأبكي عانقنـي عناقًـا افتقدتـه كثـيرًا، وقـال أنـه لم يخـبر أحـدًا. في الطريـق تركنـي أنـام مجـددًا، أيقظنـي وظننـت أننـا

وصلنا للمنزل، لم يحدث، أخذني لشقته، جعلني أغتسل وألبسني بيديه، كان يربت على وجهي وكتفي وذراعي وساقي كأنه يتأكد أنني حقيقي أمامه، أنني أنا حقًا، أنني هارون أخاه. هل تعرفين؟ في صغرنا كان يحب سورة طه كثيرًا، ويقرأها عليّ، وحين يصل لآيات»هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري» ؛ كان يقرأُها بصوت عالٍ، ويقول لي دومًا أنه ينتظر أن أكبر حتى أشد من أزره.

قلت من بين دمعاتي:

- أريدك أن تكمل قصتك كلها.
- كما كنت تقصين عليّ قصة النمرة؟

ابتسمت له:

- قصتك أفضل، وتتفوق عليّ.
- قصصكِ ألطف، وأحنّ.
- أكمل. ماذا فعلت بعدها؟
- تأكد جهاد من نظافة الجرح، وأتينا إلى البيت. كانت الشمس لم تشرق تمامًا، لكن نور الصبح قد طلع. طرق جهاد الباب ففتحت لنا شوق، ولما رأتني، لم تعرفني، كنت متوترًا جدًا، وخائفًا، وقدمي..

قلت له متذكرة شعوري حين ذهبت لوالدة كنان للمرة الأولى:

- ملتصقة بالأرض، مثبتة بغراء.
- أجل، بالظبط، كنت أريد أن أخبرها من أنا، أن أعانقها وأعتذر لها أنني ابتعدت كثيرًا، وأن أشرح لها كل شيء،

لكنها قالت لجهاد» هل أتيت بأحد أصدقائك في وقت الفجر»؟ فتراجعت، ابتسم وأدخلني حيث غرفة عمل أبي، طرق الباب.. و..

- ماذا؟

- سمعت صوت ارتطام بجانبي، كانت أمي تهبط السلم، وأنت تتفهمين، لم تستطع الاستيعاب، خرج أبي إلينا، لما رآني.. شخص بصره عن آخره، قال لجهاد: «كأنه هو..»، فأخبره: «هو يا أبي، هو».

- قصتك هذه، كارثة..

- وأنت تعرفين الباقي، منذ أن طرقت شوق عليكم الباب.

- وعلِق شقيق شوق بمن خلف الباب.

عنيت رهف، لا زلت أحبّ وصفه لها كثيراً، أعاده عليّ:

- إنها متفننة في تدفئة قلبي بغير قصد منها، بسماتها، ولفتتاتها،حتىنظراتعينيها،أينمانظرتوكيفمانظرت..

- بهدوء يا أخي، قلبي لا يتحمل.

ثم قال بحبّ أبلغ ما يمكن أن يقوله رجل مصاب بربو الغربة:

- إنها تبدد غربتي.. تعرف خطواتها الوئيدة كيف تهيئُ الحطب داخلي، لتوقد شعلة الحبّ فيه على مهل. إنها، دون أن تدرك، تعرف كيف تصالحني على هذا العالم البائس، تعرف كيف تكون وطني، كيف تكون قُدسي.

- هل لازال الحب هذا ينمو على مهل؟

- بالنسبة إليها، ينمو على مهل، أما أنا فأكاد أحترق، أما

آن لهـا أن تهـدّأ مـن قـوة النـار؟

ضحكت معقبة:

- لا بد أن ينضج الطعام تمامًا.. تمامًا.
- ألم ينضج بعد؟

قالها بيأس، بملامح تجعلني أبكي من كثرة الضحك.

- لا، لكنني.. أستطيع أن أضيف بعض التوابل.

وقـف مكانـه، يمسـح وجهـه بكفيـه غـير مصـدق، أنـا التـي كنـت أغـار عـلى رهـف منـه، وأغـار منـه عـلى رهـف، لا يسـتطيع التصديـق أننـي أسـاعده الآن. معـه حـق، لقـد أتعبتـه كثـيرًا.

- ستفعلين حقًا؟ لأجلي؟ يالكرمك!
- ليس لأجلك، لأجل أن يحلّ همك من فوق رأسي.
- فقـط افعليهـا، ولـن أكـون إلا نسـمة تهـل عليـك كل عامـين مـرّة.

أخذت حقيبتي واستعددت للخروج من البيت، قال بلهفة:

- هل ستفعلينها الآن؟
- هارون، لا تتلف أعصابي من الآن.
- أنا جاد.
- وأنـا أيضًـا جـادة، مـا بقـي لي مـن تحمـل سـأدخره للمشـفى البائسـة التـي نرتـاد.. اليـوم موعـد خـروج كنـان، سـأذهب لأودعـه ووالدتـه، ولأؤكـد عليـه ألا ينـسى قضيتـي.
- لا زلت تذكرين؟
- لا زلت.. ولن أنسى.

## (١٤)

عـلى بـاب غرفتـه، تـرددت في الدخـول، فكـرت في كل شيء، في كل مـا حـدث، في لقائنـا الـذي لم يكـن عابـرًا أبـدًا، لم يكـن صدفـةً أبـدًا.

«كان قـدرًا لطيفًـا.. الحمـد للـه عـلى أقـداره». تمتمـت بهـا، وأمسـكت المقبـض، ثـوانٍ، ثـم تركتـه وابتعـدت عـن البـاب. لم أنـا حزينـة؟ لأنـه سـيرحل؟ هـل لأننـي أمضيـت وقتًـا طويـلًا في زيارتـه وحزينـة لأننـي لا أحـبّ الفـراق؟ لا، بـتُّ أشـعر أننـي أسـتطيع تقبـل الفـراق، والابتعـاد، مؤمنـة أن كل مـن يعرفنـا سـتؤول نهايتنـا للرحيـل، وكان هـذا، ولا زال كابـوسي الـذي يجـب أن أعتـاده. إذن..لم أنـا حزينـة؟ لأن كنـان أتى كشـعاع نـور؟ لأنـه انتشـلني مـن إحـدى دوامـاتي التـي لا تنتهـي؟ أعـرف، وموقنـة تمامًـا بأنـه لـو لم يفعـل، لظللـت في خيـالاتي هـذه لسـاعات، لظللـت مكاني، تحـت الشـتاء، شـاردةً لسـاعات.. دون أن أشـفق عـلى نفـسي.

موقنـة أن جلـوس كنـان جـواري، وحديثـه الـذي لم يسـتغرق دقائـق إليّ، لم يحـدث مصادفـةً، ولا عبثًـا. هـل أقـول هـذا لأنـه كنـان الـذي أصبحـت أعرفـه؟ لا، لأنـه، كان رسـالةً إليّ، أن الدنيـا لازال بهـا الكثـير ليُعـاش، وليُحـكَى، وليُبـكَى، كان رسـالة تقـول ألا أحـصر بـكائي وسـعادتي وحكايـاتي وإنجـازي في محـور واحـد، سـواء كان هـذا المحـور شـخص أو شيء. كان رسـالة تحمـل عنـوان «لا بـأس عليـك، لكـن هـذه لم تعـد أنـت.» أنـا حزينـة .. لمـاذا؟ ألأنـه تذكـر نـوارة؟

«ما شأنك أنت في أنه تذكر نوارة؟». هاجمتني نفسي.

- لا أريد أن يعود لدائرته المهلكة مجددًا.
- إلى حياته المهلكة؟ أم لا تريدينه أن يعود إليها هي، لأنها نوارة؟
- ما بها كونها نوارة؟
- الفتاة التي أحبّ..
- والتي خذلته.
- لكنه لا يذكر الخيانة ولا الخذلان، يذكر حبه فقط، ثم من عينك نائبًا عنه؟ هل أنتِ والدته كي تقولي أريده أن يفعل أو لا يفعل؟ بأي صفة في حياته تفكرين؟
- بلا أي صفة، كوني إنسانة شهدت ما عاشه، كوني إنسانة عشت ما عاشه، باختلاف المواقف، أنا أتحدث بمبدأ الإنسانية، والرحمة.. أنت نفسٌ ماكرة.
- أنا أخبركِ بما تخجلين من الاعتراف به.
- لا، أنت تريدين أن تزرعي فيّ هذه الفكرة، تريدين أن تقنعيني بما لم يحدث، لن أقع في فخ أحد بعد الآن ولو كان نفسي.
- هتون، أنت..
- أنا لا أحبه، أَلِفت وجوده لأنه ساعدني فقط، هل تريدين تصريحًا أكبر من هذا لتتركي رأسي مرتاحًا دقيقةً واحدة؟
- تحبينه.. تحبينه .. تحبينه..

ترددها الغبية داخلي، هربت من مكاني، حثثتُ الخطى لدورة المياة، طالعت المرآة بغضب، وقلت بصوت مسموع:

- أنـا أمامـي وجهًـا لوجـه، مـاذا بـك؟ لمـاذا تهجمـين عـليّ كأسـد يتضـور جوعًـا؟.. لم تصمتـين؟ هـل تجيديـن الهجـوم حـين تحسـين أننـي أهـرب؟ هـل تهربـين مـن مواجهتـي؟ ألـن ننتهـي مـن هـذه الحـرب؟ ألا نسـتطيع أن نحيـا كجسـد ونفـس متناغمـين؟ لم لا تؤيديـن كلمتـي مـرَّة واحـدة؟ أمـا هكـذا تفعـل النفـس لصاحبهـا؟

«مـاذا بـك ياهتـون هـل جننـت؟». كانـت شـوق. نسـيتُ البـاب مفتوحًـا؟ أحسـنت، أحسـنت حقًـا. لـن أتـرك شـيئًا مفتوحًـا بعـد الآن، لا علاقـة ولا عمـلًا ولا دراسـة، ولا حتـى سـأنسى تـرك حقيبتـي مفتوحـة، طالمـا واجهـت نفـسي، أسـتطيع صـد الريـاح مـن حيـث تأتينـي.

- كنت أحتاج هذا..
- لم أعهدك تواجهين نفسك أبدًا.
- الإنسان يحاول، ليس مهمًا أن يفلح، المهم أن يظل يحاول.

عانقتني عناقًا هادئًا، وشكرتها على هذا.

- أحتاج أن أذهب.
- أنتظرك.
- لن أهرب، أحتاج ألا أهرب.

أخـذت الممـر ركضًـا، آملـة ألا أكـون متأخـرة، راجيـة أن يكـون كنـان قـد تأخـر، تباطـأ، تعلـل بـأي شيء. لـن يرحـل حتـى أودعـه، لا يمكـن أن يرحـل، هـذا الـ.. أيًـا مـا كان اسـمه الـذي نشـأ بيننا مـا كان لـه أن ينتهي بـلا وداع يليـق بـه، هـذه الـ..»حيـاة» التـي كانـت بيننـا، لا يجـب أن تنتهـي بـلا قول وداعًـا. سـنلتقي مجـددًا. أعـرف، وهـو أيضًـا يعـرف، لكـن كمحـامٍ وموكلـة.

لا كنـان وماسـة المتوغلـين في أعـماق بعضهـما كـما الآن، لـن نتقابـل ككنـان وماسـة الـذي أمـضى كل منهـما وقتًـا محـاولًا عـلاج جـرح الآخـر، لـن أكـون ماسـة التـي تسـاعده ليتذكـر، ولـن يكـون كنـان الـذي أهـدى إليّ عيـوبي.

طرقـت البـاب ودخلـت دون انتظـار إجابـة، كانـت الغرفـة فارغـة، ناديـت الممرضـة، قالـت أنهـم ينهـون إجـراءات الخـروج، تركتهـا تتحـدث ومضيـت. أخـذت السـلم ركضًـا، لا أسـتطيع اسـتخدام المصعـد، لـن أسـتطيع، نفـسي يتباطـأ، تبًـا لـكل خـوف يحـول بينـي وبـين حيـاتي، قاتلـه اللـه، وصرفـه عنـي. وصلـت للبـاب، كان يسـاعده هـارون ليصعـد السـيارة، ناديـت هـارون لينتظـر، فابتسـم لي وذهبـتُ مسرعـة. قلـت مـن بـين تهدجـات نفـسي:

- لم أكن.. لأغفر لك .. لو رحلت.. دون قول وداعًا.
- لم أكن لأغفر لك أيضًا، لو لم تأتِ لتقولي إلى اللقاء.

كشف عن ذراعه المثبت بالجبيرة، وقال:

- ولو لم تكتبي لي عبارة وداع، كما فعل هذا الطفل الكبير.

رسم له هارون قطةً صغيرةً نائمة، مكسورة الذراع.

- إنه حقًا طفل كبير، هل تحب النوم كثيراً يا كنان؟
- كنت أكثر من ينام في المدرسة.

ونظر لعيني لأول مرّة، بشيء.. كأنه شجن:

- وأكثر من يحبّ الهررة.
- على ذكر المدرسة والهررة، أحضرت لك هدية صغيرة.
- وأنا أيضًا.

أخرجتهـا مـن حقيبتـي ووراءهـا خلـف ظهـري مـترددة. هـل أبـدو

كطفلة خجلة من أن تهدي أباها الهدية الأولى من مصروفها الخاص؟

- تريدين أن تضمني هديتك أولًا؟ هذه قلة ثقة.

مد يده إلي، تناولتها وأعطيته ما بيدي.

- ألن تفتحيها؟

- الآن؟

قال نعم. كانت علبتها صغيرة، طويلة قليلًا، أصغر من كف يدي. أزلت الخيط، وفتحت الغطاء..

- يـا إلـهـي!!

كانت قلادة بشكل زجاجة صغيرة، تحوي قطعًا متكسرة من شيء أشبه بالزجاج، لا.. بـ.. ماسة شفافة، متناثرة بعشوائية في سائل ثقيل يتولى تحريكها ببطء.

- ارفعيها لتواجه الشمس.

استجبت لما قال، كانت القطع تخرج ضوءًا أحمر اللون، متوهج، و.. يحبس الأنفاس.

- يا إلهي، أظنني سأبكي كالأطفال..يالجمالها ياكنان، أشكرك جدًا.

- ألن تكتبي شيئًا هنا؟

وأشار لذراعه؛ أخرجت قلمي الذي يضحكه، يأخذ شكل شخصية كرتونية أفضلها. جلست مقتربة من الأرض، وكتبت له كلمة شكري الأولى، لعله يظنها مألوفة.

- «ممتنة لك؛ أيها الغريب».

سألته عن والدته، قال أنها ذهبت لتعد البيت، ثم سألته عن

شيء أخبرتنيه الممرضة:

- قالوا أن هناك امرأة أتت لاصطحابك، هل أختك؟

سمعت صوتًا حادًا، مدللًا من خلفي يجيب:

- لا، أنا زوجته.

كانت هذه الـ .. نوّارة..

اغتصبت ابتسامة مسرعة. لم تكن رؤيتها في قاموسي، لا الآن ولا طول العمر، وابتلعت ريقي بصعوبة حين قفز سؤال لعقلي: أما زال لا يذكر؟ أخبرنا أبي أن المسألة مسألة وقت، ألم يكفِه سبعة أشهر من الدلال والمحاولات والتمارين وكل شيء، ليعود للحياةِ ويتذكر هذه الـ مرأة؟

- نوّارة.

بسطت كفها لي متبعة جملتها السابقة باسمها، بصوتها الثقيل على مسمعي. لا أستطيع أن أخبره، أنها ستستغل نسيانه. عيناها عينا أنثى تعرف ما تفعل، إنها تريد التكفير عن ذنبها بأي شكل، ولو كان ذنبًا آخر، ولو على حساب إنسان آخر، ولو كان هذا الإنسان، للمرة الثانية، الرجل الذي تحب.

- اسمي هتون، سررت بمعرفتك.

قالت بدهشة طفل رأى حلوى جديدة:

- اسمك غريب.

قال كنان:

- وفريد أيضًا..

ألقت عليه نظرة متعجبة، فقلت بسرعة:

- أشكرك كثيرًا، واسمك فاتن حقًا، أحببته.

قال لها كنان أن تصعد لأنه لا يريد التأخر، فامتثلَت. نظرتُ إليه حزينة. نعم، حزينة جدًا، لا أريد أن يحدث هذا، أريده أن ينال حريته وقتما يدرك ما يحدث، لن أحزن إن اختار أن يسير معها مجددًا، ليست كل القلوب متشابهة. هناك من يستطيعون دهس الماضي بالغفران والاستمرار رغم أي شيء. سأكون سعيدة لأجله حينها،لأن هذا سيكون قراره، نابعًا منه، من داخل كنان نفسه، لا مفروضًا عليه من آخرين. أنا أمضيت هذه الأشهر أحاول أن أجعله يدرك ما حوله، لن أقبل بأن تكون النتيجة سرابًا.

سمعت صوت المحرك، فقلت له وداعًا.

- ماسة.

أشار أن أقترب من النافذة. همس لي، همسًا خفيفًا، جعلني جذلة، كلمات صغيرة جدًا، أجمل من كل الكلمات، أسعدني مرتين، بتسع كلمات صغيرات. يبدو أن دأب هذا الأستاذ، هو قلة الكلام، وزيادة الطمأنينة.

- كل شيء سيكون بخير، إلى اللقاء.

لوحنا له، وداخلي يطير.

- ما سر هذه السعادة؟ هل همس لك بحبّه جوار هذه الشعلة؟

تجاهلت سخريته قائلة:

- قال «أتذكر كل شيء، أعرف من نوّارة، ومن هم والديك».

## (١٥)

- ما اسمك؟
- هتون صالح، أو ماسة..، لا فرق.
- أنت.. ابنة الدكتور صالح، رحمه الله؟

تمتمت له بالدعاء، وأجبته بصوت خفيض، خجل من أن يفضح سرّه:

- هكذا عشت وأعيش وسأظل ابنته، لكنني بيولوجيًا لست ابنته.
- ماذا تعنين؟
- أنا ربيبته، لست ابنته.
- هل تمازحينني؟
- لا، أبي لم يترك فرصة لإثبات أبوته أمام نفسه وأمام العالم إلا وانتهزها، لكنني.. في الحقيقة..

كنت أريد أن أجهر بها، أنا لا أستطيع تحمل الكتمان أكثر، أريد أن أنطق بها أمام نفسي دون أنا أخاف شيئًا، لماذا سأخاف؟ هل نال من بابا أي تقصير؟ أبدًا، لكنني.. استجمعت نفسي، وقلتها بسرعة، مغمضة عيني بقوة، خائفة من أن يظن بي السوء.

- أنا.. لقيطة.

عاد بكرسيه للوراء مندهشًا، ندت عنه تنهيدة قوية وقال:

- أنا متشوق جدًا، لتشرحي لي كل شيء..

- هل يجب عليّ؟
- يجب عليكِ ألا تزيدي حدب ظهرك، يجب استئصاله.
- كما أخبرني أبي، كان قد انتهى من عمله في المشفى، وذهب لسيارته.. قال أنه وجد أمام السيارة طفلة مغطاة بغطاء وثير، وكانت تبكي بهدوء ليس كبكاء الأطفال، تند عنها دمعات مسترسلة، وشهقات خفيفة، قال أنه حمل هذه الرضيعة، والتفت حوله، لم يجد أحدًا، ونظر إليها، فقذف الله في قلبه شيئًا من الحبّ، قال أنه شعر بالنبي زكريا حين رزقه الله يحيى مصدقًا لما بين يديه. أخذ أبي هذه الطفلة وهدهدها بين جناحيه الحنونين حتى نامت، قال أنه كان لها عينان تلمعان، وأهدابًا كثيفة، وأن المرء يستطيع أن يظل يومه كله ينظر إليها دون أن يملّ، عاد بها إلى أمي، وقد تزوجا ومضى من زواجهما خمس سنوات دون أن يرزقا ذرية، قال بابا أن هذا كان قدر الله وأنه كان راضيًا جدًا، قال أنه.. لما رأت أمي هذه الطفلة، بكت لأنها تشتاق الذرية، وقالت لأبي قول السيدة آسيا «قرة عين لي ولك»، وقد وافقها أبي، لم يقل لا، قال لي أن هذا كان مبغاه من البداية، لكنه.. أراد أن يسمعها من أمي بملئ فمها.. لا أعرف لمَا لم يفكر في أن يبلغ الشرطة، أو أن تكفلها دار أيتام، لمَا لم يفكر فيما إذا كان أهل هذه الطفلة قد عادوا له يومًا مطالبين بحقهم في ابنتهم، ماذا إذا كانت هذه الفتاة قد أتت بطريقة..

وتحشرج صوتي، فأكمل:

- بطريقة غير محللة؟
- أجل.. لكنه قال أنه لما قذف في قلبه حب هذه الرضيعة لم يفكر سوى بأن يحميها، حتى لو تعرض له من ألقاها مستقبلًا، سيدافع عنها بحق الأبوة الذي أقسم أن يمنحه إياها.
- وهذه الفتاة.. ما اسمها؟
- أسماها أبي هتون.

خرج مني زفيرٌ قوي، وثقيل، وساخن قدر غليان داخلي، شعرت حينها أنني أخرج هذا الحدب مني، يتفتت كلما أخرجت حرفًا من حقيقتي، كلما تألمت لأنزع جزءًا من ماضٍ لا أتقبله، يذوب الفتات مع الهواء، ويخرج كفضلات مع زفيري.

قال الطبيب مشجعًا:

- الآن فقط تبرأين، تتخلصين من حنية ظهرك، ماذا بعد؟
- أحببت اسمي، رغم أنه حزين جدًا..
- وماذا يعني اسمك؟
- الدمع المسترسل الهادىء من العين الكحيلة، ونسبه العرب للمطر الخفيف الذي لا يصحبه رعد أو برق. يمكنك القول، أنه كالرذاذ.
- أراه جميلًا.. ولماذا قلت أن اسمك ماسة؟
- قالت أمي أن عينيّ لهما بريقًا غريبًا، فقالت أن تسميني ماسة.. وأصر أبي أن أكون هتونًا، فدللاني بـ»ماسة»، وصار

اسـمًا معتمـدًا في بيتنـا.

- وبعد؟

- لم يخـبر أبي أحـدًا سـوى عمـي سـليم، صديقـه المقـرب جـدًا، وقـال أنـه لم يسـجلني قانونيًـا حتـى أتى أمـر اللـه، ووضعـت أمـي ابنتهـا في مهدهـا بعـد عـام واحـد مـن وجـودي معهـما. وأتـت رهـف، وصرنـا توأمتـين، وعرفنـا النـاس أننـا تـوأم، والفـارق بيننـا أشـهر، درسـنا معًـا، وكبرنـا معًـا.

- متى أخبرك والدك بحقيقة الأمر؟

- في الخامسـة عـشر تقريبًـا. لا أذكـر، لكنه كان يتلقـى تهديدات كثـيرة في هـذه الفـترة مـن شـخص غامـض، ذي حديـث غامـض أيضًـا، كان يرسـل لـه كلامًـا أشـبه بأنـه يعـرف حقيقـة كل شيء، وأنـه يتربـص لـه ومـا إلى ذلـك.. فاضطـر أن يخـبرني، وقـال أنـه لـولا هـذا الغمـوض مـا فعلهـا طيلـة حياتـه.

- هـل شـعرت بعدمـا عرفـت الحقيقـة أنـه كان مـن حقـك أن يخـبرك، لـو لم يكـن هنـاك ضغـط عليـه؟

فكرت لثانية، وقلت:

- لا، لم أكـن أريـد، لم أشـعر يومًـا سـوى بأنـه أبي، ولم أرد حتـى أن أعـرف، ولا أن يخـبرني.. ظللـت أردد لـه أننـي أريـد البحـث عـن هـؤلاء النـاس، لأبصـق في وجوههـم إن كانـوا ألقـوا بي ليتـبرأوا مـن ذنوبهـم.

- وإن لم يكن؟

- أريـد أن أعـرف السـبب. كيـف يتجـرأ المـرء أن يبـتر جـزءًا حيًّـا

منـه، دون أن يتـألم أو يـأن؟! قـال أبي أننـي كنـت ملفوفـة في غطـاء وثـير، هـذا يعنـي أن مـن أحـضرني ليـس فقـيرًا، إذن أنـا لم يُـرمَ بي خشـية إمـلاق، فلـماذا؟

- يحدث أحيانًا أن يكون البتر أهون الخسارات.

- وإن كان.. هـل بـتر القلـب عـن الجسـد هـيّن؟ هـل هنـاك قسـوة بقـدر إلقـاء الأطفـال الرضـع في الشـوارع؟

- ليس كل الآباء أبيك!

- الفطـرة أن يكـون كل الآبـاء مثـل أبي، لا، بـل أن يكـون كل الآبـاء أبي. الفطـرة ألّا يفـارق ابنـك عينيـك، ألا تسـمح لريشـة أن تحـط فـوق رأسـه، ألا تتركـه يبـكي وحيـدًا في الليـل، أن يكـون عقابـه، إن أخطـأ، بقـدر الخطـأ، وألا يزيـد عقابـك لـه لدرجـة تجعلـه يفكـر هـل هـو سيء لهـذه الدرجـة؟ الفطـرة يـا دكتـور أن يكـون الأب حنانًـا لولـده، لا يلقيـه لمعـترك الحيـاة ويقـف متفرجًـا، كـما يلقـى العبيـد في أقفـاص الأسـود ليسـتمتع الملـوك! وتقـول ليـس كل الآبـاء كأبي، هـذا لا شيء مـما يجـب أن يحـدث.

حاول تفهم انفعالي بسؤاله:

- هل هناك شيء آخر، ستخبرينني به؟

- منـذ فـترة، وجـدت صبيًـا يبيـع المناديـل قـرب مشـفى أبي، اشـتريت منـه، وكانـت نظرتـه..

وانفجرت في البكاء، متذكرة سوء المشهد، وما تلاه.

- نظرة كسير..

- ماذا حدث؟

استعدت المشهد كاملًا ببكاء هستيريّ، المرة الأولى التي رأيته فيها، وما بعدها:

«اشتريت منه ما استطعت، وحين أعطيته نقودًا إضافية قال:

- آسف، لا آخذ زيادة عن أجري، مهما كلفني.
- ماذا سيكلفك؟ أنا أريد مساعدتك.
- يكلف الكثير، يمكنك أن تشتري كل المناديل.
- لكنني أريد أن تنتفع بالباقي، ويساق لك منه رزق آخر.
- أنا أرفض هذا.

اقتربت من الأرض وسألته عن اسمه.

- جمال.
- وكم أنت جميل، وقلبك جميل يا جمال.

ابتسم بسمة لا تختلف في كسرتها عن عينيه، سألته عن عمره، فقال العاشرة.

- لماذا تعمل هنا يا جمال؟ هل يرسلك والدك؟
- أساعد والدتي، بعيدًا عن زوجها.

أحسست في جسده ارتجافة، ارتجافة يستطيع بها الخائفون التعرف على بعضهم البعض، ارتجافة هي رائحة شواء شهية لكلاب الشارع.

- هل تدرس؟
- دون علم هذا الرجل.
- هل تعلم أمك أنه لا يحبك؟
- ولا تراجعه، هي مثله، أصبحت لا تريدني.

أغمضت عيني متحاشية أن أبكي، ما ذنب الأطفال أن ينالوا هذه القسوة وهم أطفال؟ هل تتنافس الأيام فيما بينها، أيها أشد قسوة؟

- وتذهب للمدرسة؟
- لا، علمتني أمي قدر استطاعتها، وأصبحت أحضر المجلات الملقاة جوار القمامة، والعلب الفارغة، وأحاول قراءة ما هو مدوّن عليها، أفلح تارة وأفشل تارات، وأطلب من الذين يقفون ليشتروا مني أن يقرأوا لي سطرًا أشير عليه.
- شيءٌ عظيم أنك تحاول، إياك أن تكف عن الإمساك بمرادك، ولو كنت أعزلًا. أخبرني، هل تأتي هنا كثيرًا؟
- أتنقل كل ثلاثة أيام.
- هل تنتظرني غدًا؟ سآتي لك بكتب وأقلام، ويمكننا أن نتعلم سويًا.

بدا لي أنه سعد بعرضي، لكن ما لبثت أن تبددت سعادته بسرعة، وقال برهبة:

- لا تتأخري يا أستاذة، أرجوك.

وعدته أني لن أفعل، ذهبت له اليوم التالي بمجلات تلوين، وأقلام، حين اقتربت لم أجده وحده، كان جواره رجل منمق الهيئة، تحدث معه قليلًا ثم أمسك بيده مبتسمًا وسار به بعيدًا.. تاركًا باب رزقه على الرصيف. خطر ببالي أن أنتظره، لأنه سيعود طالما ترك متعلقاته، سعدت أن هذا الرجل سيساعده، وشكرت الله أن أرسل له إنسانًا يمد له يده. تفحصت المجلات، وتخيلت ابتسامة جمال الواسعة حين يرى فحواها، ويرى أقلام التلوين، تخيلت أن أرى كسرة عينيه أهدأ حدّة.

لا بد أنه يحلم كالبقية بالمدرسة، وباستنشاق رائحة الكتب، والأقلام، وبالجلوس على كرسيّ الدراسة، والتعرف على صديق جديد باستحياء، وفي أن يتبادل رغيف خبز أعدته أمه مع صديقه، وأن يركض في الفناء بالكرة محرزًا أهدافًا لفريقه، وأن يجري اختبارات السنة، ويتنافس مع زملائه، ويشعر أنه يكبر. لا بد أنه يحلم كثيراً كيف يكون أول يوم في المدرسة، ووالدته تمسك يده، وتصطحبه لمقعده، أو يحلم بطريق العودة مع زملائه، وهم يتسابقون بعرض الشارع، ثم يضحكون حين يصرخ بهم أحد الكبار زاجرًا إياهم عن السير في منتصف الطريق. كيف يحيا الإنسان بلا طفولة؟ هل يكون إنسانًا كاملًا؟ متى يمكنه استعاضة هذه السنوات؟

تمتمت لله كثيراً بالشكر، حمدًا على نعمه الكثيرة، واعتذارًا عن اعتراضي في أوقات انتكاساتي. جعلني جمال أحسّ بجمال ما عشته، وكنت راضية جدًا عن حياتي، وسعيدة أنني قررت أن أساعده، كما آواني أبي. مضت نصف ساعة، ومللت، فقلت أن أذهب وأتركها له، وأمر عليه في نهاية اليوم؛ نهضت وتركتها جوار مناديله، ثم رأيته قادمًا من بعيد، مطأطئ الرأس كما لو كان أحدبًا من كثرة حمل الأثقال، كسير الجناح كما لو أنه نسر أصيب برصاصة أردته أرضًا، باكيًا كما لو أنه تلقى خبرًا كارثيًا.

- جمال..ماذا حلّ بك؟

منحني نظرة مؤلمة كضربة سوط، قاسية كجلمود. قال بصوت مختنق، بارد تمامًا من أي شعور:

- ألم أرجوك ألا تتأخري يا آنسة؟

- لم أتأخر أنا..
- لقد تأخرت.. كما يتأخر غيرك دائمًا.
- ظننت أنه سيشتري لك شيئًا وتعود.

ضحك، وأردف بغضب:

- يشتري؟ إنه يشتري بلا مال.
- لا أفهم.. من هذا؟
- هذا، زوج أمي.
- هل يضربك أو يعذبك؟ أخبرني، لقد ذهبت معه برضا، أنا.. يمكنني مساعدتك، أعرف شخص..
- أذهب خانعًا يا آنسة، هذا أسوأ من العذاب، أنا أبيعه كل يوم جزءًا مني، هذا الرجل الدنيء..

وبكى كثيراً.. كان بكاءً مخزّنًا داخله، وضغطت أنا على شقّ في هذا الخزان. رفعت عيني أنظر حولي، وجدته قد ركب سيارته، ووضع نظارته، ورحل دون أن يلتفت، لكنني تمكنت أن أحفظ وجهه جيدًا، وداخلي يصر أنني سأفهم ما يجري، وأنني سآتي لجمال بحقه إن كان يعذبه أو يسرق ماله، ولو خسرت كثيراً.

- هذا ليس رجلًا.. إنه، إنه..
- ماذا؟

وهمس لي بكلمة في أذني، جعلتني أصرخ في وجهه، وأحتضنه احتضانًا معتذرًا، احتضانًا تمنيت فيه لو خبّأته منه، وأزلت ما حدث له من ذاكرته، لو كنت عاصفةً واقتلعت هذه الذكرى كما تقتلع جذور الشجرة، لو قبّلت رأسه ألف مرّة أسفًا، وقهرًا، وحسرةً عن كل مرّة

حـدث فيهـا لـه هـذا الأمـر لـه، بهـذا السـوء، بهـذه الوحشـية..

- ألم تخبر أمك؟
- طردتني، لأنني طفل كاذب.
- لست طفلًا.. أنت أكثر رجل شهم وصادق.

قـال أن جسـده يؤلمـه، وأنـه لا يريـد أن يعـود لبيتـه، ويريـد أن ينـام. جلسـت جـواره أبـكي، تمنيـت أن أخـرج مـن أيامـي الهادئـة، وطفولتـي التـي يذكـر تفصيلاتهـا أبي، وأمنحـه منهـا، أو أمنحهـا كلهـا لـه، لكـن الماضي، ينخـر العظـام، ولا يُـرى، وحتـى لـو وددت إصلاحـه.. فإنـه لا يعـود. أخذته للمشـفى، وطلبـت فحوصـات لجسـده تثبـت اعتـداء هـذا الكائـن جنسـيًا عـلى طفـل في العـاشرة، وهاتفـت كنـان أن يأتينـي مسرعًـا، ولم يتأخـر عنـي، ككل مـرّة احتجتـه فيهـا، أتـاني كـما الـبرق.

شرحـت لـه الوضـع، وعـاد لي بـكائي الـذي كتمـت جـزءًا كبـيراً منـه أمـام جما ل.

- كنـان، افعـل شـيئًا، خـذ كل مـالي، كل مـا أملـك، خـذ كل شيء لكـن دعنـا ننقـذه، ونـأتي بحـق هـذا الطفـل، أرجـوك!

كان غاضبًـا، غـير مصـدق.. تركنـي وذهـب إليـه، تحـدث معـه وابتعـدت معطيـة المسـاحة لكنـان أن يعـرف مـا يريـد، وبينـما هـو بالداخـل، ظهـرت نتائـج الفحوصـات. أخبرتـه أنهـا ليسـت المـرة الأولى، وأن بجسـده علامـات، وأننـا سـنحتاج أن نجـري فحوصـات أدق لعلاجـه. لكـن هـذه النتائـج كافيـة ليبـدأ بهـا كنـان رحلتـه.

- منذ متى يا جمال يحدث هذا؟
- وقت طويل، لا أعرف أن أحسب الوقت.

- ما اسمه؟

قال اسمه، فسأله كنان إن كان متأكدًا من الاسم، فأعاده عليه، وأخبره تفاصيل أخرى.

- هل رأيتِه؟

سألني فقلت أنني حفظت وجهه، أحضر لي صورة من حساب تواصل اجتماعي، عرفته، وكان هو..

- هتون، إن كان هو حقًا..

قلت منفعلة:

- لقد رأيته بعيني، كما أراك أمامي الآن.

مسح على رأس الصبي، وقال له:

- لن أتركك حتى آتيك بحقك، أنا أعدك.

- لا تتركني له، أرجوك.. أنا لا أريد الذهاب إليه، حين يعود للمنزل ليلًا، يأتي إليّ.. أنا خائف.

احتضن ركبتيه وبكى منتفضًا، كأنه يخرج ركام الأيام التي عانى فيها وحده، ولم تصدقه أمه.. كيف لم تصدقه؟ هل يكذب الأطفال في قول كهذا؟ ما فهم الأطفال بهذه الأفعال الشنيعة قبل أن تصيبهم، أو يرونها بأم أعينهم؟ ألا يكفيها أن يخبرها ابنها أن هذا الرجل يخيفه فتبحث عن السبب؟ قال له كنان بلطف:

- هل تأتي لتسكن معي؟

سألته:

- أنت جاد؟

- ماذا؟ هل لديكِ حل أفضل؟

- كنت سأبقيه معي هنا.

قال بنبرة تحمل تورية:

- ماسة، أنا رجل وحيد، وأريد من يؤنسني..جدًا.

انتظر برهة، وعقب:

- ستسر به أمي، ولن تعارضني، سيؤنس وحدتها.

قلت باستسلام:

- كما تريد.

ونظر لعينيّ مطولًا قبل أن يرحل:

- وربما يؤنس وحشتي، لا أذاق الله قلبكِ هذا اللظى.

توترت.

- أي لظى؟

- أن تستوحشي وجود أحد، عاجزةً أن تمسكي يده.

قلت بتلقائية شديدة:

- أنا أجد يدك دومًا، شكرًا لك، أنك لم تذقني هذا.

ابتسم، ومكث حتى اطمأن على الفتى، صحبه ورحل».

قال الطبيب:

- وما نتيجة تحريات كنان؟

- آخر ما قاله لي، وكان منذ وقت طويل، هو أن هذا الرجل خشي على نفسه لما علم بأنه يسعى خلفه، هل تذكر والدة زوجه التي تسبب في الحادث؟ إنهما يعرفان بعضهما، كما أنه على علاقة غير مباشرة بعمل أبيه، ولأنهما من طينة واحدة، لفقوا له قضيةً خاسرة،

ليطعنوه في مهنته، وقد علمت أنها أضحت أمام القضاة باطلة، وكانت هذه طعنة، ما زادتهم إلا تخويفًا.

بعد صمت مني، ومطالعة من الطبيب لقسمات وجهي، ومراجعته لحديثي، كلمةً كلمةً، وتأكيدي له. سألني إن كان هناك جديد، قلت لا أعلم.

- لم أعن جديدًا عند جمال، ما جديد قلبك؟

أظهرت له باطن كفيّ مشيرة أنني لم أفعل شيئًا:

- بريء من أي شيء!
- ألم يستطع أن يطرقه أحد؟ كم مضى من الوقت على تركك جهاد؟ ألم يمض عامان؟
- هل المسألة جهاد؟
- إذن ما المشكلة؟ ألا تحتاجين أنسًا بعد أبيك؟

قلت بحسرة:

- ومن مثل أبي؟
- ألا تشتاقين؟
- إلى أبي؟ ومن لا يشتاق!
- إلى كتف تريحين رأسك عليه.
- أخشى أن يسقط متهشمًا.
- ربما هو كتف صلب.
- لن يستطيع تحمل المعارك التي هنا.

وأشرت لدماغي.

- ما يدريكِ؟ لعله ينتظر إشارة منك!

- هل شخص تعرفه؟

كرر قول كنان والذي لم أدرك قصده في وقتها:

- ما يدريني؟ لعله شخص وحيد، يريد أنيسًا، وقد تعب من الوحشة.
- لا أذاقنا الله هذا اللظى.
- أنت تحتاجينه.. اذهبي إليه.
- إلى من؟
- إليه، إلى من تجدين يده دائمًا.

بالتأكيد لا يقصد كنان. قلت مدافعة:

- أنا لم أفكر يومًا أنني أحبه، يوم ناطحتني نفسي انتصرت عليها، وفسرت شعوري بأنني فقط حزينة لرحيله، ولهذه الحياة اللطيفة التي كانت بيننا، ولم أرد لها أن تنته.
- بيدك أن تكمليها.
- لكنني لم أرد أيضًا أن أكملها، كان يجب أن تنتهي، لقد كانت حياة غامضة، شخص ينتشلني من فكرة نطحت بشرودي للسماء وفصلتني عن العالم، ثم يبتر ويفقد ذاكرته فأساعده ردًا للدين. لا أنكر أنه أزاح الستار، وتركني أرى الدنيا، لكنك تعرف يا دكتور، هناك أشخاص.. كالومضات يهديها لك القدر، تشق الزحام، وتخترق داخلك، تخبرك أنها تفهمك، وتمسد على قلبك، ثم تضعك على الطريق الصحيح وترحل. هذا هو دور كنان، لا يجب أن يكون أكثر من هذا.

نزع نظارته الطبية، وقال بنبرة ودودة:

- لننحي الطبيب والمريضة جانبًا، الآن أخاطبك كأخ أكبر، مسئول عن جعلك ترين ما لا ترين حولك. أستطيع أن أرى في عينيك كم أن هذا الرجل يمنحك الأمان، وحتى لو لم أرَ، إن أخبرت غريبًا بأنك تجدين يد شخصٍ ما كلما احتجتها، سيخبرك أن هذا هو الأمان الحقيقيّ. أن تصابي بالدوار ولا تخافي، مطمئنةً أن هناك من سيلتقطك دائمًا، سيقبض ذراعيه جيدًا كي لا تهتزي أبدًا، أن تكوني ريشةً تتطاير ولا تخافي، لأن هناك من سيمسك بك دائمًا، لن يقبض يده خوفًا أن يتبعثر شعرك الصغير، أن تترنحي وأنت موقنة أنه مهما اشتدت الريح العاصفة، فأنت واثقة بأن يده دومًا حولك، ستمسك بك، وتحميك. ليس إجبارًا منه، لكن حبًا، ورغبة في مودتك، وفي أن يكون ظهرًا.

قلت بشرود، متأثرة بهاجسي من الرحيل:

- وإن لم يكن قريبًا؟

فهمني جيدًا، فطمأنني:

- ستحسّين نفسك محصّنة داخل عينيه دومًا، مهما نأى عنك.
- أنا.. خائفة.
- ستستطيعين أن تجهري بأنك خائفة، ولن يكف عن أن يكون أمانك.
- أخاف أن يتخلى عني.

- ألا تأمنين حين يكون موجودًا؟
- كيف أشعر بالأمان؟

سأل بنبرة يائسة:

- ألم تفهمي حرفًا من كل ما قلت؟
- لا أستطيع أن أترك نفسي لنفسي، لا أريد المجازفة.
- هناك من يستحق هذه المجازفة، ولو كنتِ كتلة رخوة.
- كيف أعرف أنه الشخص الصحيح؟
- عم تتساءلين تحديدًا؟ عن كونه الشخص الصحيح؟ أم عن الحياةِ معه؟

نظرت للنافذة جواري بشرود. أتفحص ما حولي بحثًا عن إجابة. على غصن شجرةٍ كان هناك عشٌ صغير، رأيت عصفورًا يعود لأهله، يطعم صغاره، وتركن العصفورة إليه آمنة. أشرتُ إليه وأنا أجيب الطبيب:

- أرأيت؟ هذا هو. إنني أتساءل عن شكل الحياةِ حين يشعر الإنسان أنه في المكان المناسب، عن كيف يصحو الإنسان مطمئنًا أنه في المكان الصحيح، مع الرفيق الصحيح، عن كيف يستقبل نسمةَ الهواء وشربةَ الماء، وهو غير حائر، وقد اهتدى لسكَنِه وأُنسِه. أتساءلُ كيف تكون نسائم البشارات.. بأنك في موطنك، حيث يمكنُك أن تُغمِضَ عينيكَ آمنًا، أنك لن تهجُر، ولَن تُهجَر.

عاد بكرسيه للوراء وهو يسألني:

- في من فكرت حين أردت المساعدة في قضية جمال؟

- كنان.

- لماذا؟ كنت تستطيعين اللجوء لأصدقاء والدك الكبار، أو لمحامي والدك نفسه، لم يكن ليتأخر أيضًا.

قلت حائرة:

- لا أعرف، هو أول من استنجد به عقلي، وحين رأيته، استطعت أن أهدأ، أحسست أنني أتنفس مرتاحة، شعرت حين أتى إليّ، أن كل شيء سيكون بخير، طالما أنه هنا.

ابتسم.

- أعيدي ما قلتيه، مستوعبة ما تحمله كلماتك.

- لقد استنجد به عقلي كحلٍ وحيد، وحين رأيته استطعت أن.. أهدأ، و..

نظرت إليه فزعة، ووضعت يدي على فمي كمن سمع لتوه سرًا خطيرًا، أو كأن ما يحدث مصيبة لا يجب أن تتكشف لأحد، ولا حتى لنفسي.. لا يجب أن يحدث هذا. ازدادت بسمته.

- تابعي، ماذا حدث حين رأيته؟

قلت بنفس الذهول:

- أحسست أنني..أتنفسّ.

- وماذا؟

وماذا يادكتور؟ ماذا تريد مني؟ لماذا تهلكني أمام نفسي؟

- لماذا تركل أسئلتك داخل دماغي بهذه القوة، وتجرّد مشاعري بهذه الطريقة؟

- أنا أرتب أفكارك، أحللها، وأضع كل فكرة في موضعها

الخـاص.

حاولت أن ألقي الكرة بعيدًا عني، أن أخرجها بأي طريقة.

- وإن كان شعوري صحيحًا، من قال أنه ..؟

والتزمت الصمت، خشية أن يتعبني أثر خروج الكلمة.

- هو قد قال..
- متى؟ هل أخبرك؟
- لا يحتـاج أن يفعـل، لا أسـتطيع تخيـل أن يكـون عقلـك الواعـي لا يتمكـن مـن فهـم قـرب هـذا الرجـل، إنـه يضـخ حبًـا لـك ! كيـف لا تريـن؟

## (١٦)

- تأملي هذه الغيوم، ما أحلاها!
- تأملي الخوف على محيّاكِ، ما أكبره!
- ليتني غيمة..
- ليتكِ سماء، يأتيك الشمس والقمر متعاقبان، يزورك الحر والمطر فصولًا، يطير تحتك الطير ألوانًا، وأنتِ أنتِ.. لا يغيرك شيء.

تجاهلت كلماتها وسألت:

- ماذا ستسميان طفلتكما؟
- تأملي ركضكِ خلف نفسك.
- هل أركض منك؟ ألم نتفق أن ركضي هو لنفسي؟

أمسكت يدي، وبسطتها على بطنها، تركتني أترقب ركلة الطفلة، حتى ما أحستت بها قالت:

- هل تقصدين طفلينا؟
- طف.. لـ.. اثنين؟

صدرت مني صرخة فرحة، ودمعت شكرًا لله أن جزا صبرهما خيرًا. لا زلت أذكر يوم أخبرتها الطبيبة أن الرحم يعاني من اضطراب ما، يجعل احتمال إتمام الحمل ليس كبيرًا. لفظتنا رهف عنها، وأمضت أيامًا وحيدة، تبكي وحدها لله، وجعلت أتساءل عن الطريقة التي أخبرتها بها الطبيبة أنها يمكن أن تعاني من نقصٍ في كينونتها، كأنثى.

- هل الطبيبة من بيدها نفخ الروح في جنينك؟
- لقد قالت.. الاحتمالية..
- ليست كبيرة؟ هل قالت ضئيلة؟ منعدمة؟ صفر؟
- أنا..
- هل ترضين العيش بنصف ساق أو بساقٍ عرجاء؟
- لن تفقد هويتها، ستظل ساقًا.
- أنت واهمة. سيسعى صاحبها سعيًا ليرقعها.
- لقد مضى عامان.. أنا.. أخشى..
- تخشين بعد عامين فقط؟ ألم تصبر أمي خمس سنوات؟
- لا أستطيع صبرًا! منذ أعلمتني الطبيبة، وأنا..

ألقيت ما تخاف البوح به في وجهها:

- وأنت تخشين ألا تكوني أمًا؟

انحدرت الصخرة الأولى من عينيها، وفتحت الطريق لمجرى الدمع.

- أعرف أنك تشتاقين كثيرًا لأن تضمي طفلًا لك، أعرف أن جنينك الاول أذاقك عذابًا كبيرًا، لكنك وهارون لستما صغيرين على امتحانات القدر، ستجتازان هذا معًا، كما وقعتما في نفس البليّة معًا.
- لا أقدر أن أشاركه هذا الألم، لا أقدر أن أحزنه أكثر.
- الزواج مشاركة ولجوء.
- لا نستطيع التشارك في هذه النقطة.
- من نبّأكِ هذا؟
- هذا الألم.. يجب أن يكون لي وحدي.

- الهم الذي يحمله اثنين يصبح أهون، أخف وطأة، وأقل ثقلًا على صاحبه.
- لم أفهم.
- إحدى أسس الزواج المشاركة، حتى في الشعور، أن تقتسما الهم قبل الراحة، تسقط منك الدمعة فيلتقطها إصبعه قبل أن تسقط، أن تخرجي الجملة فيكملها هو، أن تبوحي بما في نفسك فيخبرك برحابة صدر أنه يفهمك، ويشعر بك، أن ينبض قلبك فيه، وينبض قلبه فيكِ، أن تحفظي دقات قلبه ويحفظ دقاتك. في عرف الزواج، التفرد في الشعور أنانية، لهذا أنتما زوجان، تصطبغان بطباع بعضكما، لا يوجد مصطلح المفرد بينكما.. ثم..ألا يستحق هارون أن تقاسميه؟
- أخشى أن يزداد حزنه.

ثم قالت بصوت مرتجف: «ماسة، أنا.. خائفة». قالتها وهي تعنيها تمامًا. شيء ما بقلبي قد تفتت من القلق عليها كما تتفتت الصخور إلى رمال، أحسست بحبات الرمال تعوي في صحرائي، لا أريد للخوف أن ينهشها، أنا أدرى الناس بالخوف حين يستوطن قلبًا. أعرف جيدًا أفاعيله، وقد ذقت عواقبه جيدًا.

- خائفة من أن يتركك؟ هو لن يفكر في أن يتركك. خائفة من أن تزداد النسبة التي قالتها الطبيبة؟ الطبيبة تضع مجرد احتمال، إرادة الله فوق كلّ شيء. اسمعيني، أنتِ لست خيرًا من النبي زكريا الذي لم يرزق بابن إلا حين

كـبُر عظمـه، ولسـت خـيراً مـن النبـي إبراهيـم الـذي أمـر أن يذبـح ابنـه، هـل كنـت تتحملـين أن يصيـب ابنـك مـسٌ مـن الأذى، فضـلًا عـن أن تؤذيـه أنـت؟ ولسـتِ خـيراً مـن النبـي محمـد الـذي دفـن أولاده جميعًـا بيديـه الشريفتـين في الـتراب -إلا فاطمـة-. ولسـتِ خـيراً مـن الأبويـن المؤمنـين اللذيـن قتـل الخـضر ولديهـما.

أخذت نفسًا عميقًا وتابعت:

- رهـف، أنـت مـن كان يـردد عـلى مسـمعي دومًـا أن منـع اللـه عطـاء، ألا ترضـين بعطيـة اللـه لـك وإن كانـت منعًـا مؤقتًـا؟ لا زال العمـر أمامـك، لا تخـشي شـيئًا، طالمـا أن اللـه يـراك ويسـمعك، لا تصغـي لاحتـمالات البـشر. البـشر لـن يهبـوا جنينـك الـروح، سـلي اللـه أن يمتعـك بذريـة صالحـة، ويقـر عينـك بهـا.

تمتمت آمين، وقلت منهية الحوار:

- حسـبك مـن هـذه الدنيـا، أن لـك زوجًـا، لـو خـيروه بينـك وبـين نعيـم الأرض، لـن يـرى غـيركِ نعمـة، ولـن يـرى غـيرك وطنًـا.

همست باسمه بحزن:

- هارون..

- قاسـميه مـا يشـغلك. سـكوتك يقلقـه، يـودي بأفـكاره للهـلاك، يقلقـه أن تبـكي وحـدك، أن تتحـركي كالأشـباح، يصيبـه العجـز حـين يحـاول أن يسـبر أغـوارك ولا يسـتطيع، مـا لهـذا اجتمـع

المتحابـون!

عانقتنـي عناقهـا الهـاديء، أحسسـت أني أمتـص خوفهـا إليّ، أطـرده منهـا، أحرمـه مـن أن ينفـث زفـيره الكريـه في قلبهـا، وشـعرت براحـة كبـيرة حـين فعلـت. تركـت عناقـي فجـأة، وذهبـت تبعـثر خزانـة ملابسـها بعشـوائية وتوتـر.

- ماذا تفعلين؟
- سأذهب لهارون، أقاسمه حزنه.
- وحزنك؟

قالت بحياء:

- أيمكن أن أتقاسمه معك؟
- يمكننـي أن أحملـه كلـه عنـك إن أردت، لكـن لا تخفـي شـعورك عنـه، يجـب أن يشـعر بـك كـما تشـعرين بـه، لتكونـا بخـير معًـا.

تركـت عينـي تسـتمتع بمراقبـة حركاتهـا الشـغوفة جيئـةً وذهابًـا، كطفلـة تذهـب للتنـزه أول مـرّة كانـت تنتقـي ألـوان ثوبهـا، تضعهـا فـوق بعضهـا وتخـيّرني بينهـم.

- أيهما أفضل؟ هل هذا الثوب مناسب؟ كيف أبدو؟
- تبدين طفلة ستصعد المسرح لأول مرّة.
- ماسة، أي لون يفضله لأرتدي؟
- هارون يهيم بصاحبة الرداء، لا يهم ما ترتدينه.

سـحبت حقيبتهـا بسرعـة وغـادرت دون أن تقـول -كعادتهـا- إلى اللقـاء. أعذرهـا، أتفهـم شـعورها، وأطـرب لـه. المحـبّ عَجُـول لحـوح، المحـبّ أبـدًا

لا يصبر على اللقاء.

## (١٧)

على أعتاب المشفى ترجلت من السيارة بتوتر، ما إن ثبتت قدمي، أمسكت كفّ رهف لأساعدها في النزول، شعرتُ بقوة تسري في عظامي، وفي قلبي، وفي خطواتي. لا أعرف مصدرها، لكنها أسعدتني. هل يدفعني العمر الذي قضيناه معًا لأن أمتد بالقوة لأجلها؟ ربما. هل لأنني لا أسند لذراعي إنسانًا واحدًا، بل ثلاثة ؟ ربما.. هل تحركني أمومتي نحوها؟ أجل. هل لأنني أشعر بأنها مسئولة مني، وعليّ أن أكون دومًا قوية لأجلها؟ أجل.

واهتديت للأخيرة، المرء تصيبه القوة، ويصلب ظهره، وتقوى شكيمته، جوار من يشعر أنه جزء منه، وأنه بحاجة إليه.. فيصير جدارًا إذا ما أراد الاستناد، أو كهفًا إذا ما أراد اللجوء، أو نجمًا يهتدي به إذا ما أحسه تائها، أو ضوءًا في آخر النفق، إذا ما أصابته عتمة.

- ماسة، إذا ما حدث لي شيء..
- لن يحدث أي شيء، الأمر سيسير بخطوات عادية، لن تشعري بشيء، حينما يزول اثر المخدر، سيكون صوت طفليك أول ما تسمعين وتنسين كل ألم عانيته.

أتى هارون، كان خائفًا جدًا، بدرجة لا يستطيع إخفاءها، قال لي أنه لا يريد أن يراها تتألم، وقلت أنه لا يجب أن يتركها، تحامل على خوفه، تجهز للتعقيم، وذهب كلاهما خلف الباب، وتُركت وحيدةً لعقلي، لخوفي.. حتى ينفرد بي. الوقت يمضي ببطء، الوقت ينهشني،

ربع ساعة، عشرون دقيقة، واحدة وعشرون، وست ثوان، وسبع ثوانٍ. غادرتني القوة، وغادرني التماسك، وبقيت على الكرسي مجرد كائن رخو، ينتظر، وينتظر. لا أطيق الانتظار، قلبي سيهوي مني، أغمضت عيني أدعو، وأدعو.. أن تخرج هي سالمةً، لم أفكر بالطفلين، قدر ما فكرت في حزنها، فرجوت الله أن يحفظ قلبها من اليأس. الوقت يقتلني، أربعون دقيقة، اثنان وأربعون. بدأت تدق أجراس الرعب في عقلي، تهاجمني هواجسي، يلوح أمامي، في نهاية الممر، الفقد متمثلًا في كائن مخيف، ذي ثياب رثة، وشعر أشعث، يبتسم لي بشماتة جليّة، كأنه يخبرني أنني له وحده، وأنه من سينتصر في كلّ مرة.

أضع رأسي بين كفّيّ، أغطي وجهي تمامًا، أسدُّ فراغات أصابعي كي لا يتسلل طيف الوحش أمامي. بدأت ألهث، وأخذت أدعو الله أن يحفظ رهف، وأن يصرف خوفي عني هذه المرّة فقط، لأجلها. أريد الهرب، أين المخرج من هذا الحصار؟ أريد الركض من هنا، يقيّدني الهلع، تقيدني فكرة أنه يحاصرني أينما سأخطو. نفسي يصير ثقيلًا، استوطنني الخوف، وبات يستبيحُ لساني حتى انعقد، لم أعد أستطيع أن أتمتم بالدعاء، فأخرجته من بقايا قلبي التي لا تزال تؤمن بارتجاف أنني سأكون بخير. رأسي يتعبني من الأفكار، أريد الهرب من هنا، أخاف أن أزيح يدي عن وجهي فأرى الوحش، أريد الذهاب لمكان به أحد، أي أحد. سأكون بخير إن مرّ أي امرئٍ من هنا، أريد أن أسمع أي صوت، أي حديث بين اثنين، لا أستطيع البقاء وحيدة.

أكلتني هواجسي، كانت تتلذذ مستمتعة داخل دماغي، جسدي متعب من الصراع بين اليقين أنني واهمة، وبين أفكاري التي لا تكف

عـن التناطـح، الحـرب في رأسي لا تتوقـف. أي حـرب؟ هـذه ليسـت حربًـا، هـذا فـرض قـوّة. هـذا الكائـن المخيـف يريـد أن يفـرض عـليّ مـا يجـب أن أشـعر بـه، أعـرف أنـه يتغـذى عـلى خـوفي، ومشـاعري الحزينـة، وذكريـاتي التـي أتجنـب مواجهتهـا كي لا تنفجـر، وندبـاتي التـي تـؤلم فأبتعـد عنهـا. أعـرف أنـه يكـبر، ويتضخـم حـين أهديـه غـذاءَه كهديـة لأعـذب نفـسي في المقابـل، لكننـي لا أفعـل ذلـك عمـدًا، لا أسـتطيع مجابهتـه.

شـهيقُ صـدري يثقـل، رئتـاي متعطشـتان للهـواء، هنـاك هـواء مكتـوم داخـلي، كأنـه يخلّـفُ فراغًـا ليسـتوطنه هـذا المرعـب، أشـعر بالأدرينالـين يغـزو جسـمي، قلبـي ينبـض في رأسي، يتسـلل لـرأسي الصـداع ببـطء، ثـم يتفاقـم، ويتفاقـم.. هـذا ليـس صداعًـا، هـذا شـقّ للدمـاغ. لا أسـتطيع التحمـل، رجـوت اللـه أن يمـر أي شـخص أمامـي لأهـدأ، أن أسـتمع لأي صـوت هنـا فأطـمأن أني لسـت وحـدي، ويـذوب هـذا الكائـن كـسراب كأنـه لم يطـاردني منـذ قليـل. أدرك أنـه مـن صنـع دماغـي، أنـه غـير موجـود أصلًا. لكنـه، لـو لم يكـن موجـودًا، لمـا اسـتطاع الطبيـب وضـع حـد فاصـل لتشـخيص حالتـي، أعـرف أنـه غـير موجـود حقيقـةً، وأن مشـاعري السـيئة هـي التـي تبنيـه، لكننـي أيضًـا لسـت مسـئولة عـن مـرضي، مـن يسـتطيع تحمـل مواجهـة شيءٍ ليـس مسـئولًا عنـه؟ مـاذا أفعـل بهـذه النوبـات اللعينـة؟ أيـن ألقيهـا عنـي؟ أرفـع قدمـي لأعـلى المقعـد، أضمهـما إليّ، أخبـأ بينهـما رأسي المثقـل، هـذا الكائـن يقـترب منـي ضاحـكًا، منتشـيًا، أقبـض عـلى أكمامـي بأسـناني لا أريـده أن يؤذينـي أكـثر.

«هذا ليس موجودًا، أنت واهمة ياهتون، أنتِ بخير، أنت بخير»..

يتناهـى لأذني صـوت أقـدام تسـير بهـدوء، أزيـد احتضـان قدمـيّ خوفًـا

مـن أن تكـون دماغـي مـن سـوّلت لي هـذا الصـوت، أغـرس أظافـري في ذراعـيّ لأسـكت هـذا الضجيـج، أدفـن وجهـي بقـوة لأكـف عـن التفكـير، ليكـف هـذا الصـدى عـن الـتردد في جـدار دماغـي. أشـعر بـشيء يمـسّ كتفـي، أنهـض كمـن لدغـه عقـرب، أقـف متصلبـة ككتلـة جليـد، أخـشى حتـى الهـواء الـذي حـولي.

سمعته يناديني:

- ماسة..هذا أنا.

صـدرت منـي شـهقة خائفـة، وأنـا ألتفـت بـكل قـوتي، جاحظـة العينـين، منتفخـة الجفـن مـن البـكاء، لا تحملنـي قدمـاي مـن الخـوف.

- كنان!

هويـت عـلى الأرض، جلسـت محتضنـة قدمـي ثانيـةً، هـذه المـرّة لأهمـس لجسـدي أننـا بخـير حقًـا. بـدأ جسـدي يرتخـي، والهـواء يصـل لداخـلي بيُـسر. رفعـتُ وجهـي بسرعـة إليـه، أطمـئن أنـه هـو. التفـتُّ حـولي أبحـث عـن هـذا الوحـش، لا أثـر لـه، عـن أي خـوف كان يصيبنـي، لم أجّـد، كأنـه قـد نفـخ فيـه. ثنـى ركبتيـه دانيًـا إليّ، محـاولًا الوصـول لسـبب يجعلنـي منهـارة لهـذا الحـدّ.

- ماذا حدث لك؟

- كنت.. لقد..

- هل رهف..

سـأل بقلـق، مسـتنتجًا مـن آثـار البـكاء، وبقايـا الرعـب الـذي تركتـه لي نوبتـي اللعينـة أن شـيئًا قـد حـدث. لقـد ظننـي أبـكي بـكاء الثـكالى، قلـت بصـوت متوتـر:

- لا زالت بالداخل.

ناولني قارورة ماء، ومنديلًا قماشيًّا، لم أره يغادر جيبه، كي أمسح دمعي.كان ينظر إليّ مطولًا، يتفحص أمارات الهلع على وجهي، يدرس هيئتي الغريبة دراسة. انتبهت أني لم أغير جلستي، فأنزلت ساقي بسرعة، وذهبت للمقعد، فجلس جواري، مسحت بقايا دمعاتي بطرف ثوبي، وأنا أردد الحمد لله.. الحمد لله.

- ماذا أصاب كفّك؟

كأنني لم أشعر بالألم إلا حين سأل، كأن الألم كان ينتظره ليفرج عن نفسه. نظرت لكفي، وجدتني قد ضغطت بأسناني بقوة داخله، وبدأت أحسّ بالوخز ينتشر فيه. كيف أخبره..أنني مرتعبة، دون أن أنطقها؟

- تلبسني.. الخوف، كنت مرتعبةً جدًا.

- أأتيت متأخرًا؟

أومأت بـ»لا». سكت حتى انتظمت أنفاسي وسألني مجددًا:

- ألا زلتِ خائفة؟

- الآن فقط أمِنت، الآن أمِنت.. أشكرك لأنك لم تُخلّيني لهذا الخوف.

نظر لعينيّ نظرةَ حزن، أحزين عليّ منّي؟ لا أستطيع إخبارك يا كنان.. آسفة، أنا أتوارى بهواجسي هذه من الناس كأنه سوءة لا يجب أن يطلع عليها أحد.

- أصبحت بخير، كنت أحتاج أن يمر أحد من هنا ليزول هذا، الممر كان فارغًا..وأنا..

فجأة صعق رأسي قول الطبيب لي: «ستستطيعين الجهر أمامه بأنك خائفة، لن تخجلي، ولن يكف هو عن نفث الأمان فيكِ». هل أنت خائفة الآن؟ لا.. مطلقًا. هل فكرت كيف ستخبرينه أنك تخشين شيئًا؟لم يحدث. هل تشعرين بشيء من القلق؟ الآن؟ لا..أنا فقط أشعر بـ.. بم تشعرين؟ بالهدوء؟ بالسكينة؟ بالـ..أمان؟

حثني أن أتابع:

- وأنت ماذا؟
- وأنا ماذا؟
- كنت تقولين أن الممر كان فارغًا، وأنت.. ماذا؟
- لا شيء.. الآن أمِنْت.

ذهب لنهاية الممر، غاب دقائق ثم عاد يحملُ بين يديه أدوات تعقيم لخدوش يدي. ناولنيها واحدةً واحدةً، وبدأ يطببني بيديّ.

- لم تخبريني أنك تخافين الجلوس وحيدة.

قلت بتوتر، متحاشية النظر إليه:

- كنت قلقة، أردت أن.. يمر أحد.. لأطمأن على..و..
- و..؟
- لا شيء، لقد.. حين سمعت صوتك، أقصد، حين أتيت..
- ماذا حدث حين أتيت؟
- ظننت أنه، يمكنني.. أن أنتظر قليلًا حتى تخرج دون أن أخشى شيئًا.
- هل ستنتظرين؟

أخرجت زفيرًا يفضح خجلي، واضطرابي:

- أجل.. سننتظر.

أسند خده لكفه وحثني أن أتابع.

- لم تنظر إليّ هكذا؟

- تبدين مضحكة، وأنت توارين وجهك عني.

أدرت وجهي، كالطفل الذي يرفض شرب الدواء.

- أنا لا أخفي شيئًا.

- لم أقل أنكِ فعلت، لكن هذا اعتراف ضمني، ويلزمه تحقيق عاجل.

ابتسمت رغمًا عني.

- هل نستطيع.. ألا نتكلم الآن؟ أرجوك.

- ستنظرين إليّ، وتطلبين هذا، ثم أفكر.

حاولت، تتشتت نظرتي، حاولت مجددًا، يتصيد مرمى بصري في كلّ مرّة، حين فشلت محاولاتي، قلت برجاء:

- هل يمكننا أن نجلس صامتين لدقائق؟

ابتسم بسمة متفهمة، تحمل شيئًا من السعادة الخفية، لا يمكنه أن يفهمني من تشتت عينيّ، لن يفهم ما يدور في رأسي الآن.

- ماسة، رأسك المتناطح هذا يزعجني، لن يستطيع كلانا التزام الصمت طالما يتشاجر داخلك.

كان مغمض العينين، مسندًا رأسه للحائط، ويبتسم ابتسامة الظفر، يقول لا مفر منّي، أنا أتفهمك، كفاكِ هربًا.

- ماسة..

قالها بحبّ طاغٍ، بأمان سرى داخلي وخدّر أوصالي، بكل ذرة

- قلتُ أننا سنصمت.

مكث يدندن، فمشيت بعيدًا، ذهبت لنهاية الممر، وعدت مجددًا، لدقائق نسيت رهف، وهارون، والطفلين.. وفكرت في شيء واحد، عليّ أن أفعله، حتى لا يضام قلب أحد، ولا أظلم أحدًا.

- كنان، سأخبرك شيئًا مهمًا.

عدت جواره بسرعة، وقلت كمن اكتشف سرًا خطيرًا، فقال بانتباه:

- أهو سرّ؟

- أفضل أن يكون سرًا.

- حسنًا، أنا مُصغٍ.

- ليس أمرًا جيدًا.

- أنا مُصغٍ..

أخذت نفسًا عميقًا، وقلت بسرعة:

- أنا مريضة.

أسميت له مرضي، وخفضت عيني كي لا أرى تعبير وجهه، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- منذ وفاة أبي وأنا تجتاحني كوابيس لا نهاية لها، كانت تصيبني نوبات هلع طويلة حينًا وقصيرة حينًا، لم أفهم أنها نوبات هلع، لكنني كنت أدرك أسبابها بالتكرار، كانت نجاتي منها بأن تدخل أمي الغرفة فجأة فتجدني مكومة كما وجدتني أنت منذ قليل، أو تلاحظني رهف أركض من أي غرفة أمكث فيها وحدي لأخرى مزدحمة بالناس، أو حين ألف الغطاء كاملًا حول جسدي، دون أن أترك

مجـالًا لفتحـة نفـسٍ واحـدة، أتـردد دومًـا في كل شيء، أصـاب بامتعـاض وشـعور أشـبه بالقـرف، مـن مقابـض البـاب، وأبواب السـيارات، والمقاعـد ودورات الميـاه مهـما كانـت نظافتهـا، عانيـت مـن وسـواس في النظافـة، ولا زلـت.. أخـشى أن ألمـس النـاس، لا أحـب اقترابهـم المباغـت منـي، أخـاف الازدحـام، الأفـكار السـيئة تغـزو رأسي بشـكل لا أسـتطيع السـيطرة عليـه أحيانًـا، لهـذا أنـت كنـت محقًـا في كل مـرة قلـت لي فيهـا أن دماغـي تتعبنـي، و.. لمـاذا تبتسـم؟

- أنا فخور بك.

ألجمني رده، لم أستطع أن أخرج مني همسة إلا حين نطق هو.

- ماسة، تابعي.. حقًا أريد أن أعرف.

- وقبـل وفـاة أبي، كنـت.. كنـتُ أتخيـل وفاتـه حتـى تخـف وطـأة الحـدث، كنـت أعيـش الحـدث كامـلًا، حتـى أننـي كنت أحـترق مـن البـكاء، وأذهـب لأطـمأن أنـه يتنفـس ثـم أعـود لغرفتـي.. كلـما أقلتنـي سـيارة تهاجمنـي سـواد الأفـكار، أن هـؤلاء النـاس سـيختطفونني، وأن كل مـن بالسـيارة يعرفـون بعضهـم البعـض، لم أسـتطع التخلـص مـن هـذا الهاجـس إلا حـين بـات هـارون يصحبنـي معـه، وتخليـت عـن المواصـلات العامـة، رغـم أننـي أحبهـا، هـل تعـرف أننـي أحـب المواصـلات العامـة؟

حرك رأسه نفيًا، فتابعت:

- أحـب أن أرى أوجـه النـاس، وأتفـرس فيهـا.. ثـم، بعـد

أن انتهت علاقتي بجهاد، وتحررت رسميًا منه، قررت الذهاب لمن يتابع حالتي.. وترددت كثيرًا، حتى اهتديت لأحد الأطباء، كنت أذهب باسم مستعار، لم أكن أصغي لكلامه، كنت فقط أحتاج أن أحكي، هل تعرف؟ أول ثلاث مرات ذهبت له فيها.. لم أقل حرفًا واحدًا، لم أحك شيئًا عما حدث، كنت أحتاج أن أثق به، حين مات أبي، اتخذت الخطوة فعليًا، وأخبرته بكل شيء، لم أحتمل، كنت بحاجة لأفرغ هذا العبء من فوقي.. وبعد عدة جلسات، ومنذ أيام فقط، أخبرني.. أنت مصابة بالوسواس القهري، من الدرجة الثانية.

انتهيت، وأخرجت زفيرًا قويًا، ثم أسندت رأسي للحائط، وهطل دمعي هتونًا في صمت. كنت أحتاج هذا، وهو كان يحتاج أن يعرف، لن أبني حياة أحد منا على شيء مبهم، لن أسمح له حتى أن يبني برجًا من مشاعره هذه فوق وهم يمكنه أن يزول في أي وقت، أنا أعرف مصيري في قضايا الحب هذه، أتجنبها، وأسير هادئة، أو هكذا أخبر نفسي. أعرف أن علاقتي بكنان، التي لا تندرج تحت مسمى محدد، سنتنهي يومًا ما، وفي أي لحظة، وتحت أي ظرف، أعرف أن أقدارنا اصطدمت في نقطة ما لنهوّن على بعضنا الطريق الآتي، ليخبر أحدنا الآخر أن ما أنت فيه ليس أنت، وأن دربك ينتظرك.. ثم سيعود كل شيء لطبيعته فيما بعد.

أمضيت وقتًا أفكر كيف يمكنني أن أظل ممتنةً ليد امتد لي مرةً واحدة في العمر، ثم يكون مصير هذه اليد أن تختفي للأبد؟ هل

كانت تعرف هذه اليد حجم الركام الذي أزاحته عن طريقي؟ لا أعتقد. كيف يمكن للمرء أن يحيا ممتنًا لنظرة انتشلته من ظلمات نفسه، ثم إن هاتان العينان، سأحرم منهما للأبد؟ هل تعرفان حجم الامتنان الذي أحمله لها؟ لا أعتقد. وهل تتقاطع الدروب مجددًا؟ مستحيل، لا أظن.. أعني.. ربما! هل تتمنين؟ ليت!.. أعني، لن يحدث.

قلت لنفسي بيقينٍ أنه ربما يكفي للحظة النور أن تكون لحظة، ربما يكفي للأحلام أن تكون أحلامًا، تحوم حولك متى ما خالطك يأس، ومتى ما أحزنتك الدنيا، سيكفيك أن تتذكر هذه الأوقات الصغيرة، وتبتسم ملوحًا لأحزانك بالوداع. ربما يكفي لعينيّ أن عرفتا كيف تمنح الحياة، ولنفسي أن فهمت متأخرًا لكنها عاى كلِّ فهمت. ربما حسب المرء أن يعيش دون كل هذا، يسمع عنهم فقط الخير، مستثنيًا جزءًا من قلبه، لن يفتح لغيرهم، لكنه دائمًا، وأبدًا، لأجلهم بخير، وفي خير.

- تعرفين شيئًا؟
- كل شيء ستقوله الآن، سيترجمه عقلي أنه من باب الإشفاق.
- إشفاق؟
- أردت أن أخبرك فقط كي..

قطع حديثنا خروج الطبيبة.

- رهف بأتم صحة، والطفلان بخير.. لكن، هناك مشكلة صغيرة.

تلقائيًا نظرت لكنان، وأنا متوجسة خيفة.

- هناك شخص آخر ليس بخير.

نظرت هي له كأنها تتذكره وسألته:

- أنت المريض الذي أتى في حادث السير منذ عامين؟

- تقصدين ثلاثة أعوام، أحضرتني هذه الآنسة.

ابتسمت لي بعملية، وحادثت كنان باهتمام شممت فيه رائحة ليست طيبة أبدًا.

- كنت في قسم الطوارئ، وحالتك استرعت انتباه الجميع.. كيف أنت الآن؟

قال بخير، قالت أنها ستمر بعد قليل على غرفة رهف لتطمئن عليها إن كان موجودًا، فقال نعم. خرج الترولي يحمل رهف، كانت بين اليقظة والنوم، خلفه آخر يحمل.. هارون!

- لم يتحمل المشهد، سقط مغشيًا عليه.

ضحكت، والتقط له كنان صورًا للتذكار. أتتنا إحدى الممرضات بالطفلين، وأشارت لي أن أمهد يدي لأحمل أحدهما، وضعت بين ذراعي الفتاة الصغيرة، أحسست بالدمع يستفز عيني ليهبط، لا لن أبكي. هذا شعور لا يوصف، كأنها قطعة من الجنة. ملست بإصبعي على وجنتها، ضمت شفتيها بتبرم، كأنها تعترض أن يمس هذا النعيم أحد.

- ما أجملك، ما أجمل رائحتك، تعرفين يا صغيرة؟ كانت الجدات يخبروننا أن رائحة الأطفال رائحة من الجنة، هل رائحة الجنة مسكرة بهذه الطريقة؟

أغمضت عيني وشممت الصغيرة، كلما ابتعدت عن رائحتها أعود إليها ثانية وثالثة، إنهم عالمٌ آخرٌ، يزرعون في ذويهم شعورًا جديدًا،

لا يشبه أي شعور في الدنيا، لا يقارن، لا شبه له، بل نشبّه به غيره. هدهدتها بلطف، قبلت رأسها ووضعتها بين يدي الممرضة؛ ناسية أي شيء يمكنه أن يحزنني في العالم. هؤلاء الأطفال هبات من الله لأفئدتنا المبتورة..

في غرفة رهف، جلسنا ننتظر إفاقتها كليًا، وكان المغشي عليه، نائمًا.. بعمق !

- كنان.. هل أسأل شيئًا؟

كان يقلب في هاتفه، أومأ أن نعم.

- هل تصغي؟

- أجل، مصغٍ.

- أين رأيت هذه الطبيبة من قبل؟

- لمَ تسألين؟

- أحاول تذكر ملامحها، أو أننا رأيناها قبلًا.. لا أستطيع التذكر.

- ليست شخصًا مهمًا، أنا أيضًا لا أذكر.

أصابني الضيق من بروده.

- هل تترك هاتفك لحظة وتنظر إليّ؟

نظر لعينيّ، يتنهد داخلي راحةً بما يلقاه من مقلتيه هاتين. مسندًا خده لكفه سأل:

- تركت الهاتف، ما بها الطبيبة؟

نسيت ما كنت أنوي قوله.

- هل الشخص الغير مهم.. نتسامر كأننا نعرفه منذ زمن؟

- لم يتسامر أحد، كانت تستجمع ذاكرتها.

قلت لنفسي أنه محق، ليس لأنك كذلك، لأن تركيزه معي يشتتني، يبعثر ثباتي.

- حسنًا، لا بأس.. يمكنك أن تكمل مهمتك.

افتعل كحة صغيرة، وقال:

- هناك حديث بقي ناقصًا بالخارج.

اصطنعت عدم الفهم.

- قلت لي، كان يجب أن أخبرك.. لكي؟

- لألا تفكر كثيرًا.. أو لننهي هذا الـ..

- أنا لا أفكر في شيء.

أشار إلي لنقف خارجًا فتبعته.

- ماذا كنت تقولين؟

- أنا أعرف. أنت تفكر.. في، أعني.. مؤخرًا.. أنا.. لقد فهمت كيف تفكر.

حين وقفت جواره، شعرت فجأة بأنني هرة صغيرة، أطالعه بعينين راجيتين ألا يكف عن حمايتها. أسند ذراعه للحائط، وقال بصوت رخيم، هاديء:

- وكيف ترين أني أفكر بك؟

- أنا لم أر، أعني، لقد أوضح لي الطبيب أشياء لم أكن أستطيع استيعابها، كان يجب أن تعلم قصة المرض هذا، بأي حال كنت سأخبرك لأنني لا أستطيع أن أخفي عنك شيئًا، لكن حينما بين لي الطبيب..ما جدّ عليك، أردت أن ألقي هذا

الحمل من على كتفي.

أبعدت عينيّ عنه في توتر. أعاد وجهي إليه بسبابته، ركز نظره في عيني، ارتبكت..

- وما الذي جدّ عليّ؟

- كنان، لا تدعي عدم الفهم، أنا أستنفذ من طاقتي لأواجه نفسي أمامك.

- لا أدعي شيئًا.. أريد أن أستمع إليك.

ابتلعت ريقي بصعوبة، أزحت وجهي عن أسر مقلتيه، فأعاده إليه.

- لا تهربي.. كنت أسألك، ما الذي جدّ عليّ؟

اهتزت أوتار صوتي وأنا أشعر أنني أكاد أسقط من قلة الاتزان:

- هناك.. شيء ما.. يحدث.. و..ولا يجب أن يحدث.

- صحيح، هناك أشياء لم تلحظيها، وهناك أشياء تغافلت عنها، وهناك أشياء.. تحدث هنا -وأشار لقلبه-، لكنها لم تجدّ عليّ، كانت تنتظرِكِ أن تنتبهي لها، وهذا الذي يحدث، ليس خطئًا، ولا يمكنك القول أنها لا يجب أن تحدث.

- مـ.. ماذا يحدث؟

- الكثير يا ماسة.. الكثير.

خفضت بصري أرضًا، ثم تركته ودلفت للداخل، أحاول أن أجعل أصابعي تكف عن الارتجاف، مواجهة الحقيقة المرعبة. مرعبة؟ لا. إنها تجعل عيناي ترقصان طربًا، لكن هذا.. لا ينبغي أن يكون موجودًا، كنان وأنا من البداية، لايجب أن نكون موجوديْن.. معًا.

أفاقت رهف، لم تمهلني فرصة للتفكير بيني وبين نفسي وشكرت الله من داخلي على هذا.

- الطفل؟
- الطفلان، بخير..!
- رأيتِهم؟
- وحملت ابنتكِ.. إنها، ملاك!
- أريد رؤيتها.. وأين هارون؟

أشرت إليه ساخرة:

- أحدهم لم يتحمل المشهد، سقط مغشيًا عليه، في سابع نومة.. على السرير المجاور.

ذهبت لأحضر الصغيرين، حملت الطفلة مجددا، وأتت الممرضة بالولد، حين دخلت كانت الطبيبة قد أتت قبلي، كنان يتابع حديثها باهتمام، وهي، توجه إليه الحديث.. بدلًا عن رهف. حملت رهف ابنها، وانشغلت أنا بقطعة غزل البنات التي أحملها، أتأمل ملامحها الصغيرة، أشتم رائحتها للمرة التي لا أذكر عددها، أهديها سبابتي بين كفها.

- أنا كلي فداء لهذا الجمال، سأبكي من لذة شعوري بها.

همس في أذني بقول مشهور:

- «لا تتماسكي، الارتباك أمام الجمالِ موقف أصيل».

التفتّ إليه، وبحثت بنظري عن الطبيبة، كانت تحادث رهف.

- هل كلية الحقوق تُخصّص دبلومات لطبيبات الولادة؟
- لماذا؟

- كنت سأكمل جامعتي وأنضم إليكم، لأفهم الترابط القوي بين طبيبات الولادة والمحامين.
- أنا لا أفهم.

أعرف أنه يصطنع عدم الفهم، مددت له يدي بالطفلة:

- هل حملت طفلةً بهذا الجمال من قبل؟
- لا أستطيع أن أحملها.

رفعت بصري إليه متعجبة، قال هاربًا:

- لا أعرف كيف أحملها.

أشرت له كيف يضم ذراعيه، ووضعتها ببطء شديد، كان متوترًا، مرتبكًا، أشبه بالمحارب الخائف؛ أبعدت يدي عنها، أشرت له أن يضع يده فوق ذراعها.

- إنها صغيرة جدًا.
- وجميلة جدًا. هل شممت رائحتها؟

اقترب منها، أغمض عينيه ورأيت دمعتين ينحدران منه، تفاديت أن يلاحظ رؤيتي له، وذهبت لهارون.. بيدي كوب ماء.

- ماذا هناك؟ هل أفاقت رهف؟ الأطفال بخير؟
- الأطفال سيذهبون للمدرسة، وأنت لازلت نائمًا.

جلس جوار زوجه، قبل رأسها وقال:

- لن ننجب ثانيةً، أريدك أنت فقط.
- فات الأوان يا عزيزي، لقد أتى الأولاد بالفعل.
- يتبناهما كنان، لا أريد أن أرى ما رأيت ثانيةً.

حين نظرت له رهف بعتاب، قال بدفاع:

- أنت لم تري ماذا فعلوا بك ليأتوا إلى هنا.

ناولته الصغير، وقلت له أن يرتل الآذان عند أذنه، بدا حائرًا، لا يعرف كيف يحمل صغيرًا.. كيف يستحيل الأباء أطفالًا لا حول لهم ولا قوة بهذه الطريقة؟ صوته كان خاشعًا، شاكرًا لأنعم الله عليه، قبل رأسه، ووضع الصغير بين ذراعي والدته.

- أين مدلِّلة أبيها؟

لازال كنان مغمضًا عينيه يحتضن الصغيرة، أو هي التي تحتضنه، تأثرت بهيئته، وأصاب قلبي شيء من الحزن عليه. اقتربت منه، وقلت بصوت خفيض:

- هارون، يريد رؤية ابنته.

لم يرد، لا زال يحتضن الصغيرة، كأنه سيغفو وهي بين ذراعيه، ضغط هارون على كتفه بمواساة لم يفهمها غيرهما، وطلب منه أن يؤذن هو في أذن الرضيعة. رتله كنان، وهربت من عينيه دمعتين أخريين، أعطى لهارون ابنته وترك الغرفة مسرعًا. اقترب هارون مني وهمس:

- نوارة، فقدت جنينها.. بسبب.. أنت تعرفين.

كحجر ألقي داخل فمي عنوة، وعليَّ أن أبتلعه حالًا، وقفت الكلمات غصة في حلقي، لا تتحرك، حتى أتى جهاد، وكاد الجو أن يتوتر، لم أرفع بصري نحوه، تجاهلت وجوده، حمل أولاد أخيه، وقبلهم، ثم جلس مجاورًا له.

- هل ما يتندر به الممرضات خارجًا صحيح؟

- لا تصدق الإشاعات.

- إنهم يتحاكون عن حبك الكبير.

- الحمد لله أنهن لم يخبرنك باقي القصة.

- وما الباقي؟

قالت رهف:

- الأفضل أن تدعه مستورًا.

نقل بصره إليّ.

- كيف حالك؟

- بخير، عساك بخير أيضًا.

كيف ينحدر ما كنا نتوق إليه يومًا، لشيءٍ لا يزيد عن كونه عاديًا؟ كيف يصدق قولٌ مأثورٌ، صِدقَ الرافعي حين قال: «وأنزلته من درجة أنه كل الناس، إلى درجة أنه ككلِّ الناس». كيف يزيد حرفًا واحدًا في كلمة، يصف به أعوامًا قضيتها من حياتي؟ بحرفٍ واحد! ادعيت أني نسيت هاتفي، وخرجت للشرفة، أسند ذراعي للسور، وأغمض عيني أتخيل البحر.. وأتخيلني غريقةً فيه.

- هل يوترك وجوده؟

- لا، بالعكس.. كنت أتساءل كيف أصبح الأمر عاديًا لهذه الدرجة.

- لماذا تركتهم إذن؟

- جئت أبحث عنك، انتظرت أن تنهي اتصالك.

- ها أنا أمامك.

- وها أنا أمامك.

- لم أكن أهاتف أحدًا.

لم أتكلم، عدت سيرتي الأولى، بعيني المغمضة، وأتخيل هدير أمواج،

عـودًا يُعـزَفُ ونسـماتٍ جميلـة. سـمعت كنـان يتمتـم بأبيـات اعرفهـا:

*«كأنا نجمةٌ شردت،*

*وما خضعت لأي مدار..*

*ونصبرُ علّ ما يأتي،*

*يكون النّور بعد النّار..*

*وما ذُقناه من تعّبٍ،*

*يُتَوِّجُ آخِرَ الأسفَار».*

أحـاول التحـدّث، يكمِّمنـي عجـزي أمـام الكلـمات، أمـام عينيه الشـاردة في امتـداد بـصره، يـردد بيتًـا آخـر:

- «لعلّ لقاءنا قدَرٌ، وهذي الأرضُ تنتظِرُ!»

لمـاذا يفعـل هـذا بي؟ هـل يـدرك النازلـة التـي سـتحل بـه؟ هـو لا يعـرف مـا سـيؤول إليـه تمسـكه بي. كنـان لا يُـدرِكُ كـم أننـي امـرأةٌ بائسـة.

- أنت خير من يعرف أنني..

أشـار أن أصمـت، وأصغـي لكلـمات القصيـدة، التـي أصابـت جيّـدا مقصـده.

*«تقاطَعنا بلا وعد،*

*على حلم من الأحلام.*

*فلم يتأخر الميعاد،*

*لم تتعثر الأقدام*

*ولو كنا تواعدنا*

*لما اتفقت بنا الأيام».*

انتهـى، وانتهيـت أنـا، كأنـه يقـول لا مفـر، وكان محقًـا. لا أسـتطيع

العيش بلا كنان، ولا أستطيع العيش معه. لا أراه سيتقبل وجود امرأة بهذه الخيبات في حياته. اكتنفنا الصمت، واكتنفني شعور بالخفة، أنني خفيفة كما ريشة، هادئة كموج متتابع لطيف، وراضيةٌ كثيراً بقدري.. قطع الصمت بسؤال:

- بم تحلمين يا ماسة؟

- أن أصحو يومًا مطمئنة، أن هناك ما يصلب ظهري، أن أرقب شروق الشمس، وغروبها مع شخص يستطيع منحي الأمان، أن أتشارك كوب ليمون مثلج في الشتاء، مع من لا يمانع عفويتي.. وأن أخطأ، وأنا أعرف أن عقابي لن يكون بالهجر أو التهديد بالتخلّي.

- وماذا أيضًا؟

- أن يكبر جمال سويًا من داخله، وأن أدير المؤسسة التي أخبرتك عنها، وأن.. تكون أنت بخير، لأنك تستحق هذا.

- أنا.. أنا بخير.

أغمض عينه بقوة كأنه يتألم، لم أنتبه لطرفه الاصطناعي، لم ينزعه منذ يومين، كان يعاندني..

- لستَ بخير يا كنان، ساقك تؤلمك.

نظر إليّ نظرةً بها شيء من الغضب يحاول إخفاءه، ولا يستطيع أن يخفيه. تجاهلته، وأحضرت له كرسيًا ليجلس، تمردت عيناه أنه لن يفعل هذا، وتمردت عيني أضعافًا.

- أنت غاضب مني لأنني كشفتُ خوفك؟ أتخشى أن يكون سببُ حيرتي هذا البتر؟

لم يغادره الغضب.

- لا يحقّ لك أن تتحدثي بما أشعر نيابة عني.
- لا يـ..حـ..ـقّ لي؟

رفع صوته:

- أنت لا تفهمين.
- أنا أفهم.. أنت تعتقد أنني..
- ستريننني بهذه الإعاقة دائمًا، ستلازمني كعيب أستره.
- أنـا لا أراكَ إلا كاملًا يـا كنـان، أنـت مـن تـرى داخلـك هـذا النقـص لا أنـا، أنـت مـن سـتلازمه إعاقتـه، إعاقـة التفكيـر بـأن هنـاك مـا ينقصـك، ومـا يعيبـك.

شـخص ببـصره، عاقـدًا حاجبيـه، وانتقـل غضبـه إليّ. قلـت قبـل أن أغـادره:

- بعـد كل مـا مررنـا بـه، ألا تسـتطيع أن تـرى نفسـك بعينـيّ أبـدًا؟

غادرتـه، وعـدت لبـاب غرفـة أختـي باكيـة. ألم أشـهد نظرتـه الأخـيرة لسـاقه قبـل أن ترحـل عنـه؟ مـن غـيري رآه يحـاول التعامـل مـع سـاقه الجديـدة؟ مـن أوّلُ مـن علّمـه اسـتخدامها؟ مـن غـيري شـهد كل لحظـات ضعفـه، وألمـه، وحيرتـه، وشـكواه؟ ألم يعانـد النـوم في المشـفى أيامًـا كثـيرةً، حيرانًـا معترفًـا بنفسـه أنـه لا يحتمـل الوحـدة، وأننـي أؤنِسُـه؟ هـل كانـت هـذه السـنون هبـاءً؟ يزعـم أنـه يكـن لي شـعورًا أخـشى الإقـرار بـه، ويغضـبُ إذا انتبهـتُ لألمِـه، ويريـدني أن أقـر أننـي أيضًـا أبادلـه الشـعور؟! إن الأمـر أكـبَرُ مـن أن يُقـالَ أو يُحـكَى، وأكـبر مـن عُقـمٍ أصـاب أحـرُفَ «

أحبّك»، وأكبر من المعاجم. إنه أجلّ من الكلام، يُفهَم بتيه الأعيُنِ إلى أن تستقرّ فتلتقفَ من بين الشتاتِ نظرة، بدمعةٍ تهربُ من العينِ خجلى، ببسمةٍ أصغرُ من أن يراها الناس لكنها واضحةٌ جليّة تكفيكَ إشارةٌ لا يفهمها سواكما، لتفهم أن مكنونك قد بلغ مراده، وأحدثَ الوقعَ الذي رجَوت.

ما يحزنني أن كنان واثق بأن الألم يهون إذا ما اقتسمه اثنان، إذن لماذا يعتقد، كما رهف، أن هذا الألم من حقه وحده؟ يمنحني أمان الدنيا بحضوره، بمجرد إدراك حواسي أنه بنفس المكان الذي أسير فيه، ثم .. يقول لي بفعلته هذه، «أنا أحبك، لكنك لن تشاركيني ألمي»؟.

لا يمكنه أن يمضي دوره في حياتي، متخذًا وضعية الأب. أنا لا أريدُ أبًا ثانيًا، الرجل الوحيد الذي ناديته أبي، قد مات ولن يأخذ دوره آخر. لا يمكنه أن يكون جيشًا فقط، الجنود والقادة أيضًا ينالون الرّاحة والسكن. لم تغادرني دمعاتي، لماذا أبكي بهذه الحرقة؟ ومن أي طينةٍ خُلِقَ هذا الرجل؟

- لماذا تبكين؟

كان جهاد، آخر من وددت أن أرى. مسحت دمعاتي بطرف كمي، نظر إليّ نظرة ارتياب، قال بنبرة راجية:

- هتون..

قاطعت تفكيره:

- أنا امرأة حرّة، لا أبكي بسبب رجل، إلا حين يبكي لأجلي.

أنا كاذبة، أنا أبكي بسبب رجل. لكن هذا لم يغير حقيقة كوني حرّة منه.

- ألا يمكنك أن تفكري؟

قلت بشجاعة:

- لا يمكنني التفكير بأن أضع اسمَينا في جملة مطلقًا، ولو كان رخاء الدنيا معك. أنا كنت صغيرة بحجم كف يدك، وأنت، رغم كل ما تمتلك، لم تستطع استيعاب صِغَري.

اقترب فأشرت له بيدي:

- لا تقترب. قد عفوت، وسامحت، ولم أنسَ.. لن يزيد أحدنا عن كونه درسًا للآخر.

وذهبت لأختي، تشبثت بالصغيرة أبكي، كلما عاودت نظرة كنان احتلال دماغي.

- متى ستخرج؟
- خلال ساعة.
- أحتاج لأنام هذه الساعة.

كاذبة، أحتاج أن أبكي هذه الساعة، وألا أفر من النداء المُقرّ داخلي أنني أشعر بخواء هذه الدقيقة، وأنني أحتاج صوته ليملأ هذا الخواء.. الآن، هذه الثانية. هذا الذي أشعر به تجاهه، ليس حبًّا. الحبّ؟ ما عدت أؤمن به، ولا بأصحابه.

أشعر بشيء يشبهه لكنه أكثر أمانًا؛ أُحسُّ النار تتقدُ في قلبي لكنها لا تحرقُني، وأرى الطريق الوعر الذي سأسير فيه لكن لا أخافه. أحزنُ وأبكي-كما هذه اللحظة- لكن بلا قهرٍ لذاتي؛ بي شئٌ يُخبرني أن عليّ أن أحادثه بلطف وقت الخلاف، لكن بلا أن يمسّ تفكيري أن هذا يخالف كبريائي.. إن كبريائي نفسه راضٍ عن هذا. هل هذا ما يسمونه سَكَن؟

لاح بخاطـري صـوت كنـان وهـو يقـول:

- لا أذاقكِ لله هذا اللظى.

- أيّ لظى؟

- أن تستوحشي وجود أحد، وتعجزي عن إيجاد يده.

كل مـا جـال بخاطـري قبـل أن يخطفنـي النـوم، أننـي أحتـاج يديـه، الآن، وكثـيرًا!

## (١٨)

يمكنني أن أختصر أخطائي السابقة كلها في أنني وضعت فاصلة في الوقت الذي وجب فيه وضع نقطة لأبدأ من بداية السطر. حين حاولت، وجدتني لم أنسَ، ولم أستطع أن أسلو. حاولت مرارًا، لم أفلح، وكعادتي.. توقفت عن المحاولة، مفسحةً المجال لثقب أسود جديد ليلتهم جزءًا جديدًا منّي، حتى قرأت مقولة ذات يوم تؤكد عدم النسيان، فاهتديت لأن الفاصلة المنقوطة حل مُرضٍ ومنطقيّ. مذ وضعت الأشياء، والأشخاص، وحتى مشاعري في موضعها الصحيح وأنا أجاهد نفسي أن أتم كل شيء في وقته، حتى أيسر الأمور وأبسطها، وأول هذه الأمور، كان أن أفرغ حزني وبكائي الذي كتمته بعد وفاة أبي.

كانت البداية، ككل البدايات، شاقة جدًا، أحسست بأن على صدري صخر بلال، غير أني ألفته وما بي من همّ بلالَ من شيء. بعد أن عادت رهف والتوأم وهارون لبيتهم، قررت أن أواجه الحقيقة التي فررت منها أعوامًا.. الموت الذي آل لوحدتي. في الليلة الأولى كنت حريصة أن أجلس موضع جلوس بابا على مائدة الطعام. أصابت قلبي لكزة قوية، كأن هذا الجبل يقول لن أتزحزح. تجاهلتها عمدًا، أمسكت ملعقتي، وضعت اللقمة الأولى، ونظرت حولي. كل المقاعد أمامي فارغة. لو أن أبي رأى ما أراه الآن لحزن كثيرًا. تخيلتني أجلس موضعه، قبل هذه السنين العجاف، وأنظر لمائدتنا بعيني أبي. على

يساره أمي، حيث القلب دائمًا يسار الجسد كما خلق الله آدم، ثم رهف، ثم أنا.. وعلى يمينه كرسي فارغ، كان يبقيه فارغًا دائمًا، ويقول هو للمارين الكرام، وعنى بهم المحتاجين من شارعنا، أو أي ضيفٍ يأتي وقت الطعام. ثم يلي هذا الكرسي ما يكفي عمي سليم وأسرته، كانوا يأتوننا مرةً كل أسبوع.

كان أبي، ولو عن غير قصد، يرتب الأشياء بقلبه، كرسي الكرام ناحية اليمين، لأن أهل الخير يأتون كتابهم بيمينهم. أنظر للمقاعد واحدًا واحدًا، أتخيل كيف كان يرى بسمة أمي، وكيف كان ينظر لضحكاتي ورهف، كيف يستمع لحديثنا باهتمام، ويستمتع به. المنظر من حيث جلستي دافئ، وناعم كما ملمس وجنة الأطفال. أبتسم حين أتذكر مرّات قال أنه فخور بي فقمت إليه وعانقته فرحة جذلة، ومرة غضب عليّ فيها، فقمت إليه وعانقته معتذرة حزينة. غريبٌ أن يفهم قلبي الآن فقط أن لا شيء كان يشعرني بقيمتي ووجودي سوى حضن أبي.

يمر الشريط أمامي ببطء شديد. يتمتم بابا بـ»الحمد لله على ما أطعمنا وسقانا». يشرب كوب الشاي، وهو يكمل حديثًا بقي ناقصًا معنا. يراني أرفع الكوب بيدي اليسرى، يرفع حاجبه مذكرًا إياي بالسُنّة، أتنهد بقلة حيلة، أعيد الكوب ليدي اليمنى، وأشرب. أنظر إليه متسائلة هل رضيت الآن؟ تجيب بسمته بنعم.

- كم مرة يجب أن أذكرك كوني عسراء يا أبي؟
- كم مرة يجب أن أذكركِ أنك تستطيعين الأكل والشرب بيدك اليمنى يا بابا؟

يقول أنني أريح نفسي، وأتواكل، لم يحدث، هو يعرف أن اعتمادي

عـلى اليـسرى في كل شيء تقريبًـا، لكنـه يـصر أن أحـاول، أنظـر الآن للملعقـة في يـدي، اليمنـى.. بـلا رجفـة، بـلا قلـة اتـزان، وأتنـاول طعامـي كلّـه، ممزوجًـا بطعـم البـكاء الـذي خبّأتـه لحـين اعـترافي بالحقيقـة. تضغـط عـلى كتفـي الـدادة كريمـة، تمسـح عـلى شـعري بحنـوٍّ.

- هل عليّ أن أتقبل هذه الصفعة أيضًا؟
- هذه نازلة، النوازل لا تصيب إلا الثابتين.
- لكننـي هشّـة، وضعيفـة جـدًا.. ولم أعـد أحتمـل تصديـق هـذا الألم. قلبـي يرفـض ذلـك.
- قلبـك كان يرفـض الكتـمان، الآن هـو يرفـض إخـراج مـا صـار جـزءًا مـن نسـيجه. أرأيـت إن جرحـت يـدكِ، ثـم تركـت الجـرح مفتوحًـا، ألا يسـكنه لـوث؟ هكـذا أنـتِ، الهـم والحـزن داخلـك، كلاهـما لـوث. تـدراكي عـلاج قلبـك مهـما تألمـتِ، ذاك أجـدر كثـيرًا مـن أن تمكثـي عـلى مـا أنـت عليـه.. هـل أصحبـك لغرفتـك؟

أشرت أني بخـير. لملمـت أذيـال ذكريـاتي، وتركـت الغرفـة. حتـى صعـود الـدَرجِ يذكـرني، أصعـد الدرجـة الأولى، الثانيـة، أديـر وجهـي لغرفـة المكتـب، أسـمع صوتـه يناديـني:

- ماسة، ستنامين؟
- أجل، هل أحضر لك شيئًا؟
- ألم تنسَيْ أنتِ شيئًا؟

أضرب جبهتي بيدي.

- كيف أستطيع؟

أعـود إليـه، أقبـل بـين عينيـه كـما هـو دأبـه معـي، يقـول تصبحـين عـلى خير .

- وأنت كل الخير يا أبي.

تلتهمنـي الذكريـات بشراسـة، تندفـع لتنسـكب أمامـي دفعًـا، تتناثـر بعشـوائية. يـوم أصررت أن أكـون طبيبـة مثلـه، يـوم كـسرت سـاقي وتـرك الدنيـا خلفـه وأتى إليّ. يـوم سـقطت عـلى السـلم وصدمـت رأسي بالجـدار وقلبـي بجهـاد، وقـت أن أكل درجـات السـلم وأتى إليّ، أول يـوم لي بالمدرسـة، بـكائي لأنـه لـن يجلـس معـي، وعـده بأنـه لـن يغيـب طويـلًا، وعـوده التـي قطعهـا ووفاهـا كاملـةً إلا واحـدٌ أحنـث بـه رغـمًا عنـه، أنـه سـيبقى دومًـا. وفينـا نحـن بوعـده وزففنـاه لحـوره العـين، وبقينـا معـه، حتـى النهايـة. أفتـح بـاب الغرفـة، أركـض للسريـر، ألقـي جثتـي المثقلـة، وأتأمـل نقشـات السـقف الغـير موجـودة. مـا بينـي وبـين كتلـة الخشـب تلـك أكـبر مـن أن يكـون مكانًـا آتيـه كل ليلـة للنـوم. إنـه طريقـي لكهـف أفـر إليـه مـن العـالم. ومـا بينـي وبـين النـوم، أكـبر مـن أن يكـون عمليـة بيولوجيـة عاديـة، أكـبر مـن أن يكـون حتـى طريقـة للفـرار، إنـه الكهـف ذاتـه. يمكننـي أن أمكـث في هـذا الكهـف حتـى عشريـن سـاعةً إذا مـا تكاتفـت همومـي وتثاقلـت عليّ. عـلى أنـه لا يوثـق بـه أبـدًا، يمكـن لبعض مـا أهـرب منـه، أن يدخـل إلى هـذا الكهـف، ويلازمنـي هنـاك.

أبحـث عـن مـرسى لنفـسي بـين موجـاتي العاصفـة هـذه، أريـد مفـرًا، أنظـر للسـقف بـشرود طويـل، أرى حيـاة غـير الحيـاة، تتمثـل فيهـا ماسـة بعـد مـا طهـرت مـن عللهـا النفسـية، تخـرج مـن كـوخ صغـير مسـتقبلة الصبـاح برضـا كبـير. تسـير في حقـل أخـضر، بـين يدهـا كتـاب، وقلـم،

وقـارورة مـاء. تهتـدي إلى ظـلّ شـجرة التفـاح، وتجلـس متأملـة هـذه الجنـة الصغـيرة. أرى ثغرهـا يتمتـم بذكـر اللـه، تعـد التسـبيحات عـلى أصابعهـا كـما علمهـا أبوهـا.. الـذي فارقهـا قبيـل زمـن. أسـمع صوتًـا هـادئًا يناديهـا. تنهـض مسـتجيبة للنـداء، وتركـض تجـاه شـجرة أكـبر، معقـود بهـا حبـل كأرجوحـة. تأخـذ مكانهـا، تقبـض عـلى الحبـل بكفيهـا، تحركهـا ببطء، فجـأة تجـد نفسـها تطـير بقـوة، تغمـض عينيهـا ضاحكـة، صـوت ضحكاتهـا يتخلـل سـكون الفجـر في نغمـة محببـة. حـين يهـدأ مـرح الطفلـة داخلهـا، تنـزل عـن الأرجوحـة، تنظـر لمـن سـاعدها عـلى الطـيران ببسـمة ممتنـة، يبادلهـا الابتسـام و..

لا، لايمكن أن يرافقني في خيالي..

الخيـال نعمـة، لـولاه لمـات الكثـيرون كمـدًا، أن تغلـق عينيـك أو تفتحهـما، سـابحًا في ملكوتـك وحـدك، تسـتحدث أشـياء ومواقـف مـن العـدم، تركـض في سـاحاتك الخـضراء، أو تقـف أمـام البحـر تتمتـع بـرذاذه يلامـس وجهـك، تمسـك بيـد مـن تحـب وتـراه يطمأنـك؛ تلـك مواسـاة للنفـس كبـيرة.. لكـن أن يتخلـل كنـان حتـى خيـالي، فهـذا مـا لا أقبلـه أبـدًا. إننـي أقـر أننـي لا أحبـه، وجـوده فقـط لطيـف، مؤنـس، وصلـه ليّن، حديثـه رفيـق بي، عتابـه هـاديء، لكننـي لا أحبـه. لا أسـتطيع أن أسـتوعب فكـرة أنـه سـيرحل، ولا أسـتطيع اسـتيعاب فكـرة بقائـه أيضًـا، وأنـه.. يكـن لي شـعورًا مـا.

قالت دادة كريمة:

- أنـت تظنـين أن شـعورك تجـاه كنـان شيء يمكـن لمسُـه. المشـاعر عـلى اختلافهـا لا نمسـكها. نحسـها بأعيننـا، وقلوبنـا..

هـذا الأنـس الـذي تحسـينه تجـاه كنـان، لأنـه سـاعدك كثـيرًا، ولأنـك سـاعدته كثـيرًا أيضًـا، أوضـح أمامـك طرقًـا جديـدة، ومختلفـة، بعضهـا عـثر كقضيـة جـمال، وبعضهـا جميـل، كوجـود جـمال نفسـه.

أنـا حقًـا قـد ظننـت أن هـذا الشـعور الغريـب بالألفـة يمكـن أن ألمسـه. هـذا الأُنـس جميـل، أشـتاق أن ألمـس هـذا الشـعور، هـذه المـودة اللطيفـة كنهـر جـارٍ، قلبـي الخفيـف معـه كريشـة تتطايـر، عينـه.. الشـفافة، الواضحـة تمامًـا كـ.. بريـق ماسـة؛ كل هـذه الأشـياء، أتـوق لأن تتحسسـها أصابعـي. لا أن أحسـها بقلبـي فقـط.

- أخبرك شيئًا يا صغيرة؟
- أخبريني يادادة.
- أحيانًـا أحـسّ بـأن لقـاءك جـمال، وإيـواء كنـان لـه، لم يكـن لأجـل جـمال فقـط؛ خلفـه يكمـن شيء أكـبر بكثـير.
- مثل ماذا؟
- مثل أن يكون جمال حلقة وصل بين دربين متوازيين.

لم أفهم، سألت:

- من أين أتاك إحساسك؟

قالت وهي تهم بالمغادرة:

- قلـب العجائـز الـذي في صـدري، قـد حمـل بداخلـه أضعـاف مـا حملتـه.. هـذا القلـب المشـبّع بالحكايـا، لا يمكـن لحدسـه أن يخطـأ.

مـا حمّلنـي أن أتذكـر حديثهـا الآن؟ آه.. تذكـرت، ولـوج كنـان عالمـي

الخـاص، حيـث لا يمكـن أن أسـمح لـه أن يكـون. فجـأةً صعقنـي سـؤال سـاخر مـن عقـلي: «ألم يدخـل كنـان حياتـك أصـلًا، إلا حينـما اقتحـم عالمـك الخـاص؟ ألم يقتحـم شرودك الطويـل لهـذا بـات موجـودًا؟ لمَ تحرمـين عليـه الآن التواجـد في مكانـه الطبيعـي؟».

- لا.. لا أستطيع أن..

يثرثر عقلي:

- خوفكِ من حبّه، حبّ آخر يا حمقاء..

أنهـض عـن سريـري، أبحـث عـن الحاسـوب، وعقـلي لا يـكاد يقـف عـن الثرثرة.

- كفـى هربًـا، تعاهـدت مـع نفسـك أن تواجهـي، لا تهـربي.. منـه.

يضربنـي عقـلي بسـوط المنطـق، أتجاهـل حديثـه، أبحـث عـن أي شيء يمكنـه أن يلهينـي عـن هـذا التفكـير الأحمـق.

- إن كان شعورًا غير صحيح، واجهيه. لا تهربي منه.

ألقـي الحاسـوب مـن يـدي، لا شيء يجـدي حـين يتعلـق الأمـر باقتنـاع عقـلي بفكـرة مـا. ولا شيء يجـدي إن كان الأمـر يخـص كنـان. هـذا الرجـل.. العـاديّ حـد أن تكـون عاديتـه جذابـةً ومبهـرة، لشـخص عـانى مـن الاسـتثناءات، مبهـر لشـخص في حـد ذاتـه اسـتثناء. تطـرق الـدادة البـاب، تدخـل رأسـها.

- نمتِ؟

- لا، تفضلي.

- هناك من ينتظرك في مكتب والدك.

رأت علامات الدهشة على وجهي.

- أين تركتِ هاتفك؟

- لا أذكر.. ربما في حقيبتي، أو على المائدة..أ..

قالت وهي تضرب كفا بالأخرى:

- ارتدي حجابك، كنان بالأسفل.

- لن أرى أحدًا، يعرف أنه لا يجب أن يأتي وحده.

- برفقة هارون..

هارون؟ في الحادية عشرة؟ يوم عطلته؟ خطر ببالي أن رهف ليست بخير، ارتديت ثوبي وحجابي مسرعة وأكلت قدماي السلم، حين دخلت كان هارون وحده، يجلس متوترًا، يفرك يديه، ويضغط أصابعه بعشوائية. قلت بتوتر لا يقل عما به:

- هل رهف والتوأم.. بخير؟

حين رآني قام كأنما لدغه عقرب، خطى مسرعًا حتى وقف أمامي. تفحص وجهي القلق طويلًا. أعدت سؤالي:

- هارون، هل جميعكم بخير؟

ظل كما هو، يراقب انفعالاتي مبتسمًا. أجاب بعد ثوان:

- بخير، حتى أحدًا منا لم يكن بخير كما الآن.

تنفست الصعداء، وجلست على الأريكة، أحضر أوراقًا موضوعة فوق المكتب وجلس، على غير عادته مجاورًا لي، قريبًا مني.

- أريدك أن تقرأي نتيجة الفحص هذه بتأنٍ.

وضعها بين يدي، رفعت حاجباي بدهشة:

- تحليل حمض نووي؟

حثني أن أتابع. الورقة مقسومة نصفين، نصف به اسمي؛ هتون صالح، ونصف يحمل اسم هارون؛ هارون أيهم. آخر ما يمكن أن أتوقعه يحمل اسمي واسم هارون، تحليل حامض نووي.

- هل تشاركنا في سرقة مجوهرات وهذه نتيجة البصمات؟

لم يرد، ظل يفرك يديه بذات القلق، خفت.

- هل ستخبرني عن الذي يحدث هنا أم أتركك وأذهب؟

- اقرأي السطر الأخير.

كان مكتوبًا: «بناءً على تتابع الجينات وبعد تحليل الحامض النووي لكلاهما بدقة، تبين تطابقه في كل من عينة السيدة هتون والسيد هارون بنسبة تسعين بالمائة».

- عينات؟ تطابق؟

أتاني صوت كنان من الخارج:

- سأشرح لكِ، كوني هادئة.

ثنى ركبتيه وجلس أمامي، نظرت إليه بعدم فهم يتخلله خوف، نظر إليّ بعينيه اللتين أسكن بهما، وأسكن داخلهما.. وبدأ يشرح:

«تذكرين ما أخبرتني به عن حديث والدك لجهاد؟ يومها عرفت تفاصيل أكثر من هارون، وكان قد أخبرني قبلًا عن رغبته في أن يصل لأهله».

نظرت لهارون متسائلة:

- أنت الذي أراد؟ لم يكن لك صديق؟

أومأ أن نعم، تابع كنان:

«هذا شيء لم أخبرك به، لكني لست نادمًا لفعله. تذكرين أيضًا

يـوم أخبرتنـي سـهوًا اسـم طبيبـك الـذي ترِديـن عليـه؟ لقـد.. ذهبـت إليـه ياماسـة. ليـس لـشيء سـوى أن أطمـئن عليـكِ، هـو أخـبرني بمـا لم تريـدي أنـتِ إخبـاري بـه، ومـا ظـن الجميـع أني أعرفـه. يـوم كنـت مرتبكـة مـن الخـوف في المشـفى، تأخـرت عليـك لأننـي كنـت عنـده. لا يهـم، قـد أخـبرني أنـك ربيبـة الدكتـور صالـح، وجمعـت خيـوط الحكايـة سـويًا، وقـد كان لـديّ سـلفًا خيوطًـا أخـرى، وأنـت كنـت حلقتـي المفقـودة».

قلت بذات النبرة:

- لم أفهم شيئًا.

فأكمل:

«كان لـدى هـارون أخـت، لم تسـتطع أمـه العثـور عليهـا. أخذتهـا عجـوز مقدسـية لحضنهـا بعدمـا وجدتهـا جـوار أنقـاض منـزل هـدم جـراء إحـدى الغـارات، وسـافرت بهـا للخـارج. سـألت معـارفي وإذ بهـا أتـت لهنـا فأخـبروني عـن مـكان سـكنها، بعـد بحـث طويـل علمـت أن لهـا ابنًـا شـابًا هـو مـن أحـضر أمـه إليـه خـارج فلسـطين خوفًـا عليهـا. هـذه السـيدة، شـوقًا لوطنهـا قـد ماتـت. لم يتحمـل ابنهـا وجـود هـذه الرضيعـة، التـي هـي شـقيقة هـارون، وقـرر التخلـص منهـا. وفي يـوم ممطـر مـن أيـام كانـون الثـاني، قـد لفهـا في غطائهـا الـدافيء، ووضعهـا أمـام أحـد المتاجـر، قـرب سـيارة رجـلٍ ثلاثينـي.. يدعـى صالـح المحمـودي. قـد آواهـا هـذا الرجـل، وأسـماها هتـون».

لزمنـي الصمـت. بعـد نيـف وعشريـن سـنة؟ أكـثر مـن ربـع قـرن؟ عمـر كامـل قضيتـه بحقيقـة ليسـت حقيقتـي؟ كممـت الصدمـة فمـي، وأفـكاري، حتـى أن عقـلي هـدأ.. أو توقـف. أيـن أسـئلته التـي لا تنتهـي؟

أيـن المنطـق في هـذا الهـراء؟ اقـترب هـارون منـي، أمسـك يـدي بـين يديـه.

- نحن أخوين بالدم، كما نحن بالقلب يا ماسة.

- لا..أصدق، ثمة أمر خاطئ.

أنظر لهارون بغير تصديق:

- أنا، أنت؟ كيف؟

أسأل كنان بخزي وحسرة، كأنما أسأل نفسي:

- هل عمري كلّه، عشته بظن أنني شيء.. لست عليه؟

- لم يتغير شيء. كل منكما مبتور رُدّ إليه ما ينقصه.

- لا أصـدق.. هـذه مزحـة. لا يمكـن أن يحـدث شيء مثـل هـذا في حيـاة أحـد.

- لو أن أحدًا حكى لي هذا ما صدقت، لكنه حدث.

قال هارون:

- كانـت أمـي تتمنـى، لـو تمـلي عينيهـا منـك.. وقـد كان، بـلا أن تـدرك أنـك أنـتِ.. أنـتِ ابنتهـا.

حاولـت قبـول الفكـرة. أسـندتُ ظهـري للأريكـة متذكـرة اهتمامهـا الزائـد بي، عتابهـا لأمـي إذا مـا أحزنتنـي، ملاطفتهـا لي في كل وقـت. هـل تشـعر الأمهـات بأبنائهـم أينـما كانـوا وكيفـما أقامـوا؟ أن تظـن أن مـا تنقـب عنـه بعيـدًا كالسـماء السـابعة، ثـم يكـون قريبًـا لهـذا الحـد، وتسـعى جاهـدًا، سـنينًا مؤلمـات لتلتقطـه.. ثـم تتعـب، فتفـتر عزيمتـك، وتيـأس وتتنـاسى، فيرسـله اللـه لـك حـين تكـون في أشـد الأوقـات احتياجًـا إليـه، في الوقـت الصحيـح تمامًـا.

- إنه التوقيت الإلهي، الصحيح دومًا.. كما يقول أبي دائمًا.

امتلأت عيني بالدموع، الآن فهمت شعوري بالمسئولية غير المبرر تجاه هارون، مشاركتنا لأشياء بعينها، مزاجيتنا المتشابهة، حتى تشابهنا البسيط في الملامح والهيئة. حين كنا في الجامعة كنت مؤمنة بأن للمرء أشباه أربعين، وأن هارون أحد هؤلاء الأشباه بهيئة رجل، هو كان مقتنعًا بأنه تلاقي الأرواح، الآن نسخر من هذا التفكير، ومن حديثنا عن هذا التشابه العجيب، لكننا كنا نؤمن في قراراتنا أن هناك رابطًا قويًا يجمعنا، ولم نصل إليه، رابطٌ أكبر من حبنا للعربية، والناي، ومن أي ما نتشاركه. لم يخطر على بال أحد، ولا عقل أحد أبدًا أن أكون جوار أخي طوال الوقت، يفرق بيننا جدران بيت، وسر خبأته عجوز بقلبها قبل أن تموت. شد هارون على يدي، وهو يقول:

- أنت ابنة شهيد فلسطيني.

- هذا يعني، أنني.. لست، ما كنت أخاف منه طيلة حياتي؟

قال مؤكدًا:

- إني أنا أخوكِ..

مسح هارون دمعاتي، وألقى برأسي على كتفه، أخذ يمسد عليها كثيرًا، وأنا.. بدأت أشعر أن دلو الثلج الذي سقط فوق رأسي بدأ يذوب، وتسيل بذوبانه دمعاتي. هارون.. أخي؟ يعلو صوت بكائي. أتشبث بقميصه، وأبكي.

أنا لست وحيدة، لم يذرني الله فردًا! هل هكذا شعر النبي زكريا بعد أن رزق يحيى مصدقًا لما بين يديه؟ توقيتك الصحيح مذهل يا الله. سبحانك في منعك كل العطاء، في منعك كل الرحمة، كانت حكمتك الخفية التي لم يعلمها إلا أنت، ولو أنها قد تبينت لي في

وقت سابق ما فهمت، وما أدركت قيمة هباتك. في منعك كل الود، واللطف والجبر، اغفِر لي غفلتي عن هذا، اغفر لي ضعفي وجهلي.

- كفانا بكاءً.. أرجوكِ.

مسحت دمعاتي وقلت ضاحكة، من كل قلبي، كما لم أكن فرحة من قبل:

- كفانا بكاءً.

وضع كفه فوق كفي، ضممتها إليّ كما لو أنها طوق نجاة.

- الحمد لله الذي شدّد بك أزري.

كانت دادة كريمة تقف على الباب تهطل عبراتها الهادئة في صمت وحبّ.

- كنتِ محقة يادادة، محقة كثيراً. الله لا يترك عباده، الله لا يترك عباده أبدًا.

جملتها التي لا تنفك تنهيها حتى توصلها ثانيةً. تقول أن الله لا يترك عبده للمِحَن إلا ليقوّيه، ولا يتركه يتقلب بين عثرات الدنيا إلا ليشد عضده. ما كان الله نسيًّا، حاشاه، هو الذي من إن لُذنا به في وحدتنا أنِسنا، ومن إن ذُقنا لذة قربه ثم أبعدنا عنه الهوى والدنيا.. تجرعنا مرارة الذنب حتى يعيدنا إليه.

- ماسة، تعالي معي.. تعالي بيتي، لا تكوني وحدك.

أنا بحاجة لأن أكون معه، لأن أجالسه طويلًا. إنه معي دائمًا، ماذا بي أشعر كأنه قادم من سفر هذه السنين؟ نظرت للدادة كريمة، تقول بسمتها اذهبي. وقلبي يخشى أن يخطو خارج البيت. كان كنان يقف خلفها، عيناه تريدان قول شيء، وعيناي قالتا له كلّ شيء، أريد أن

أشـكره كثـيرًا، وجهًـا لوجـه، لكـن ليـس الآن. الآن أريـد فقـط، نفـسي وأخـي.

- ماذا قلتِ؟

مسدت على كفه أجيبه:

- بي إليـك شـوق لا أعـرف مـن أيـن أتـاني، كأني مـا رأيتـك إلا اليـوم. أرغـب في الحديـث معـك ليـال طـوال ونهـارات أطـول، أن أحـكي لـك كثـيرًا أشـياء تعرفهـا وأشـياء لا تعرفهـا..

- لكن؟

- لكـن هـذا بيتـي بيـت أبي، الـذي ربّـاني وآواني وأكرمنـي. هنـا كل ذكريـاتي، لا أسـتطيع أن أتركـه.

- أريدك جواري أنا ورهف، كي لا تكوني وحدك.

- في رأيـك، هـل هـذه السـيدة تتركنـي وحـدي؟ أنـا لا أتـرك بيتـي، ولا ماما كريمـة.

- سـأعود إليـكِ صباحًـا مـع رهـف والتـوأم، يعـز عـليّ أن أتـركك وحـدك، أريـدك أمـام عينـي دائمًـا.

تدخل كنان:

- ألا تراهـا كل يـوم يـا بنـي؟ يكفـي هـذا الحديـث لليـوم، وتعـالَ أزل شـوق الفجـأة هـذا غـدًا.

نظـرت إليـه، كـدت أبتسـم مـن ملامحـه المتضايقـة، تمالكـت نفـسي وشـددت عـلى يـد أخـي.

- هـارون، سـأكون في اسـتقبالكم باكـرًا، ربمـا لا أسـتطيع النـوم مـن سـعادتي.. الحمـد للـه أن شـدد بـك أزري.

ترقرق الدمع في عيني مما أشعر به، تذكرت وحدتي هذين العامين، وخوفي كل ليلة لأني أبيت بمفردي، لم تحتمل أمي فراق أبي ولحقت به. واستأثر هارون بزوجه، تاركين كل هذه الذكريات الدسمة، تجثم على قلبي وحدي. رافقتهم للباب، لم أترك يد أخي، لا أستطيع. الكلمة لذيذة، الشعور رائع. ظهري لن يعود مكسورًا. أخي؟ شقيقي.. أنا؟ هناك جزء حقيقي يشبهني، مرتبط بي دمًا وقلبًا وروحًا، ويسير أمام عينيّ..ما هذه الحلاوة؟ قبّل رأسي:

- نوم الهنا ياحبيبة أخيكِ.

أسندت رأسي للحائط، ضممت ذراعيّ إليّ، مراقبة خطوات هارون بسعادة، برضا، وبلذةِ المطر الذي أرسله الله إلى قلب أرضٍ جدباء. قال كنان، بعينيه المليئتين بالحديث:

- تصبحين .. على خير.

قلت كل شيء صامتة. ما بيننا تجاوز الكلام، فهمني دون أن أقول حرفًا.

- هل أخبركِ سرًا؟

أومأت مبتسمة أن أجل. همسَ:

- آلمتني ساقي أمس.

وكمم فمه بيده، كأنه افتضح أمره. ضحكتُ بخفة.

- لم أركِ تضحكين هكذا أبدًا.

- أخشى، من فرط هذه السعادة..

أسكتني:

- لا كتب الله عليك مكروهًا.. لن أحتمل أن يمسك سوء.

لم أرد، ظللت على حالتي، ووقف جواري. لا يتكلم ولا أتكلم، وداخل كل منا يشكو للآخر صمته. أتى هارون من خلفه، ممسكًا ذراعه بقوة:

- أنا من لن يحتمل وقفتك هنا ثانية أخرى.

لم يتحرك كنان، كان نظره ثابتًا تجاه شيء فيّ، أسقطت عيني حيث عينيه، إذ بها قلادته، الزجاجة الصغيرة، التي تحوي ماسته المهشمة، تتدلى من جيدي. حررت ذراعاي بسرعة، قبضت القلادة بين كفّي كأنني أفلحت في أن أخفيها، كطفل يختبأ من والده خلف ستائر البيت معتقدًا أنه لن يرى قدميه. قلت لهما مضطربة:

- تصبحان على خير.

وأغلقت الباب. عدت راكضة لمكتب أبي، أمسك ورقة التحليل هذه، أقبلها كل ثانية، أشتمها طويلًا كأنها أتت تحمل معها رائحة أخرى غير رائحة غربتي بين نفسي، وأضمها إليّ ضم الضائع الذي وجد أهله. تحركت ماسةُ كنان لتستقر جوار رأسي. مررت عليها أصابعي بامتنان، مستعيدة كلماته بأنها وإن انكسرت لقطع صغيرة، لا تزال ماسة. نمت هذه الليلة كما لم أنم من قبل، داخلي رضا لا يعدله رضا، وسعادة وددت لو أقتسمها مع العالم كله. في هذه الليلة، زارني أبي، كان في المشفى، يمسك صورة تجمعني به، وتفرج شفتيه عن بسمة هادئة، مستكينة، كأنه يشعر بي، كأنه الآن فقط يستطيع أن يرقد في سلام، لأن ابنته لم تعد وحدها.

## (١٩)

الظلام حولي، هناك عطلٌ في الكهرباء. أنا.. أرتعد من الخوف، جسدي قطعة جليد لايتحرك. أخافُ الوحوش التي أعرف أنها غير موجودة. لا أقدر أن أحرك عينيّ لأنظر عن يميني. الخوف يتربص بي، يُجثم على صدري. نفَسي يتباطأ ثانيةً. تند عني صرخة منادية باسمه» كنان».. أين أنت ياكنان؟ أبحث في هذا السواد عن يديك، رغم يقيني أنك لست هنا. أهرّب لصدري نفسًا عميقًا كأنما وحشي المخيف لم يلحظه، وأمد يدي لطرف الوسادة. تنسل أصابعي تحتها بحذر، وعيني تجوبان الغرفة فزعًا أن يراني الوحش، الغير موجود.

ألتقط دفتري وقلمي، أنير شاشة هاتفي، وأتكأُ على هذا الضوء الصغير، لأكتب لك، لأحسّك معي: «ها أنا ياكنان، أتكئُ عليك، وكتفُك بعيد. المرأة التي تُقصيك رغمًا عنها وعنك، مسلوبة الإرادة تركضُ إليك، تُقرّ بين يديك الغائبتين أن الفراشَة تستطيعُ أن تستريحَ فوقَ أصابعك الحنونة». أضع القلم، أسأل نفسي صراحةً:

- أحتاجه؟

تجيبني ذاتي بتقريرية:

- أحتاجه..

أمسك القلم مرة أخرى، أتابع الحديث معه، أراه بعين قلبي، يجلس جواري، يستمعُ.. بحُبّ: «ماذا أفعل في مخاوفي تلك ياكنان؟ إلى أين أهرب منها؟ أخشَى.. إن قُلتُ نعم، وسلّمتُ يدي المتوترة

ليـد الزمـان المتقلـب، أو حتـى اطمأننـت لهـا.. أن تمـلّ حمايتـي، وأعـرفُ أنـك لـن تفعـل. إن أصغـر أصغـر وسـاوسي مربكـة، مُتعِبَـة، مثـلي تمامًـا. أخـبرك مثـلًا أني أخـشى الظـلام كثـيرًا، لا أسـتطيعُ أن أغمـضَ عينـي وأنـا وحـدي، ليـس بجانبـي أحـد. أخـبرك مثـلًا أني أخـاف الوحـدة أكـثر. أخـاف المرتفعـاتِ أيضًـا، وأنـت.. كأنـك تحـاول الصعـود بي إلى قمـة جبـل، لتثبـت لي أن هـذا العـالم لا يسـتحق أن أخشـاه طالمـا أننـا معًـا. أخـافُ أن أخطُـوَ للأمـام، أن أصعـد درجـةً واحـدةً للأعـلى، مـاذا لـو سـقطتُ عـلى جـذور رقبتـي؟ مـاذا لـو لم أجـد يـدك في إحـدى المـرّات؟ مـاذا سـأجني غـير خيبـة أخـرى، وثقـب آخـر؟».

أضـع القلـم، أفتـح الهاتـف، أتفقـد صنـدوق الـوارد، أضغـط عـلى أيقونـة تحمـل اسـمه بينـما أفكـر فيـم كتبـتُ قبـل ثـوانٍ معـدودة. في أوقـات أقـول، أن وجـوده سـيكون أكـبر جائـزة، وأن أُنـسي بـه في طريـق الدنيـا الشـاقة، أغـلى وسـام يمكـن أن أنالـه. أعـود وأقـول أن هـذا لـن يسـتمر، فأمضـغ حسرتي وأسـكت. تعبـث أصابعـي بلوحـة المفاتيـح، أريـد أن أكتـب شـيئًا، مـاذا لـو كان هنـا، هـل كنـت لألجـأ لهـذه الآلـة الجامـدة؟ هـل كنـت لأحـاول البحـث عـن شيء لقولـه؟

- زارك الأرق؟

أبتسِم.

- أسوأ، هناك عطل في كهرباء المنزل.

أعنـي العطـل الـذي نسـيته، فجـأة وجـدت الخـوف الـذي كان يجثـم عـلى صـدري، قـد نـام بـين ذراعـيّ هانئًـا هادئًـا. كل شيء حقيقـةً تحـلى بالهـدوء.

- أنتِ بخير؟

أرسلت:

- أصبحت كذلك.

تبعتها بأخرى:

- أريد.. الاطمئنان على جمال.

- إنه بخير، لأنك سألت عنه. ويريد أن يتحدث إليك.

رنَّ هاتفي، أجبت مشتاقة لفتاي الصغير:

- أوحشت قلبي كثيراً..

- وأنتِ، أوحشتِ قلبه كثيراً.

كان هو، الطفل الكبير. قال:

- أردت أن أسمع صوتك، تفضلي، هو معك.

ناداني جمال بعثرة لسانه التي أحب

- ماثة، أفتقدك جدًا.

- وأنا.. أفتقدك جدًا..أيدعك كنان مستيقظًا لهذا الوقت دومًا؟

- لم يحتمل أيّ منا شوقه إليكِ، فسهرنا يبث كل منا لواعج قلبه للآخر.

أبعد الهاتف عن أذني غير مصدقة طلاقة هذا الفتى وبساطة تعابيره.

- ماثة، أريد أن آتي إليك.

- الآن؟

- إن لم تقولي لا.

- الفجر قارب، لو يستطيع شوقك الجميل أن ينتظر للصباح الباكر، كنان أيضًا..

قال كنان:

- غدًا عطلة، أعلنها عطلتي.. إن قلت نعم، أجلبه إليك، الآن.

تنهدت في حيرةٍ لذيذة. قلبي يكتُمُ صرخاتِ الفرحة. إنه يريدُ رؤيتي، ليلًا، في هذه الساعة، على استعداد أن يترك دفء غرفته ليأتيني! قلت بخجل باسم:

- لكن.. الوقت..

- ما الوقت يا ماسة؟ الوقت لنا، كلّه.

مضى الصغير يحادثني، وأنا بين مستمعة له وطربةٌ للضوضاء حوله. أسمعه ينادي جمال ليرتدي كنزته، صوت مفاتيح السّيارة، رقص له فؤادي. الدم يغزو وجنتي من الخجل، والسعادة، وبقايا الخوف. أحسست نفسي صغيرة، أو أنني عدت صغيرةً، أمضى جمال ربع ساعة يحادثني في كل شيء، المدرسة، معلمة العربية التي يصر أنها لا تتقن مخارج الحروف، وأنه يحب إتقاني للغة، أقول أن الجميع يمكن أن يخطأ، يقول أن الخطأ أمام الصغار بألف خطأ، يتطرق لمواضيع كثيرة في نفس الوقت، أندمج معه ناسيةً الدنيا الكبيرة، وأحشر ضخامة جسدي في عالمه الصغير عنوة. يتوقف عند الحديث عن غزل، زميلته في الصف. يحكي عن جدائلها البنية، وضحكتها التي يحب أن يراها، يقول أن لها صوتًا جميلًا، تقرأ القرآن في الحصة بعذوبة، ويريد أن يحفظ القرآن مثلها.

- ماذا أيضًا عن غزل؟

قال بشرود عاشقٍ:

- مـاذا أحـكي؟ وجودهـا لطيـف، أقـف كل يـوم منتظـرًا أن تمـر أمامـي دون سـائر النـاس، تعرفـين؟ هـذه اللحظـة تنعـش يومـي كلّـه، كأن تتذوقـي مـشروب الليمـون المفضـل لـك في يـوم قائـظ الحـرارة.

قلت من بين ضحكاتي:

- أنـا أشرب الليمـون صيفًـا وشـتاءً يـا جـمال، لا يمكـن لغـزل أن تشـبه الليمـون.

- إنهـا.. نكهـة يومـي كلّـه، لا أريـد أن تنتهـي الدراسـة كي أراهـا دومًا.

- هل تعرف هذه البنت، أن هناك فتًى رائعًا مثلك يحبها؟

قال بحماس:

- أظنهـا بـدأت تشـعر، ضايقهـا فتى في الصـف الرابع، واشـتبكت معـه وغلبتـه. أعـدت إليهـا عقـدة كانـت تربـط بهـا شـعرها، وشـكرتني بأدب.

أخرج تنهيدة وقال بحالمية:

- منـذ ذلـك اليـوم، وأنـا.. أتمنـى لـو كل مـا أسـمعه هـو صوتهـا الحلـو بهـذه الـ «شـكرًا».

- وأنـا أتمنـى، لـو كنـت التقيـت بكـما منـذ زمـن بعيـد، أتمنـى أيضًـا، لـو أن هنـاك إنسـانٌ واحـدٌ يحـبّ غـيره بهـذه البسـاطة.

سألني بغرابة:

- ألا يفعل كنان؟

لقد ورطتِّ نفسَكِ، أجيبيه يا ساذجة، ألا يفعل كنان؟ ألا يوجد قلب يحبك بمنتهى البساطة والتعقيد؟ أبحث عن جواب غير بلى، ولا أجد. إنه يفعل، المعضلة أنا، في أعماقي، مع مخاوفي التي لا ترى بمجرد الرؤية، وأبصرها كنان، حين تخلل روحي. ينقذني صوت محرك السيّارة. أفتح نافذتي، نافذة الغرفة أو نافذة قلبي، لتطلّ عيناي عليه، ويتنسم قلبي بقدومه.

- لقد.. أتيت.

- جملتك هذه ، تقريرية أم توكيدية؟

- بل غير مصدّقة. كنان.. أنت، هنا حقًا.

أطفأ المحرك، هبطا سويًا يدًا بيد، يتبادلان البسمات حُبًّا بحُبّ، دفءًا بدفء.

- ماسة، لا تغلقي الخط، وتعالَي.

ألقي الحجاب على رأسي بعشوائية، وأنظر للباب متوجسة خيفة.

- أنا معك، هذا الظلام، سيزول.

أضع يدي فوق صدري، أقترب برهبة، أسحب نفسًا عميقًا، أمسك المقبض فأشعر بشيء يتمثل لي خلف الباب.

- أنا أخشى الظلام كثيراً، لا أستطيع.

- أنا هنا، وأنتظرك..

أفتح الباب، تصدر عني شهقة خائفة، أغمض عيني بقوة كي لا أرى شيئًا يخيفني.

- لا شيء يمكن أن يصيبك، طالما أنا معك.

أمـد قدمـي خارجًـا، أقـف عـلى أطـراف أصابعـي، كالمُسـنِدَةِ ظهرهـا للهـواء، كالمُعلّقـة في المُنتَصَـف، كأن الأرض تـأبى أن تمسـها قدمـي. يَضيـق صـدري، لا ينطلـق لسـاني، أريـد أن أناديـه، حنجـرتي تؤلمنـي، صـوتي مكتوم.

- كنان..

- هنا، دائمًا هنا.

يعلـو صـوت أنفـاسي، أحـس نفـسي محـاصرة، أريـد أن أفـترش الأرض وأبـكي، مـن يسـتطيع تحمـل جبـل المخـاوف هـذا وحـده؟

- تذكرين يوم قُلتِ أن هذا البيت، مستوطن ذكرياتكِ كلّها؟

أهمهـم بأنـين مرتعـد، أقتـات بصوتـه الهـادئ لأصمـد قليـلًا، أمسـك مقبـض السُـلّم، أمـد قدمًـا للهـواء، وأعيدهـا ثانيـةً. مـن يرضيـه أن يكـون هـذا الخـوف كلّـه، لي وحـدي؟

- تذكريـن يـوم حكيـتِ لي عـن أجمـل شيء حـدث في هـذا البيـت، منـذ وفـاة أبيـكِ؟

أهبط درجة، أثبت قدمي، أجيبه بصوتي الخافت، الخائف:

- أذكر..

- وقبل أن تتمني لِي ليلةً سعيدة..

أتذكـر القـلادة، أضمهـا بيـدي، وأهبـط درجـة. أسـمع بـأذن قلبـي تنهيـدةً خرجـت مـن صـدره، تنهيـدة فرِحَـة. لا شيء يمنـع أحدنـا مـن الشـعور بمـا يعتمـل الآخـر، ولـو حـال بينـي وبينـه شيءٌ وهمـي مـؤلم كوسـاوسي، وشيءٌ حقيقـي مـؤلم كالمسـافات التـي يـبرع في أن يسـبقها. أنشـغل بسـكوته، بصـوتِ أنفاسِـه، وأرى انفراجـة كربتـي، هـذا هـو البـاب، بقـي القليـل، أسـتطيع تجاهـل الزهريـة فـوق المنضـدة، التـي تشـكل في

الليـل ظـلًا يخيفنـي. لـن أحيـد بنظـري عـن البـاب، خلـف هـذا البـاب ينتظراننـي، وسـيضمانني بحديثهـما كي أطـمأن، وآمَـن.

- في هذا اليوم ياماسة..
- يوم عرفت من أكون حقيقةً؟
- نظرتُ لعينيكِ، وعرفتُ من أكون أنا.

أفتـح البـاب، يُغلـق الهاتـف. يتفحـص ملامـح وجهـي الـذي تلـذذ بهـا القلـق. أحببـت طريقتـه في الاطمئنـان عـليّ، وفي طمأنتـي. أردت إخبـاره، أننـي أيضًـا عرفـت مـن عينيـه كينونتـي. ضحكـت بخفـة، وقلـت كمـن انتـصر في حـرب:

- لم أبكِ.

كعادتــه، عينــاه لا تقــولان شــيئًا، الكلــماتِ تتــسرب منهــما لأوردتي، تبلغـان مرادهـما بصمـت. وكعـادتي، تقـول عينـاي كلّ شيء، ويجيـد هـو التقـاط مـا تقولانـه، دون أن يفلـت حرفًـا واحـدًا. أغمـض عينيـه لثانيـة، كمـن يحفـظ اللحظـة بـين طيـات جفونـه ليعيدهـا مـراتٍ ومـرّاتٍ لاحقًـا.

- جميل.

اجتاحـت قلبـي رغبـة كبـيرة، في أن أقـول أنـه لا جميـل غـيره هنـا، في هـذا الوقـت مـن الليـل لا جميـل غـيره، تحـت ضـوء هـذا البـدر لا جميـل غـيره، بـين لمعـان النجـمات..

- ماسة، أنا من أراد رؤيتك.

عانقنـي جـمال، ومقلتـا كنـان لم تغـادرا وجهـي، أعـرف قسـوتي عـليّ وعليـه، لم أتـرك البيـت منـذ أشـهر، أعـرف أننـي مـن قـال لا تـأتي، وأنـا أحتاجـه، لا أنـسى كـم مـرّة ضايفتـه دادة كريمـة كي لا تحرجـه، دون أن

أعير وجوده انتباهًا، كاذبة، كنت أستمع لحديثه كلمة كلمة، لكن خوفي هذا.. من يسحبه مني. عيناي الواشيتان سألتاه، ضيق حاجبيه مستنكرًا، كأنما يقول ومن تريدين أن يصده عنك غيري؟ الواشيتان قالتا لا أحد.. غيرك. ارتخت عضلات وجهه، وندت عنه بسمة.

- نجلس في الحديقة؟

- جمال، الوقت متأخر.

- لكن كنان لن يمكنه الدخول.

ابتلعت ريقي، وقلت متحاشية وجهه، موّليّةً عني سعادتي:

- كنان.. سيرحل، وأنت ستبقى معى..أما هكذا أردت؟

- أنا أخاف الظلام أيضًا.

- أنت رجل، تستطيع أن تحميني.

مسح كنان على رأسه، قال بيأس:

- سأذهب، وآتيك صباحًا. إنها في حمايتك.

لماذا انقبضت ملامح وجهي وأنا من أزحته عني عنوة؟ لماذا آلمني حلقي من الضيق حين قال سأذهب؟ لا أستطيع أن أتحكم في خوفي، أو أن أنطق كلمةً مفيدة، إنني حائرة. شعرت بيد على كتفي، كانت دادا كريمة، نظرت إلي بعتاب وقالت:

- لا تتركيه.

تعلقت بعينيها راجية ألا تكلني إلى نفسي، لكنها أصرّت. تحركتُ خطوات للأمام، وتوقفت. قلت بصوت أقرب للهمس:

- لا تذهب.

- ماذا؟

شيء ما داخلي نعتني بالحمق أن جهرت بها، وأخرسه قلبي.

- نحن.. أعني.. جمال.. يحتاجك.

ناظراي يقولان أنا من يحتاجك، إياك أن تصدق كلامي، إياك أن تذهب. ناظراي يقولان هذه الساذجة تتدلل، لا تتركها.

- كما قلتِ، سيتدبر أمره.

تمنى لنا ليلة لطيفة، وضع يديه في جيب معطفه، واستدار مغادرًا. مشيت نحوه بخطوات سريعة، وقفت أمامه، ونسيت لماذا جئت.

- ماذا هناك؟

- ابق معنا..

- مشغول.

- عني؟

ابتسم.

- إلّا أنتِ.

- يمكننا أن نجلس في الحديقة.

ناداني جمال:

- دادا كريمة ستعد لي كعكا أشتهيه، وسأسبقكما إلى الأرجوحة.

قلت معترضة:

- إنها لي!

- لم تعد كذلك.

حك كنان رأسه بيده، هذه الحركة تعني أنه مرتبك من السعادة، وعلي أن أتكلم وإلا سنظل بهذا الهدوء الجميل طويلًا، أطلق صفيرًا خفيفًا وأخذ يدندن. تحركت خطوات صغيرة، وجلست على عتبة

الباب، تاركة مساحة شاغرة تناديه. هذا الصمت الذي اعتدت عليه معه، أجمل ما يمكن أن يلمس قلبي. لقد علمني كنان لغة أخرى للحبّ، أبلغ من أن يخبرني أحبّك. لقد آنسني، مسح عن رأسي غبار الماضي، وضمدني بنظراته. إن سكوته هذا أشبه بضمة، بقبلة على رأسي اعتذارًا عن أي حزن أصابني.

يقولون أن الإنسان يهدأ جوار من يحب، أراها مقولة مغلوطة بعض الشيء، فالإنسان يهدأ بجوار من يلمس جرحه وينبهه أن هاهنا ألم، يضع في شق هذا الجرح بذرة من الصبر، ستؤلم؟ ليكن. سيسقى الذرة صاحبُها بالدعاء، والتفقّد، والكثير من «أنا هنا». أؤمن بأن المرء يشعر بالهدوء جوار من يكوي الطعنة لتبرأ، لا من يهديها مسكّنًا للألم ويتركها نازفة. يهدأ المرء، حين يجاوره من يحبّه، لا من يحبّ.

أهدته السيدة كريمة كوبا من العصير، وذهبت تجاه جمال، جلس جواري، يجوب بعينيه ما حوله بارتباك، فجأةً أحسست نفسي تقلّصت، أشتت نظراتي للعشب، ثم للطريق، ثم بلا قصد لكفه التي يملس بها على العشب، أتجاهله، أنظر لجمال، أعود للعشب، أنتقل لكفه. ماذا لو أستطيع اللجوء فيها؟ كأن هذه الخطوط تناديني تضمني، اكتفني شعور بأنه قد أهداني العالم بهذه الهيئة، وهذه الجلسة، وهذا اللطف الذي يمدني به، والأمان الغريب الذي أحس به.

افتعل كحة.

- ماسة..

أرفع حاجبي مستفهمة، يحرك سبابته بشكل دائري في الهواء.

- لم أفهم؟

- حجابك..إنه..

لم يشرح. أمسك طرفه، سحبه للأمام بسرعة، وقال بحدة:

- أحكميه جيدًا.

- لم شددته بهذه الطريقة؟

قلت وأنا أعيد لفه حول شعري جيدًا، وأدير عيني حيث ينظر، كان آخر من أراد كنان أن يرى، هو نفسه.. جهاد. ركض إليه الصغير، سلم عليه، تحادثا قليلًا، ثم أشار لكنان برأسه مرحبًا، ودخل منزله. قال بذات الحدة:

- جيرانك، ينظرون لما ليس لهم.

قلت بصوت هامس:

- كان يجب أن تلقي السلام على جيراني، ولو أن تلوّح لهم بيدك.

رمقني غاضبًا، قلت متداركة:

- كي لا يفهم، أنك تغار.. منه.

وضحكت.

- أغار؟

أومأت أن نعم، فأمسك خصلة تمردت، ولفها حول إصبعه.

- أعيديها للداخل، لأن غيرتي، تحرق.

أعدتها متوترة، ملأت فراغات أصابع يدي بالأخرى، ونظرت للفجر، أغمضت عيني مستسلمة للقدر، خجلة، فرحة، محبّة. اقترب من أذني،

بـث فيهـما تنهيدتـه التـي تقـول كل شيء دون كلام، تزايـدت نبضـاتي، قبضـت عـلى يـديّ بقـوة. ناديتـه، بـكل مـا أوتيـت مـن خـوفٍ، ومـن ضعـف:

- كنان..

- يحبُّك.

صمت بُرهةً وأعقبها:

- على أمل أن يستريح على قدمك رأسي المتعب، أحبّك.

أزيـد مـن تشـابك أصابعـي، أضمهـما لصـدري بقـوة، أريـد الركـض مـن هنـا، لا أريـد أن أواجـه نفـسي، أرجـوك!

- كنان..

- يحبُّك.

نظر ليديّ المتشابكتين، وقال:

- على أمل أن تجد هذه الأنامل موطنها بين أصابعي..

نطقها للمرة الأخيرة، على مهل، ببطء التنقيط الوريدي:

- أحبّك.

أذن الفجـر، وصـاح ديـكٌ تهتـم بـه الـدادة، ولم أخَـف صيـاح الديـك هـذا اليـوم.

أجد كنان يبتسم، وعينه على الصغير.

- هذا الولد، أكبر من فتى ضممناه تحت جناحينا.

- سبحان الله، مجرد رؤيته تهون عليّ وحدتي.

عنيـت أن أقـول رؤيتكـما، لا.. بـل رؤيتـك. رؤيتـك أنـت. قـام ونفـض عـن يديـه آثـار العشـب.

- بإمكانـك دومًـا، أن تجـدي وسـيلة لتنفـي وحشـتنا اللعينـة تلـك لآخـر الدنيـا.
- كيف؟
- هذه المرّة، كل شيء بيدك.

وقفت أمامه، رجوته:

- لاتتركني لنفسي!
- أنا معك، لا أتركك لخوفك، لكن نفسك.. هي أنتِ.
- كنان..
- يحبّـك ياماسـة. لأنـه يحبّـك لـن يقـول لـكِ اهـربي لحضنـه رغـمًا عنـك. لأنـه يحبّـك، يقـول لـكِ، اهـربي لقلبـه راضيـة مرضيّـة.

رغبـت كثـيرًا في أن أحسـم الأمـر، وأقـول لـه.. أنـا راضيـة لأنـك معـي، مرضيـة لأنـك لا تدخـر جهـدا في إرضـائي، رغبـت كثـيرًا أن أكـسر عُقَـدي، ومـاضيّ، وكلّ مـا يحـول بينـي وبـين أن يطبـق كنـان جفنيـه وأنـا آخـر مـن يـرى. لكنـه، لم يمهلنـي وقتًـا. قـال تصبحـين عـلى خـير، ومـضى.. ركضـت إليـه، ثانيـةً، بـكل قلبـي، وكبريـائي، وعُقَـدي، وأمسـكت كفـه بقـوة:

- إلى أين، تتركنا الآن؟
- سأصلي.. وأذهب.

تفـر منـي دمعـة غبيـة. لا، دمعـة حمقـاء. لا، دمعـةٌ معذّبـة، لا زلـتُ أقبـض عـلى ذراعـه بكفـي المتوسّـل.

- ستعُودُ إليّ؟
- حتى تكوني بخير، أحتاجُ أن أعود إليكِ دائمًا.

مد يده يمسح دمعتي بمنديله القماشيّ؛ المنديل الذي مسح به عيني في المشفى، لا تزال آثار دمعاتي القديمة هناك. وهو يطويه ليعيده إلى جيبه. لمح طرف قلادتي، الماسة المتكسّرة التي أهدانيها، ابتسم بسمته المرتاحة، يعرف أنني بتُّ لا أستطيعُ التنفس بدونها، بدونه، لكنني أخاف كثيراً أن أمشي على شظايا الظنون.

- صدقيني، أحتاجُك أكثر..

وذهب..

أمسك الصغير كفي مواسيًا، لا أعرف متى ترك أرجوحتنا وأتى ليقول لي بوقوفه جواري، أنه ما دام معي، فإن كنان لن يكف عن أن أكون في قلبه، وأنا أريده أن يعرف أنه لو انطبقت الأرض، واختلف البشر، فإن هذا الرجل الذي تسرب لقلبي حتى بات هو قلبي، أريد أن أحمله في صدري كمعتقدٍ ثابت، تجردتُّ به من كل ما كان قبله من إيمان بالحب، ومفهومات الدنيا.

# الأخير

حبيبي بابا،

يقولـون إن الشـوق للأمـواتِ مَـوتٌ، وأنـا لا أحيـا إلا بنـارِ إبراهيـم التـي تؤنـسُ حيـاتي، لأنـك موقدهـا. بابـا، إن الشّـوق للغائبـين جمـرٌ نقبـضُ عليـه الأكُـفّ ونـرضى، وشـوكٌ يبتلعـه الحلـقُ فيؤلِـمُ ونـرضَى، وشـظى نسـيرُ عليـه فننـزِفُ حـد العجـزِ عـن المَـشيِ ونَـرضَى، لكـن الشّـوقَ إليـك، بـردٌ وسـلَام يـا حبيبـي، أقتـاتُ بهـذه النّـارُ يـا أبي، كلـما وجدتُّهـا متقـدةً آنـسُ بِهـا، أعيـد أيامـي، وأبحـثُ فيـما بينهـا عـن قبَـسٍ أو هُـدَى قـد هديتنـي إليـه بخطواتـك المحبّـة الحنونـة. عرِفـتُ في غيابِـك، أن الإنسـانَ بـلا أبيـه، مقـوّسُ الظّهـر، رخـوُ القلـب. عرِفـتُ كيـفَ يتمسّـحُ المـرءُ في الجُـدرانِ كالقطـط الخائفـة، لأن متـكأه قـد أُعفِـيَ مـن المهمّـة.

تذكـر يـا بابـا قصـة عـلاء الديـن والمصبـاح؟ كثـيراً مـا أملـت أن أملـك المصبـاح، ونعـود كـما كنـا، أب وصغيرتـه. أغمـضُ عينـي وأتخيلُنـي عُـدت صغـيرةً بجديلـةٍ تتراقـصُ بامتـدادِ ظهـري، يتقلّـص طـولي فيكـون آخـر مـا يبلغـه نظـري لحيتـك، ويتقلّـص وعيـي، فيكـون كل مـا أفهـم في الحيـاةِ أنّـك فيهـا.

وكثـيراً مـا عـدت خائبـة، محتضنـة قلبـي المهـترئ بـكل ضعـف، متواريـة خائفـة، حتـى أرسـل اللـه إليَّ، الشـخص الـذي أرسـله لـك، وأنـت عائـد مـن صـلاة الفجـر، ليوصلـك إلى البيـت بينـما نطالعـك، أنـا ومامـا ورهـف،

مـن نافـذة غرفتنـا. تذكـره، وتذكـر أنـك تضايقـت كثـيرًا لأنـه قطـع عليـكَ حديثًـا بينـك وبـين نفسـك، تذكـر أنـه كان يمـشي خلفـك عـدة مـرات بعـد الفجـر أثنـاء مرضـكِ، ويمـشي جـوارك يحادثـك ويلاطفـك أثنـاء عافيتـك، ومـا عافيتـك ومرضـك إلا كلهـم قوتًـا يـسري في عظامـي. تذكـر أيضًـا يـا بابـا، يـوم أريتـك بطاقتـه الشـخصية في المشـفى، حـين تعـرّض لحـادث سـيرٍ عنيـف، قلـت بإبهـام أن المعـروف لا يعـرَّف، لكننـي كنـت متأكـدة أن هـذا المعـروف بالـذات، أعنـي إيصالـه لـك، ومسـاعدته لي، وأيضًـا يـا بابـا، حبّـه الكبـير لي.. كان يجـب أن أعرفهـم، وأعـرف صاحبهـم، إن عددنـا فعلَتَـه مجـرّد معـروف.

إن هـذا الرجـل يـا أبي، لم يُعـد لي ماسّـة القديمـة، لكنـه علّمنـي كيـفَ تكـون، مهـما حـدث لهـا، ماسّـة. لم يُخـفِ حُـزن هَتُـون فيّ، بـل أفهمَنـي أن هتـون لا تعنـي بالـضرورة دمعًـا مسترسـلًا مـن عـينٍ كحيلـةٍ نجـلاء، إنهـا تعنـي أيضًـا رذاذ المطـر الخفيـف، وعلمنـي أيضًـا، أننـي الوحيـدة التـي أسـتطيع أن أختـار الجانـب الـذي أريـد مـن اسـمي. هـذا الرجـل يـا أبي، أتى إليّ هتونًـا، كـرذاذ المطـر، صالحنـي عـلى العـالم، وعلّمنـي أنـه لا ينبغـي أن يكـون جميـلًا كـما أريـد، لكننـي أسـتطيع أن أسـيّر حيـاتي، هـذا الجـزء الصغـير جـدًا مـن العـالم، كـما أريـد، وأجعلهـا هـي العـالم.

هـذا الرجـل يـا أبي، احتـوى ماسّـة في كنانـة قلبِـه، أظنـك أحببتـه الآن أكـثر، إنـه أكـثر مـا نتشـابه فيـه أن لكلينـا مـاضٍ أحزنـه يريـد أن يتجـاوزه، كلانـا يريـد أن يحيـا مـع نصفـه بهـدوء وسـلام، لأننـا حـين جربنـا الحـرب، خسرنـا لأن كلينـا أيضًـا كان الأكـثر حبًـا، وزهدنـا بعدهـا الحـبّ، والشريـك، والحديـث عـن النصـف الآخـر.. حتـى التقينـا. لقـد أتعبَتـه مخـاوف هتـون

كثيراً يا بابا، وأرهقَته ظنونها، وأرّقه حبّها، وأضناه صبره عليّ. لن تتخيل يا أبي، كيف كنت أضع قدمي على الأرض وأنا خائفةٌ من غدرها لأنك لست هنا، أعود لأقول لك، أن الدنيا دونك دنيا رخيصة لا تساوي عندنا شيئًا، لولا أن منّ الله على قلبِ رهف بهارون، وأن مسح على قلبي برحمته، فأرسل إليّ كنان.

أريد أن أخبرك كثيراً عنه. لقد ساعدني في أن أنشأ مؤسسة خيرية باسمِك، أديرها بنفسي. جعلني أؤمن أن شخصًا واحدًا يكفيني حبّه حتى أسطُع كالشمس، وألمع كالنجمات.

تركت الطب يا أبي، خفت من شفقة الناس، لأنني أعرف إن سرتُ في أرضٍ كنا فيها معًا يومًا، خاصةً مبنى التعليم الذي لحقت به لأكون معك، سأناديك وأجزم أنني رأيتك، وأبكي وأقسم أنك حقيقي وموجود كحقيقة شروق الشمس وغروبها.

لم أتحمل تلذذ الذكريات بي، وقتها كنت وحيدة، لم أرد أن أكمل دراسة الطب، رغم أنه بقي لي عام، حصلت على دبلومة في علم النفس من كلية الآداب، والآن أسعى لأنال أخرى في المحاسبة، وتعلمت لغات عدة. كبرت يا بابا، قاربت أن أبلغ الثامنة والعشرين، أنا الآن مديرة مؤسسة الصالح، ومترجمة لأكثر من كتاب، وأمٌّ لجمال. لقد ضم هذا الرجل الجميل ماسّةً مهشّمةً إلى كنانته. نعم يا أبي، لقد تزوجت كنان، بعد صراع كبير لأخرج خوفي مني، أفلحت أخيراً. لا أخفيك سرّا، إن هذا الخوف وفيّ، يعود إليّ من وقت لآخر ليذكرني أننا عشرة أيامٍ طويلة. لن أكذب، استسلمت له أحيانًا، لكن الله لم يتركني. يد جمال التي تمسك يدي كلما خرجنا إلى مدرسته، تبعده

عنـي. أصبحـت أحتمـي بهـذا الصغـير، وبصغـيرةٍ أخـرى تـركل بطنـي الآن لتؤكـد لي أن أرسـل إليـك قبلـة عـلى جبينـك.

تعـرف يـا أبي؟ كنـان لا يكـف عـن إخبـاري أنـه سـيقبلها دائمًـا بـين عينيهـا كـما كان دأبـك معـي. يقـول أنـه يريـد أن تحبـه ابنتنـا كـما أحبُّـك. وأقـول دائمًـا أنـه لـن يحـبّ أبٌ ابنتـه كـما أحببتنـي، ولا هنـاك ابنـة سـتحب أباهـا كـما أحبّـك. إننـي أزداد تقديـرًا وحبًّـا لـك كل سـاعة عـن التـي قبلهـا يـا بابـا. لقـد آويتنـي وأنـت لم تعـرف مـن أنـا، وحميتنـي بـكل مالـك، وكل مـا لـك، وكل قلبـك، ولم تفـرق بينـي وبـين رهـف أبـدًا. كفلـت يتيمـةً وربيتهـا فأحسـنت تربيتهـا. أسـتطيع أن أحـس سـعادتك وأنـت تـلازم الرسـول كهاتـين اللتـين أشـار بهـما الرسـول في حديثـه. أنجبـت ابنـة وربيتهـا فأحسـن تربيتهـا، صرنـا اثنتـين. هنيئًـا لـك الجنـة التـي دخلتهـا بإكرامـك لنـا.

أدعـو اللـه كثـيرًا دعـاءك الـذي علمتنيـه. أردده بقلبـي، ولسـاني، وجوارحـي كلهـا. حتـى أن جـمال الصغـير تعلمـه، وبـات يـردده كلـما حدثـه كنـان عـن فضـل الدعـاء والمناجـاة.

كنت تقول:

- اللهـم كـما رزقـت عقـلي الفهـم، ارزق قلبـي فصاحـة الدعـاء، وحـلاوة المناجـاة، وعـدم الصـبر عـن الهـروب إليـك. واجعلنـي كـما نبيـك مـوسى حـين سـألته» ومـا تلـك بيمينـك». أسـهب في إجابتـه «هـي عصـاي، أتـوكأ عليهـا، وأهـش بهـا عـلى غنمـي، ولي فيهـا مـآرب أخـرى». عـلّام الغيـوب أنـت، تعلـم أنـه يمكـن أن يكتفـي بقـول» هـي عصـاي»، لكنـه محـبّ، ومـا

حيلة المحبّ إذا حضر حبيبه يا ربّ؟ وما حيلة المحبّ إن كان ربّه حبيب قلبه يا الله؟ اللهم ارزقني لذة اللجوء إليك، وفصاحة في قلبي تغنيه بك عن العالمين. أسألك أن تلملم شعثه، وأن توليه إلى ظلّك، وأن تمسح عليه برحمتك، وتنجيه مما أنت به مني أعلم. اللهم اسكب في قلبي الرضا، ولا تجعل عيشي كدًّا.

أحمد الله كثيرًا لأنه اصطفاني لأكون ابنتك، ولو اسمًا فقط، ولو أمام الناس. إن كنت حقًا شقيقة هارون، وابنة شهيد فلسطيني، فإنني أمام الله، وأمام نفسي والنّاس، ابنتك أنت، أنت يا أبي، وأفخر كل الفخر، لأنك أبي.. وأشكرك كل الشّكر، لأنني ابنتك..

هل تعرف متى بدأت أخطو خطوة شبه ثابتة يا بابا؟ حين تسرّبت من بين يديّ أحلامي، وانحسرت عني رغباتي، وتبددت أغلب قناعاتي. كل هذا البؤس قد هداني إلى حقيقةٍ واحدة مهمة، أن جل ما يمكن أن يحظى به إنسان هو اللجوء في نهايةِ يومِه ليد تمسح عن ظهره ثقل الدنيا، ومشقّة الطريق. يد تبعدُ طيفَ الماضي، تُهوّنُ من ثِقَل الحاضر، وتتقاسَمُ معه عِبء التفكير في الآتي. قد فهمت الآن لم حلّ بي كلّ هذا. الأمر يستحق. كل ما حدث كان يجب أن يحدث، لأنال الرّضا الذي أشعرُ به في هذه اللحظة.

أنا في بيتي، سليمة معافاة، في انتظار مولودتي، بجانبي صغيري يقرأ كتابًا، وعلى ساقي يغفُو أُنسِي، وسَكَني.. بعد يوم عملٍ شاق، أهونه بأصابعي داخل خصلاته. وفي يدي دفتري وقلمي، أكتب لك، أن يا سيد الحكايا.. كل الآباء في هذا الكون سواسية، إلا أنت.. لا ندّ لك

**ولا شـبيه.**

**هتون**

**٢٩ آب ٢٠١٩**

**تمَّت بحمد الله، وفضله.**

**مريم منتصر.**

**١٠ ذي الحجة ١٤٤٢**